# تاريخ انجلترا وحضارتها

## في العصور القديمة والوسطى

تأليف

دكتور
نظير حسان سعداوي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية المعلمين — جامعة عين شمس

١٩٦٨

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

# كتب للمؤلف

---

# تصدير

شاءت كلية المعلمين أن أحاضر طلبة السنة الثانية قسم اللغة الإنجليزية فى مادة التاريخ الإنجليزى ، لما لها من صلة وثيقة بدراساتهم للغة الانجليزية ونشأتها وتطورها . فاللغة كالكائن الحى تولد مع الجماعة البشرية وتنمو بنموها ، وتزدهر بازدهار حياة تلك الجماعة ودرجة تحضرها ، فإن أولتها الجماعة عنايتها بالذيوع والانتشار والتجديد والابتكار كانت فى خدمة أفرادها . تترجم حياتهم اليومية وتقصها أحسن القصص لأحفادهم والأجيال القادمة ، فهى التى تسجل أحداث المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهى التى تصور قصص الأبطال والملوك والشعوب أصدق تصوير ، وهى وسيلة اتصال تلك الشعوب بعضها بالبعض الآخر .

على أنه لا يتأتى فهم ذلك كله والوصول إلى إدراك لبه ، إلا عن طريق دراسة تاريخ الجماعة ، وسرد تواريخ ملوكها وأمرائها وكتابها وفنانيها وشعرائها ، وعلاقة تلك الجماعة بغيرها من الجماعات البشرية فى أوقات الحرب والسلم سواء . وفضلا عن ذلك كله فإن الدارس للتاريخ الإنجليزى يصل إلى حقائق تاريخية على جانب كبير من الأهمية ، أولها أن العمق التاريخى لبلاد الإنجليز سطحى للغاية إذا ما قورن بالعمق التاريخى لبلادنا . إذ يرجع تاريخ الإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة إلى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد ، عدا تاريخه الأسطورى الذى يمتد وراء ذلك بعشرات القرون ، على حين يرجع تاريخ انجلترا إلى القرن العشرين أو الخامس والعشرين قبل الميلاد ؛ واستعملت مصر المعادن منذ حوالى ٤٠٠٠ ق . م . أما انجلترا فاستعملتها حوالى ٢٠٠٠ ق . م . أى أن انجلترا أخذت عن مصر ثقافتها المبكرة وأسس المعرفة ومظاهر الحضارة ، نقلها إليها تجار البحر المتوسط فى فجر التاريخ الإنجليزى ، كما أشعت مصر نورها على انجلترا فى القرن الخامس الميلادى وما بعده فى ناحيتى الفن القبطى المسيحى والديرية ، فضلا عما نقلته انجلترا عن مصر والمسلمين أثناء الحروب الصليبية .

وثانى الحقائق التاريخية التى يقف عليها الدارس للتاريخ الانجليزى ، أن الجزر البريطانية عاشت لقرون طويلة فى عصورها القديمة فى عزلة تكاد تكون تامة عن القارة الأوربية ومؤثراتها ، حتى جاء الفتح الرومانى فربطها بعجلة الأحداث القارية ، وعاشت منذئذ حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة فى ظل المؤثرات القارية والموجات الحضارية التى وصلتها على مر الزمن . وحين اكتملت مقومات الأمة الانجليزية وتفاعلت نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية مع حضارات الغزاة الوافدين ، بدأت هى بدورها تؤثر فى القارة ، فحملت انجلترا إليها أنظمتها الدستورية وثقافتها ، وركبت البحار شرقاً وغرباً ، وصارت تقف من شعوب القارة موقف الأستاذ الموجه المسيطر على جميع المواقف الدولية فى السياسة والحرب .

وحقيقة أخرى ، هى أنه كما ساهمت الشعوب الغازية لمصر من فرس وإغريق ورومان وعرب وأتراك فى تخليط وتكوين الشعب المصرى الحديث ، كذلك اشتركت الشعوب الغازية للجزر البريطانية من رومان وأنجلو سكسون ودانمركيين ونورمان فى تخليط وتكوين الشعب الانجليزى الحديث ، ولم يتحقق ذلك إلا بعد الفتح النورمانى ١٠٦٦ م الذى خلق من عناصرها المتنافرة أمة واحدة .

على أن الشعب الانجليزى لم يصل إلى ما وصل إليه من تقدم وتمدن وسؤدد إلا بعد أن خاض حروباً أهلية طبقية طاحنة ، دارت رحاها بين القوى الثلاث المتنافسة على السيادة والحكم ، وهى قوى الملوك والأمراء ورجال الدين . وتمخضت المنافسة بينهم عن مولد الطبقة الوسطى المكونة من صغار التجار والمزارعين وأعيان المدن . ثم حدث التفاعل والانسجام الاجتماعى بين أفراد تلك الطبقات الأربع وما دونها من طبقات أخرى ، وشاركت جميعها فى بناء القومية الانجليزية مطلع القرن الخامس عشر الميلادى وتولد — عن الحروب الأهلية كذلك — نظم الحكم البرلمانية والادارية والمدنية .

ويرجع منشأ التمدن الانجليزى الحديث جملة وتفصيلا إلى مبدأ أساسى أخذ

الانجليز به منذ عصورهم الوسطى ، وهو بناء شخصية الفرد ورعايتها منذ الطفولة والعمل على إبرازها واستقلالها واحترام إرادتها وحريتها ونشاطها .

وفق الله الجميع إلى ما فيه خير الأمة العربية لتصير خير أمة أخرجت للناس قولا وعملا .

نظير حسان سعداوى

المنيرة فى { ١٠ ذى الحجة سنة ١٣٧٧
{ ٢٧ يونيه سنة ١٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

# الفصل الأول

## بريطانيا الرومانية

## (٥٥ ق . م — ٤٥٠ م)

أثر جغرافية الجزر البريطانية فى تاريخها — الهجرات البشرية الأولى — الايبيريون — البيكريون — الكلت — الحضارة الكلتية — الفتح الرومانى — قيصر وحملة سنة ٥٥ و ٥٤ ق . م — ثورات البريطانيين ضد روما ابتداء من سنة ٦١ م — ولاية أجريكولا العظيم (٧٨—٨٤ م) — هادريان — سفيروس — الحضارة الرومانية فى بريطانيا — سور هادريان — الطرق الرومانية — مدينة لندن — التقسيم الادارى — الاهتمام بالريف والزراعة — تخطيط المدن — التجارة — المسيحية فى بريطيا — التعليم واللاتينية — الخاتمة .

# أثر جغرافية الجزيرة فى تاريخها

تتكون الجزيرة البريطانية من جزيرتين كبيرتين هما بريطانيا العظمى وإيرلندا، ثم عدد من الجزر الصغيرة المبعثرة هنا وهناك . وتمتد تلك الجزر بين خطى عرض ٥٠ و ٦٠° شمالا . وتقع فى الشمال الغربى من أوربا غير بعيد عنها . وكل ما يفصلها هو بحر الشمال ، يقع بينها من جهة وبين النرويج والدنمراك وألمانيا وهولندة من من جهة أخرى ، ثم القنال الإنجليزى English Channel الذى يفصلها عن فرنسا والذى يضيق فى الشرق حتى يصبح عرضه نحو ٢١ ميلا ويعرف باسم مضيق دوفر . وتنقسم الجزر البريطانية من حيث التضاريس والمناخ إلى قسمين : قسم من أراض مرتفعة فى الغرب والشمال أى ويلز ( بلاد الغال ) واسكتلندا . والآخر أراض سهلية فى الجنوب والشرق أى انجلترا ، ولا يزيد ارتفاع أعلى أجزاء هذا السهل الإنجليزى المنبسط على الألف قدم ( ٣٣٠ متراً ) ويمتد نحو الغرب فى الداخل حتى مقدمة مرتفعات ويلز ويحتل هذا السهل أكثر من ثلث بريطانيا العظمى ، وهو أحسن جهاتها مناخاً فهو ليس غزير المطر كما فى الغرب وليس شديد البرودة كما فى الشمال ، ويسكنه نحو ثلثى سكان بريطانيا كلها . وفى الجزء الشمالى منه وحول جبال البنين الجنوبية توجد أهم مناجم الفحم فى بريطانيا ومعظم حديد الجزيرة ، ويهرع إليه المهاجرون باستمرار من الشمال والغرب .

أما اسكتلندا فتحتل الثلث الشمالى من الجزيرة ومعظم أراضيها جبلى ، فتحتل مرتفعات اسكتلندا الأجزاء الوسطى والشمالية الغربية منها ، وتمتد المرتفعات الوسطى من بريطانيا العظمى فى جنوب اسكتلندا ، ويوجد سهل اسكتلندا بين المجموعتين الجبليتين ، وفيه تقوم كل المدن الكبرى ما عدا أبردين ، ويعيش فيه نحو ٩٠٪ من مجموع سكان اسكتلندا مع أنه لا يتجاوز ٢٠٪ من مساحتها . وتشتمل اسكتلندا على $\frac{1}{6}$ سكان الجزيرة تقريباً . وتقع إيرلندا إلى الغرب من بريطانيا العظمى ويفصل بينهما البحر الإيرلندى وتقترب الجزيرتان بعضهما من

بعض فى خمسة مواضع[1] . وتنقسم إيرلندا سياسياً إلى قسمين منذ سنة ١٩٢٠ ، إيرلندا الشمالية وهى رغم كونها جزءاً من المملكة المتحدة United kingdom فلها برلمانها ؛ ودولة إيرلنده فهى مستقلة ، ولا تزال تربطها بالجزر البريطانية روابط عديدة وتسعى جاهدة لضم الشمال إليها ، وتمثل جمهورية إيرلندا ⅘ الجزيرة ، وتقع مواجهة لويلز من جهة ولأمريكا الشمالية من جهة أخرى ، وتوجد السهول المكشوفة والأودية الخصبة فى الشرق والجنوب الشرقى التى تنفتح نحو بريطانيا ، والنهر الرئيسى بها هو نهر شنن .

وتقع الجزر البريطانية من الناحية المناخية ضمن الأقاليم المعتدلة الباردة ، التى يسميها العالم الجغرافى فلير H.G. Fleure « إقليم العمل وبذل الجهد » لأن الإنتاج هنا يتطلب من السكان كل مجهود للحصول على الثروة المرجوة(٢) . والمناخ من النوع الإعصارى ، فتمر الأعاصير وما يصحبها من رياح هابة فى كل الاتجاهات بالجزر البريطانية ، مما يجعل المناخ كثير التقلب والتغييرات السريعة مع اختفاء البرودة الشديدة، والسماء دائماً قاتمة محملة بالسحب والمطر ، وهذا يؤدى إلى نشاط السكان ويعدهم لتحمل أنواع مختلفة من المناخ فى خارج بلادهم دون أن يؤثر ذلك فى صحتهم . وهو من أحسن أنواع المناخ ملاءمة لرقى الإنسان وتقدم حضارته فهو بارد أحياناً ، وتساعد برودته الإنسان على النشاط الجسمانى ، ثم هو غير شديد الحرارة فى الصيف ، فلا يقلل من النشاط العقلى ، أى ينمى القوى العقلية الجثمانية ويقويها ويؤجلز السكان على قول تريفليان(٣) . ولم تكن الشمس ترى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتى فى اليوم الصحو كما يقول استرابون(٤) .

والرياح السائدة بصفة عامة هى الغربية والجنوبية الغربية وهى رياح دفيئة ، ساعدت هى وتيار الخليج الدافىء على جعل الموانىء البريطانية مفتوحة طول العام ،

---

(١) راجع كتاب « هذا العالم » ص ٤١ تأليف دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى ودكتور محمد محمود الصياد . طبعة دار المعارف .

(٢) هذا العالم ص ٣٨ .

(٣) G. m. Trevelyan : History of England p. 63-ed. 1936

(٤) ديورانت . قصة الحضارة . ج ٣ مجلد ٣ ص٥٣ .

والمطر بطبيعة الحال أكثر فى الغرب منه فى الشرق ، ويزيد فى هذا الاختلاف وجود المرتفعات فى الغرب والسهول فى الشرق ، ولهذا يتدرج متوسط المطر من ٢ $\frac{1}{3}$ متر فى بعض الجهات الجبلية إلى $\frac{1}{2}$ متر فى بعض جهات أيست أنجليا East Anglia . وأدت غزارة الأمطار مع فقر التربة ، فى الغرب والشمال الغربى إلى تجمع السكان فى الأجزاء الشرقية والوسطى ، وكذلك يتجمع سكان إيرلندا فى الجنوب الشرقى منها . ولقد أدى تركز معظم سكان الجزر البريطانية فى الأجزاء الجنوبية الشرقية واعتمادهم على الموارد الخارجية فى الغذاء والمواد الخام ، أن أصبحت الأجزاء البحرية المجاورة لها أهم أجزاء الماء المحيط بالجزر ، ومنها وصلت كل الغزوات القديمة من رومان وانجلوسكسون ودانيين ونورمان ، وهددت سلامة البلاد وسكانها وما زالت حتى اليوم مصدر الخطر الرئيسى عليها .

ويليها فى الأهمية المنطقة التى تعرف باسم المنافذ الغربية وتمتد بين السواحل الجنوبية لإيرلندا والساحل الشمالى البريطانى ، وعن طريقها تصل معظم الواردات وخاصة الحبوب والمواد الخام الآتية من جهات العالم الجديد ، ولذا فإن سلامة حركة المرور فى هذه المنافذ الغربية ضرورى جداً لحياة سكان الجزر البريطانية ، كما كان لحماية الأجزاء الشرقية أهمية كبرى فى الدفاع عنهم ضد الغزو الأجنبى(١) . معنى ذلك أن الغزاة يسلكون أحد طريقين من القارة إلى الجزر البريطانية ، أولهما عبر المسطحات المائية الضيقة The narrow - seas التى يختلف اتساعها من جهة إلى أخرى على طول بحر الشمال والقنال الإنجليزى ، وثانيهما من موانى البحر الأبيض المتوسط أو أسبانيا إلى موانى القنال الإنجليزى أو إلى موانى الطرف الجنوبى الغربى والبحر الإيرلندى ( مثل بريستول ) ثم الطواف حول اسكتلندا إلى إسكندناوه ، وأكثر الغزاة فى عصر ما قبل التاريخ جاءوا عن هذا الطريق الأطلنطى . كما وصلت الحضارة الأوربية القديمة انجلترا عن هذا الطريق(٢) .

ولما كان التكوين الجغرافى لدولة ما هو مفتاح تاريخها فى عصورها الغابرة ودليل استقرارها للمبكر ، ولا سيما فى وقت تعذر على الإنسان أن يخضع الطبيعة

---

(١) هذا العالم ص ٥١

(٢) Carter ; Hist of Britain, V.I. p. 2.

لرغباته وحاجياته كما هو الشأن اليوم ، فإنه من المفيد الإشارة إلى هذا التكوين الجغرافى للجزر البريطانية . لم يكن العلم كله معروفاً للاغريق القدماء رغم معرفتهم لكروية الأرض بل كان عالمهم مركزه البحر المتوسط ومن ثم كانت الجزر البريطانية واقعة على هامش ذلك العالم حتى العصور الوسطى . ولم يكن معروفاً منها إلا الجزء المواجه للقارة الأوربية ولهذا حملت بريطانيا كلها اسم البيون Albion وهو اسم الحافات الطباشيرية التى تقع فى الجزء الذى كان معروفاً . وظلت إيرلندا واسكتلندا وخاصة الأجزاء الشمالية فيها حتى ذلك الوقت بلاداً مجهوله ، وأصبح من المحتمل تعمير الجزيرة البريطانية بعد العصر الجليدى مباشرة ، حين قصدها المهاجرون الأولون حوالى ٢٠٠٠ ق م من أوربا الشمالية عقب تقهقر الجليد معهم الحيوانات الضاربة والخيول والخنازير والطيور والأزهار والأشجار بأنواعها . وحين قدوم هذه الهجرة البشرية الأولى التى عرفت بالهجرة البيكرية Beaker Folk كانت سلسلة الجبال الطباشيرية لدوفر وكاليه لا تزال تكون وحدة متصلة ويصب نهر التيمز فى الرين ، والظاهر أن إيرلندا تم انفصالها عن انجلترا قبل انفصال الأخيرة عن القارة وقبل حدوث بوغاز دوفر ، مما يفسر فقر إيرلندا فى النباتات والحيوانات كما يفسر وجود المرتفعات فى غرب انجلترا وشمالها ، والسهول والأنهار الصالحة للملاحة فى شرقها(١) .

على أن بعض المؤرخين يرى أن أقدم حضارة وصلت إلى الجزيرة البريطانية هى الحضارة الميجاليثية megalithic Culture (٢) الواردة من حوض البحر المتوسط عبر الطريق الأطلنطى ، حملها معهم اللاحقون المهاجرون من شعوب ذلك البحر ، وعلى الخصوص الايبيريون المعروفون ببشرتهم السمراء وشعرهم الأسود بالسير عن طريق سواحل أسبانيا والبرتغال وفرنسا بين ٢٥٠٠ و ٢٠٠٠ ق . م تقريباً أى خلال العصر الحجرى والعصور البرنزية ، ثم انتشرت تلك الحضارة بالبحر الأيرلندى وعلى طول شواطىء بريطانيا الغربية حتى وصلت إلى الطرف

---

(١) هذا العالم ص ٤٨ و Trevelyan, p. 2.

(٢) أنظر قصة البشرية تأليف بينى وترجمة محمد متولى ومحمود موسى ص ٥٢ — مطبعة الفكرة — راوس ، التاريخ الانجليزى ترجمة زيادة الطبعة الأولى ص٤ .

الشمالى لشبه جزيرة أسكندناوه . وعاش سكان تلك الجهات فى ظل تلك الحضارة ، ومظاهرها كما حملها الأيبيريون معهم وهى مزاولة حرفة الصيد والرعى وطرق استئناس الكلب والغنم والماعز والثعلب والخنزير ، ومعرفة الصناعة والزراعة والاشتغال ببناء السفن والاتجار مع قبائل القارة وإقامة الموانى للاتجار فى الذهب مع إيرلندا .

والقبيلة هى وحدتهم السياسية وتتكون من عدد قليل من الأنفس . والجدير بالذكر هنا أن أصل تلك الحضارة الأيبيرية المنقولة إلى الجزر البريطانية شرقية ، حملها التجار من مصر وكريت والعراق عبر البحر المتوسط فمضيق هرقل ( جبل طارق حالياً ) إلى جزر الصفيح فى أقصى البحار الشمالية . أى أن تجارة بريطانيا مع دول شرق البحر المتوسط أقدم من الغزو السكلتى لها ، وآية ذلك العثور على حجر الكهرمان الإنجليزى الأسود فى أسبانيا حوالى ٢٥٠٠ ق . م . وعلى العقود المصرية فى انجلترا حوالى ١٣٠٠ ق . م وصار بذلك تجار البحر المتوسط أول مكتشف للجزر البريطانية فى فجر التاريخ(١) ويؤكد هذا القول علماء الأجناس حين يرجعون تعمير الجزر البريطانية إلى جنس البحر المتوسط ، وإليه ينتمى المصريون والسوريون وكثير من سكان الهند الحاليين والجزر البريطانية ، ولا زالت بقاياه اليوم فى كرنوول وويلز وغرب ايرلندا . ووطن جنس البحر المتوسط هو المنطقة التى أخذ منها اسمه . وهناك من الأسباب ما يجعل من حق المصريين أنهم أول من سطر أسس الحضارة الحالية من زراعة ورعى وصناعة نسيج ومعادن وفخار . ومن ثم أخذت هذه الأسس طريقها إلى الجزر البريطانية وغيرها من جزر البحر المتوسط الذى هو أصل المصريين والبريطانيين معاً (٢) . وعن هذا الطريق الشرقى وفدت غزوات السكلت وآخرها غزوة البلجيين Belgae ثم الرومان فالتيوتون والمقصود بهم مجموعة الأقوام الوافدة على الجزيرة من سواحل بحر الشمال ، وهم الانجليز السكسون والدانيون والشماليون . نزلت هذه الغزوات فى الشرق والجنوب الواحدة

---

(١) Trevelyan, op. cit. p. 7.

(٢) قصة البشرية ص ١٠١ — ١٠٣ .

تلو الأخرى . تقتل السكان الأصليين ، وتطرد من تبقى منهم إلى الغرب والشمال ، وتقيم هى مدنيتها وملكها فى الشرق والجنوب ، الذى صار مطبوعاً بطابع المدنيات الجديدة الواردة من الخارج مع الغزاة ، على حين طرد الغرب والشمال كل دخيل عليه أو نجح فى تحويله إلى شبه ما به من مدنيات ، وغدت مدنيه الجهات المرتفعة متصله الحلقات ، مطبوعة بروح المحافظة على القديم فى مختلف العصور التاريخية حتى جاءت الثورة الصناعية فى التاسع عشر الميلادى ، وأحدثت الاختراعات الصناعية بغربى الجزيرة مالا نظير له بشرقيها ، ومن هنا بدأ التفاعل والاحتكاك بين القسمين وبذلت الجهود المتصلة نحو التمازج .

وخلاصة القول أن الموقع الجغرافى والتربة والثروة الطبيعية والمناخ قد أثرت هذه العوامل كلهافى تكوين الشعب الانجليزى وأصبح الشعب والجزيرة هما العنصران الأساسيان فى التاريخ الانجليزى على قول راوس (١) إذ جعل الموقع الجغرافى الجزيرة فى متناول كل قادم على غزوها ، وتعرض الجزيرة للغزو جعل حضارتها تبدو كأنها طبقات من حضارات بعضها فوق بعض ، كما جعل سكانها أخلاطاً يسيطر عليها بحضارته آخرها قدوما إلى الجزيرة ، بحيث تكون الحضارة الجديدة أوضح معالم بالقسم الشرقى من الجزيرة عنها بالقسم الغربى وهكذا تحكمت الجغرافية فى تاريخ الجزيرة طول عصورة المتعاقبة ، إذ لو أن سلسلة الجبال امتدت على طول الشواطىء الجنوبية والشرقية للجزيرة بدلا من امتدادها غرباً وشمالا لتعذر على القبائل الغازية من أن تنزل بالجزيرة فى دفعات متتالية ومن أجناس مختلفة .

---

(١) التاريخ الانجليزى ص ٦ .

# الحضارة السكلتية

وحوالى ٦٠٠ ق . م . أى فى أثناء عصر المعادن جاءت هجرة ثالثة من القارة إلى الجزر البريطانية وفرضت سلطاتها ولغتها وحضارتها على أهل البلاد الأصليين من سلالات المهجرتين السابقتين . هذه الغزوة الجديدة تنسب لشعب قديم إسمه السكلت Celt وهم من نفس الجنس الذى ينتسب إليه قبائل الغال التى استقرت فى فرنسا وشمال إيطاليا وشمال غرب المانيا والأراضى المنخفضة ، وأصلهم من أواسط أسيا . هاجروا إلى بلاد اليونان ثم انتقلوا إلى ايطاليا وزحفوا غرباً حتى سواحل المحيط الأطلسى حيث أقاموا ، فكانوا أول من سكن أرض فرنسا الحالية ( بلاد الغاله أو غاليا ) وهم قبائل كثيرة امتازت بالشجاعة وجرأة التوغل فى البلاد البعيدة ، فتجاسرت جماعات منهم على ركوب البحر فى زوارق وعبرت بحر المانش ونزلت فى الجزر البريطانية واستوطنتها . جاؤها أفواجا تلو أفواج . لكل منها لهجته الخاصة ، وحاربوا الأيبيريين وأجلوهم عن الجنوب والشرق إلى الجبال فى الغرب والشمال .

عرف من تلك الأفواج القادمة موجتان : الأولى السكلتيون الجبليون (Gaelic) سكان الجبال الأسكتلندية من ذوى الشعر الأصهب والأسلحة المصنوعة من البرنز وقد وصلت هذه الموجة انجلترا فيما يظن حوالى ١٢٠٠ ق . م . والثانية السكلتيون البريتونيون Brythonic الذين أقبلوا من داخل القارة حوالى عام ١٠٠ ق . م فيما يظن وطرد وابنى عمومتهم من جنوب بريطانيا وشرقيها واستقروا ببلاد الغال (ويلز) وكورنوول وعرفوا بأسلحتهم المتخذة من الحديد . وإلى هذه الموجة الثانية تنسب بريطانيا اشتقاقا من اسمهم ، واقتفى أثرهم قوم من البلج Belgae من شمال فرنسا اختلطوا بهم (١) .

---

(١) تاريخ أوربا فى العصور القديمة تأليف فيشر ترجمة ابراهيم نصحى وآخرون . طبعة دار المعارف ص ٣٨ .

عرف الفينيقيون الجزر البريطانية وجلبوا منها الحديد والقصدير ، غير أنهم لم يكتبوا شيئاً عن جغرافيتها أو عادات وأخلاق سكانها . ولما ظهر الإغريق فى عالم التجارة الدولية أرادوا منافسة الفينيقيين فى غرب البحر المتوسط ، فأنشأوا مدينة مرسيليا على الشاطىء الشمالى من جهته الغربية قبالة المدينة الفينيقية قرطاجنة الواقعة على الشاطىء الجنوبى الإفريقى . وفى الوقت الذى غزا فيه الأسكندر المقدونى الشرق أى حوالى ٣٣٠ ق . م ، غادر بيثياس Bytheas المرتاد الماسليوتى Massiliot الإغريقى سرآمدينة مرسيليا ، وعبر المحيط الأطلنطى إلى بريطانيا حيث نزل فى كرنوول Cornwall وبعد أن زوده مواطنوها بالمعلومات عن مصادر الحديد والصفيح اتجه إلى بلدة كنتياى Cantii فى مقاطعة كنت Kent فوجدها غنية بزراعتها وتجارتها وخاماتها المعدنية من النحاس والحديد والقصدير والرصاص ، كما وجد صناعتها المنزلية كافية لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التى تسكنها ومع القبائل الأوربية (١) . ومن ثم سار بيثياس مع الشاطىء الغربى للجزيرة حتى وصل الطرف الشمالى لأسكتلندا وجزر شتلند . ورجع عن طريق بحر الشمال فنهر الرين مخترقاً غاليه إلى مرسيليا : وسجلت رحلته أول احتكاك بين الحضارتين الإغريقية والكلتية ، وبانت مؤثرات الأولى فى الثانية حين قلدت القبائل البريطانية الجنوبية ملوك مقدونيا فى ضرب نقودهم من البرنز الذهب حوالى ١٥٠ ق . م (٢) .

وحافظ الكلت على نظامهم القبلى الموروث ، فبقيت قبائلهم وعشائرهم متصلة بعضها بالبعض الآخر بروابط شرعية وعاطفية صارت أساساً خلقياً لمجتمعهم واعتبروا ملوكهم رؤساء عشائر أكثر منهم ملوكا إقطاعيين . ووقعت أكثر أقاليم الحضارة الكلتية تقدما فى الجنوب والجنوب الشرقى حيث المراعى والأراضى الخصبة ومناجم الحديد والموانى الصالحة لرسو السفن ، وطرق الملاحة الميسورة مع تجار البحر المتوسط والقبائل الكلتية الأخرى فيما وراء البحار . وانقسم

---

(١) قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٣ تأليف ديورانت ترجمة بدران ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) Trevelyan, p. 10 — Carter, p. 6.

المجتمع السكلتى إلى ثلاث طبقات : عامة الشعب ويعاملون كالعبيد تماماً ، والإشراف ويحكم كل منهم مقاطعة مستقلة ، ثم رجال الدين ويقسمون إلى ثلاث رتب ، اختصت الأولى بنظم الأشعار ، والثانية بالترتيل والإنشاد على القياثير ، والثالثة وتعرف بالدرويد Druides وهم الكهنة أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد ، وأمناء دين السكلت . وظيفتهم الاشتغال بالدروس العقلية فى البلاد ، وتعريف مذهبهم الـ Druidism للمواطنين . أنشأوا المعابد لعبادة الصخر والأحجار والينابيع والأشجار واتخذوا غابات شجر البلوط المظلمة مقراً لها ، يقدمون فيها القرابين الآدميين لمعبودهم المريخ لزعمهم أن الآلهة لا تسر إلا بالدم . آمنوا بالثواب والعقاب عند الموت ، ونادوا بتربية الأبناء تربية حسنة وحضهم على عمل الخير وعدم قتل النفس . وتشبه دياناتهم أديان أهل الشرق كالهنود وغيرهم لأن عادة إحراق جثث الأموات التى ذاعت بينهم مأخوذة فى الغالب عن الهنود

وأعطى المجتمع السكلتى للنساء الحرية فى اختيارهن أزواجهن ، وكن يأتين رجالهن بالمهر كالعادة المتبعة اليوم عند الغربيين . وإذا أراد الأب أن يزوج ابنته ، يدعو جمهوراً من الشبان إلى مسكنه فتخرج عليهم الابنة وبيدها كأس ملأى بالخمر فمن تناول الكأس من الحاضرين يكون لها عريساً : وللرجل التسلط المطلق على المرأة وعلى أولاده وله حق التصرف فى حياتهم جميعاً . وغلب على عوائد السكلت وملابسهم وأطعمتهم الخشونة والبساطة كسائر الأمم القديمة ، واتصفوا بالحماسة والحدة والشجاعة والكرم والسخاء والقيام بحق الضيافة ، ينجدون كل من يحتمى بهم ، وأسلحتهم من أنواع البلطات والحراب الكبيرة غير المدببة ، والأقواس والنشاب يتسربلون بالدروع وعلى رؤسهم الخوذ ، وأتراسهم كبيرة جداً تسترهم من الرأس إلى القدم . استبد الدرويد بالشعب السكلتى استبداداً قوياً فى جميع نواحى الحياة الثقافية والقضائية والإدارية والاقتصادية ، حتى دخل الرومان بلادهم فاستأصلوا شأفتهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم(١) .

---

(١) راجع سرهنك . حقائق الأخبار فى دول البحار ج ٣ ص ١٩ — العالم الانجليزى تأليف بشارة كنعان مطبعة أمين هندية ج ١ ص ٥٤ .

# الفتح الرومانى للجزر البريطانية
## ( ٥٥ ق . م — ٤٤٩ م )

كانت الإمبراطورية الرومانية على عهد يوليوس قيصر تشمل أسبانيا وبلاد الغال وإيطاليا والبلقان والشاطىء الشمالى لأفريقيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى. وكان نهر الدانوب والرين يذودان عن حياض الإمبراطورية وفيما وراء هذه الحدود النهرية الطويلة ، كان رجال القبائل الجرمانية الأشداء ينتشرون فى أعداد تجل عن الحصر . واستقر رأى يوليوس قيصر على القيام بعدة حملات حربية لصرف القبائل الجرمانية عن خطوط الدفاع الرومانية فى هذه الأصقاع وبرهن قيصر خلال تلك الحملات الثمانى العجيبة التى قام بها بين عامى ٥٨ — ٥١ ق . م على مدى كفايته فى الناحيتين العسكرية والسياسية ، إذ اكتشف فى إحدى تلك الحملات أن هناك نجدات حربية تصل تباعاً من البحر إلى أعدائه الغاليين بالقارة فتزداد مقاومتهم له وتضاعف من خسائر قواته ، ولاحظ قيصر أن هذا المدد مصدره القبائل البلجية البريطانية التى تعترف بشىء من سيادة ملك البلجيين فى القارة عليهم ، فلما علمت بغزو الرومان لإخوانهم أرسلوا إليهم حملة بحرية تؤازرهم براً وبحراً فى مقاومتهم الغزو الرومانى ، فضلا عن إيواء الجزيرة البريطانية للفارين من الرومان والتجار الغاليين وكهنتهم المعروفين بالدرويد، واتخاذهم الجزيرة مركزاً لمقاومة حركة التوسع الرومانى فى القارة.

وسرعان ما تولد الدافع الأول لقيصر فى غزو بريطانيا وأصبح من الضرورة الحربية لحماية إقليم غاليا أن يعبر المانش ويغزو بريطانيا . ويقضى على الصلات السياسية والعلاقات التجارية وروابط القرابة والنسب القائمة بين البريطانيين والغاليين بالقارة . ولم يكن ظهور قيصر فى ساحات بلاد الغال فى دور المعتدى على القبائل الكلتية ، وإنما فى دور المدافع عنها الذى قام أولا بصد هجرة شعبية كبيرة تحركت من القسم الغربى من أرض سويسرة الحالية إلى الأطراف الغربية للقارة(١) وحبب

(١) راجع هذا الرأى فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى تأليف فيشر وتعريب نصحى. ص ١١٢ .

الفتح إلى نفس قيصر ما اشتهر عن الجزيرة البريطانية يومئذ من خصوبة الأرض ووفرة الحاصلات وجودتها ، فضلا عن الشهرة الذائعة منذ أمد بعيد عن مستودع العبيد ومناجم الصفيح بالجزيرة البريطانية المجهولة والتى قلما يبلغها التجار حتى ولا تجار مرسيليا المغامرين . وتبين لقيصر الآن أنه من اليسير على الفرق الرومانية أن تبلغها وتستحوز على هذين الموردين الهامين فى ميادين التجارة والصناعة . وطمع قيصر أخيراً فى السيطرة على حركة الملاحة البحرية فى أقصى غرب المانش والنوافذ التجارية على شاطئيه القارى والبريطانى .

وهكذا تجمعت لدى قيصر الأسباب الحربية والسياسية والاقتصادية للقيام بأخطر مغامرة حربية يقوم بها قائد رومانى فى التاريخ القديم ، لأنها مغامرة إلى أرض مجهولة ، لم تطأها قبله جيوش غازية ، ولم يكتب عنها رحالة أو زائر ، ولم يسترشد فى غزوها بمعلومات قط . ما هى الصفات الحربية لهذا الشعب الذى سيغزو دياره ؟ ما هى مقوماته الدفاعية ؟ ما هى الطرق التى سيسلكها ؟ هل هى فى السهول أو المرتفعات ؟ هل هى فى الغابات أو فى الأحراش ؟ هل هناك أنهار تعترض سبيله؟ الإجابة على هذه الأسئلة من باب التخمين . وازن قيصر بين أسباب الغزو والظروف الغامضة والمحيطة بها ، وبين إمكانياته فى الرجال والمعدات وبعد الشقة بين قاعدة إمبراطوريته فى روما وبين ميادين القتال ، وما سوف تتعرض له خطوط تموينه من أخطار لا حصر لها . أهمها بلا ريب الشعوب الغالية والجرمانية المعادية للامبراطورية الرومانية .

عرف قيصر أن القبائل الكلتية النازلة فى بلاد الغال كانت رديئة التسليح سيئة التنظيم ، تقطع أوصالها الأحقاد والمنافسات ، وعرف كيف يستفيد من كل مواطن ضعف خصومه ، وكان مرناً فى سياسته ، يلجأ إلى اللين تارة والتهديد تارة أخرى ، فإذا لم يفلح التفاهم عمد إلى القوة ، عادته فى المراحل الأولى من حروبه ضد الغال قبائل الأيدوى Aedui النازلين فى فرنسا بين اللوار والساءون ، والريمى Remi النازلين فى بلجيكا .

عبر قيصر القنال الإنجليزى مرتين ليلقى الرعب فى قلوب البريطانيين . الأولى

فى مساء ٢٦ أغسطس سنة ٥٥ ق . م بعد أن بنى قوارب أسطوله على نسق السفن الرومانية المعروفة فى المجرى الأسفل لنهر الرين وعلى سواحل فرنسا الغربية ، ليعرف بحارة الكلت أن روما كانت سيدة البحار . أبحر قيصر فى ثمانية آلاف محارب رومانى من ميناء يحتمل أنه قريب من كاليه الحالية ، ونزل على جزيرة ديل Deal الحالية حيث ضرب خيامه . ولما كانت سفن أسطوله مصنوعة من أخشاب غير متينة لم تقو على مقاومة الزوابع فغرقت عن آخرها وعجز فرسانه عن النزول إلى البر ، وعلم البريطانيون بالكارثة التى حلت به ، فأسرعوا إلى جمع أشتاتهم للدفاع عن بلادهم ، ووقفوا على الشاطىء عراة الأجسام ، وبأيديهم الحراب والبلطات ، وحدثت مناوشات بينهم وبين قيصر جعلتهم يفرون أمامه إلى الداخل ، وقيل إنه اضطر أمام هجماتهم إلى أن يعقد معهم هدنة ثم تركهم عائداً إلى الغال .

وبعد أن ضاعف قواته المحاربة وزودها بعدد كبير من السفن والبوارج والزوارق والقوارب والفرسان عاد إلى غزو بريطانيا فى ربيع سنة ٥٤ق . م . من نفس المكان الذى نزل به فى غزوته الأولى فلم ير أعداءه ، ولا أى نوع من أنواع المقاومة الوطنية ذلك أن البريطانيين تراجعوا إلى الداخل وركزوا خطوط دفاعهم شمال نهر التايمز Thames بقيادة ملكهم كاسيفيلاونوس Cassivellaunus غير أن قيصر لجأ إلى أسلوبه القديم فى محاربة عدوه ، عرف انقسام البريطانيين إلى أربعين قبيلة أشهرها قبيلة كنت الساكنة فى مدينة كنت وأن العشائر الأخرى تحسد قبيلة كنت على سؤاددها وصدارتها لهم ، فجذب إليه الزعماء المنافسين لملك كنت الذى لم يحتمل الضربات التى وجهها إليه قيصر فأتى إليه مستسلماً ، راضياً بالخضوع والولاء والجزية ، ثم عاد قيصر عابراً القنال الانجليزى ليؤكد لروما أن القبائل التى تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة وأن غلاتها تكفى جيشاً غازياً يأتيها فى الوقت المناسب(١) . عاد إلى روما بعد أن رؤيت جنودها تجوب سهول كنت وميدل اسكس Middle Essex ، وبعد أن دون قيصر ملاحظاته عن الجزيرة البريطانية وعن حياة ساكنيها ومعتقداتهم الدينية ، ونظم حكمهم ،

---

(١) ديورانت جـ ٣ مجلد ٣ ص ٥٥

وما بينهم وبين الغاليين من أوجه الشبه والخلاف ، وخص مقاطعة كنت بنصيب كبير من مذكراته الواردة ضمن كتابه de bello-gallico ، وركز اهتمامه أيضاً فى القوة التى نظمها رجال الدين المعروفين بالدرويد ، وشبكة الجاسوسية التى هددت سلطان روما فى غرب القارة وقارن بين قوتهم فى الغال وفى بريطانيا ، وأنهم أشد وأنكى خطراً فى الأخيرة لسيطرتهم على التعليم فى المدارس والقضاء فى المحاكم . ولهذا كان قيصر أول من أرخ للجزيرة البريطانية وكتب عنها (١) ، وأطلق على سكانها كلهم إسم البريطانيين Britanni نسبة إلى تلك القبيلة الغالية التى تسمى بهذا الاسم والتى كانت تسكن جنوبى القناة الانجليزية مباشرة ، ظناً منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين (٢). ثم قتل يوليوس قيصر عام ٥٤ ق . م . ونشبت الحروب الأهلية بين قادة روما انتهت بانتصار أغسطس قيصر عليهم فى وقعة أكتيوم عام ٣١ ق . م .

ورغم امتداد سلطان روما إلى بعض أجزاء من الجزيرة البريطانية ، فإن الفتح الحقيقى لها قد تأخر لأسباب سياسية بعد وفاة أغسطس قيصر سنة ١٤ ق . م منها أن الامبراطور تيبيريس لم يجد ضرورة حربية لفتح بريطانيا بل والقيام بأى حروب أخرى . غير أن تغير الأحوال فى بريطانيا بعد سنة ٣٧ م نتيجة ظهور حركة معادية لروما فيها ، ظهرت أعراضها فى شمال غاليا شغلت بال كاليجولا ( ١٤ — ٣٧ م ) كثيراً (٣) . وتفصيل ذلك التغيير أن زعامة البلجيين والبريطانيين بالجزيرة فى شخص ملكهم سمبلين Cymbeline الذى خلده الكاتب الشاعر المسرحى شكسبير فى مسرحياته . والذى أضحت عاصمة ملكه كولشستر مزار الرسميين من الرومان وكبار التجار من الغاليين . وحدت تلك الزعامة سكان الجزيرة ، مما دعا الامبراطور

---

(١) راجع Trevelyan p. 13 — Carter, pp. 7-8 — فيشر ترجمة نصحى ص ١١٣ — حقائق الأخبار ج ٣ ص ٢٣ — كتاب العالم الانجليزى تأليف بشارة كنعان ص ٥٦ .

(٢) ديورانت ج ٣ مجلد ٣ ص ٥٢

(٣) Haverfield : Roman Britain. camb med. Hist. Vol. 1, p. 368.

كلوديوس إلى العودة لمشروع فتح بريطانيا سنة ٤٣ م . حين أعد جيشاً من أربعين ألف وقيل خمسين ألف مقاتل . كان نظامهم وتسليحهم ومهارتهم فوق طاقة السكان الأصليين . قادهم أولوس بلاتيوس وحضر الامبراطور بنفسه للاشراف على عمليات الفتح . فعبر نهر التايمز واحتل كولشستر بعد معارك عنيفة دارت بينه وبين الملك سمبلين . ذهب الأخير ضحيتها . وخلد البريطانيون ذكراه فى تاريخهم إلى اليوم وانتشرت القوات الرومانية من مدينة لندن إلى سائر الجهات السهلية من الجزيرة فى أكثر من اتجاه . وعاد الإمبراطور كلوديوس إلى روما قبل إخضاع الثورات والحركات الوطنية التى نظمها كراكتاكوس بن سمبلين بعد أن هرب من عاصمة أبيه قبل سقوطها فى يد الرومان . ظل الأمير البريطانى يقاوم بعنف قوات الاحتلال الرومانية إلى أن وقع أسيراً فى يد قائدها . فأرسله مكبلا بالحديد مع عائلته إلى روما وهناك استعرض فى شوارعها مع أسرى الحرب وعفا عنه الإمبراطور أخيراً لشجاعته وأبقاه منفياً فى روما .

وهكذا سيطر الرومان فى بضع سنين على جميع الأجزاء السهلية الخصبة من الجزيرة البريطانية ، وبعد مضى خمس وثلاثين عاماً بها احتلوا بلاد الغال ( ويلز ) احتلالا عسكرياً تاماً . وظل الرومان يعانون مرارة الثورات القومية فى الجزيرة . من أخطرها ثورة سنة ٦١ م . التى قادتها ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea بدعوى أن ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتيها ، ونهبوا ممتلكاتها وباعوا كثيراً من رجالها الأحرار فى سوق الرقيق . وبينما كان الحاكم الرومانى پولينس مشغولا فى الاستيلاء على جزيرة مان man فى البحر الإيرلندى ، هزم جيش بودكا الفيلق الوحيد الذى وقف فى وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium وكانت فى ذلك الوقت على قول تاكيتوس ( أهم مسكن للتجار ، كما كانت سوقاً كبرى للتجارة ) وقتل كل رومانى فى هذه المدينة أو فى فريولامنيوم Verulaminium ( سانت أولبنز St. albans ) . وذبح سبعون ألف رومانى هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقى پولينس وفيالقه بالثوار ، وحاربت بودكا وابنتاها فى عربة حربية بشجاعة نادرة فى أثناء

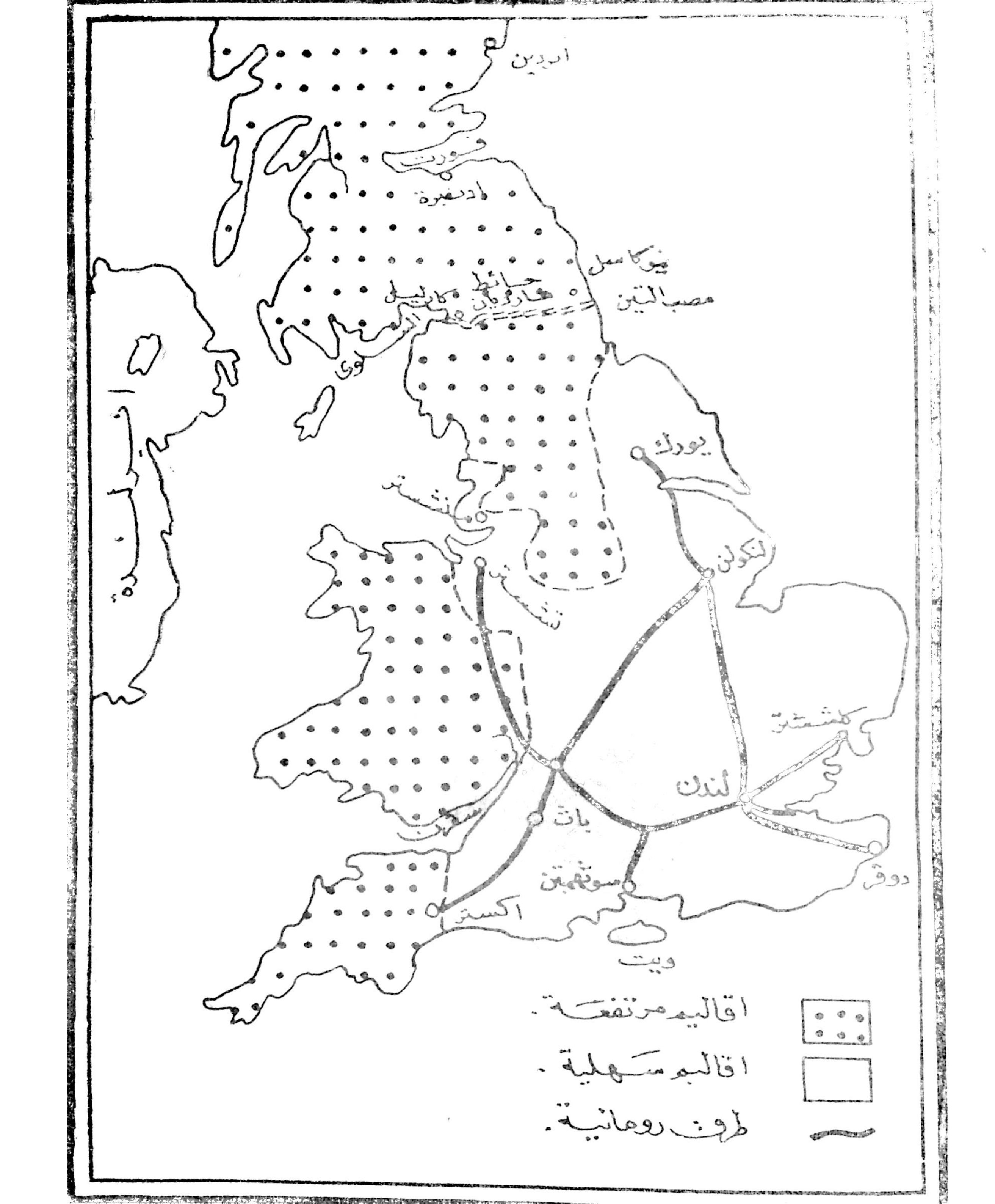
هزيمتها ، ثم تجرعت السم وضربت بحد السيف رءوس ثمانين ألفاً من أتباعها البريطانيين(١) . وظلت الثورات مشتعلة فى بريطانيا ضد الرومان حتى سنة ٧٧ م حين أرسل الامبراطور فاسبسيان يوليوس أجريكولا والياً على بريطانيا ، وهو من أقدر الولاة الرومان ، وحمو المؤرخ الرومانى المعاصر تاكيتوس، وقيل إن تاكيتوس هو حمو أجريكولا(٢) .

وفى عهد ولاية أجريكولا العظيم ( ٧٨ — ٧٤ م . ) تم لأول مرة إخضاع الأقاليم الشمالية من ويلز وجزيرة أنجلس وما جاورها . ثم زحف إلى شمال انجلترا فوصل إلى مدينة يورك التى أسست حوالى ذلك التاريخ ( ٧٥ م ) وبنى حولها القلاع وشق طريقاً بين سلاسل البنينيس ، زحف منه شمالا سنة ٨٠ م لفتح اسكتلندا ، فأخضع الأراضى الجبلية المنخفضة منها حتى الخط الواصل بين نهر كليد Clyde ومضيق فورث . ومن هناك قاد حملة برية بحرية إلى بلاد الاسكتلنديين ( الكاليدونيين ) أبادتها قوة الأخيرين سنة ٨٣ م ، فتقهقر جنوباً وأقام سداً من القلاع الحصينة بين كليد وفورث سنة ٨٤ م . وما كاد يعيد تنظيم قواته لإخضاع اسكتلندا حتى استدعى إلى روما سنة ٨٥ دون تحقيق هذا المشروع ومشروع فتح إيرلندا ، وإن كان له فضل السبق بين الأباطرة الرومان فى أرومة البريطانيين (to romanise) ويروى عنه تاكيتوس كيف نشر الحضارة الرومانية بين « شعب فظ مشتت ذى نزعة حربية » بإنشاء المدارس وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية

---

(١) ديورانت ، ج ٣ مجلد ٣ ص ٦٥

(٢) كتب تاكيتوس تاريخاً لحياة حميه أجريكولا ، وتاريخاً لنفسه يتضمن الفترة بين عامى ٦٨ و ٩٦ م ، كما كتب الحوليات التى تبدأ بوفاة أوغسطس سنة ١٤ م ، وتنتهى بوفاة نيرون سنة ٦٨ م ، وله مؤلف يصف فيه الشعوب الجرمانية وعاداتها . غير معروف مكان وتاريخ ميلاده وأيضاً تاريخ وفاته ، والظاهر أنه عمر بعد الامبراطور تراجان المتوفى سنة ١١٨ م . راجع فيشر ، تاريخ أوربا فى العصور القديمة ص ١٧٨ وديورانت قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٣ ص ١٥ .


ايرلندة
ابردين
فورث
ادنبرة
نيوكاسل
مصب التين
حائط هادريان
كارليل
سلوي
يورك
لنكولن
لندن
باث
سوثمبتن
اكستر
دوفر
كلشستر
ويت
اقاليم مرتفعة .
اقاليم سهلية .
طرق رومانية .

وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد المعابد ، والملاعب والساحات والحمامات العامة(١) .

وتعرض سلطان روما بعد أجريكولا لخطر شديد فى الثلاثين سنة التى أعقبته (٨٥— ١٢٠ ) ولذا انحصرت سياسة الأباطرة بعد أجريكولا فى تثبيت الحدود وتأمينها بين بريطانيا الرومانية وبلاد اسكتلندا التى عجز الرومان عن اخضاعها لأمبراطوريتهم . وكان الأمبراطور هادريان هو واضع أسس هذه السياسة الدفاعية بعد أن زار انجلترا سنة ١٢١ م عقب الثورة القومية الخطيرة التى تعرض لها سلطان روما فى شمال انجلترا ، والتى ذهب بسببها الفيلق التاسع الرومانى . اختط هادريان ( ١٢٢ — ١٢٤ ) فوق مرتفعات نورثمبريا سوراً لاتزال بقاياه تحمل إسمه إلى اليوم ، يمتد من البحر إلى البحر فى عرض الجزيرة عبر الجهات الشمالية من مضيق السلوى Solway عند مدينة كارليل الحالية غربا ، إلى مصب نهر التين Tyne عند مدينة نيوكاسل الحالية شرقاً ، ليكون حداً نهائياً بين بريطانيا الرومانية و اسكتلندا ، يبلغ طوله سبعين ميلا وقيل ثلاثة وسبعين ، ويمر بسبع عشرة قلعة حربية ، تسكنها الحاميات الرومانية ، وعلى مسافة كل ميل قلعة صغيرة للاستراحة والمراقبة . غير أن السور الهادريانى لم يمنع القبائل المتاخمة له من إحداث القلاقل وتهديد الحدود وإزعاج الحاميات الرومانية .

ولذلك عمد سلفه الأمبراطور انطونيوس بيوس Pius سنة ١٤٠ م إلى تعديل حدود بريطانيا الرومانية فى الشمال ، فزحف داخل بلاد الاسكتلنديين لأسباب مجهولة حتى اليوم ، وصل إلى الخط الذى رسمه أجريكولا قبلا ، ويصل مابين مضيق فورث شرقاً ونهر كليد غرباً ، وهناك بنى أنطونيوس حائطاً من الحجر والطين ، بسلسلة من القلاع يتراوح عددها ما بين ١٢ ، ١٨ ، ٢٠ ومخافر على طول الطريق الطبيعى . كان هدفه من هذا السور البالغ ثلاثة وثلاثين ميلا هو الدفاع عن الأقاليم الواقعة شمال سور هادريان ، وصار سوره أقصى ماوصلت إليه روما من التوسع شمالا (٢) . على أنه سرعان ماباءت محاولات بيوس الدفاعية هذه بالفشل ، إذ لم ينقض عشرون عاما بعد قيام هذا السور حتى قامت القبائل الاسكتلندية بثورة واخترقت

---

(١) ديورانت جـ ٣ مجلد ٣ ص ٥٥ .
(٢) Haverfield, p. 369.

ذلك الحائط ، وتجاوزته جنوباً حتى حررت كل شمال بريطانيا من دربى شير إلى تشفيوت Cheviot ( ١٥٨ — ١٦٠ ) وقامت ثورة ثانية سنة ١٨٣ تحت حائط بيوس نهائيا ووصلت إلى سور هادريان ، وتسلقت بعض نقط فيه ، الأمر الذى أوغر صدر الأمبراطور سفيروس Severus الأفريقى الأصل والذى ارتفع إلى العرش سنة ١٩٠ م ، ووطد العزم على إبادة الجنس الكاليدونى بنفسه ، فحضر إلى بريطانيا ( ٢٠٥ — ٢١١ ) وأصلح سور هادريان وجدد بنيانه مدة ثلاث سنوات ( ٢٠٥ — ٢٠٨ ) وأضاف إليه عدة حصون جانبية . ثم توغل شمالا فى اسكتلندا العليا حتى مدينة أبر دين ، غير أن المرض أجبره على العودة إلى مدينة يورك فى الشمال الشرقى بانجلترا الحالية حيث توفى بها سنة ٢١٢ م . وتعتبر حملات سفيروس فى الشمال آخر محاولة قامت بها الإدارة الرومانية لإخماد الفتن والثورات التى كتبت تاريخ بريطانيا الرومانية المبكر (١) . وأصبح سفيروس جديراً بأن يعرفه الانجليز بعد أن أصلح الحائط الهادريانى ، وهيأ لبريطانيا التمتع بقرن من السلام ، وقنعت روما بهذا القدر من التوسع فى الجزيرة البريطانية وانصرفت إلى تركيز حكمها وسلطانها ، فيما يعرف بانجلترا ويلز (٢) .

## المؤثرات الرومانية فى الجزر البريطانية

الواقع أن احتلال الرومان للجزيرة البريطانية جعلها جزءاً من العالم المتحضر بعد أن كانت فى عزلة تامة عنه ، وظلت بريطانيا ما يقرب من أربعة قرون تابعة للأمبراطورية الرومانية ، ويعتبر المؤرخون مائة السنة الواقعة بين ٢٥٠ و ٣٥٠ م العصر الذهبى فى بريطانيا الرومانية . فإلى جانب السور الهادريانى الذى يعتبر من أروع ماخلف الرومان من الآثار فى أى بلد من بلاد العالم التى حكموها ، اعتنى الرومان بمد الطرق المعبدة ، وبناء القلاع على طول تلك الطرق ، مع شحن القلاع بالحاميات من الجند الرومان ، الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً من الجيش النظامى ، وأخذت تلك الكتائب على عاتقها حماية السكان من غارات الاسكتلنديين والإيرلنديين . وكان هناك ثلاثة مراكز دفاعية هامة هى : يورك وتشستر وكارليون

(١) Haverfield, p. 369.

(٢) Carter, pp. 13-15. — راوس ص ١١ — فيشر تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ترجمة زيادة جـ ٢ ص ١٣٢ .

التى عجزت روما عن إخضاع القبائل الـكاسرة خلفها فى الشمال والغرب وعن اتصال مدنيتها إليها .

ويلاحظ أن القوات العسكرية الرومانية لم تحتل إلا مـكاناً خلفياً على مسرح الحوادث فى الولايات الرومانية ، وتستخدم تلك القوات فى شق الطرق وتشييد المنتديات الرياضية ، وإقامة عيون الماء ، ولا تقحم نفسها على الناس إلا فى الثورات ، فمعسكراتها الـكبيرة التى كانت تقام على الحدود بعيدة عن الأعين . وامتازت الطرق التى عبدتها تلك الفرق بالسعة والاستقامة والدوران حول الولاية كلها عبر الغابات والسهول والهضاب ، لتخدم الأغراض العسكرية فى سرعة وسهولة . وسرعان ما تحولت الطرق من تلك الصبغة العسكرية إلى الأغراض السلمية ، ولاسيما فى الجنوب حيث صارت وسيلة من وسائل التجارة والمواصلات . أما فى الشمال والغرب فظلت محتفظة بوظيفتها العسكرية ، وارتبطت بالحصون ليسهل بواسطتها إخماد الثورات المقلقة لروما (١) . وبلغت الطرق الرومانية فى الجزيرة خمسة آلاف ميل ، فضلا عن عدد لا يحصى من الطرق المائية ، تنقل عليها التجارة الداخلية النشيطة .

ولـما كانت مدينة لندن ملتقى تلك الطرق جميعاً ، فإنها باتت قاعدة لتموين الجيوش ، ومن ثم صارت المركز الأعظم للتجارة بالجزيرة كلها فى العهد الرومانى ، ولا تزال كذلك حتى الآن . ولم تزد لندن عند بداية الفتح الرومانى عن كونها قرية صغيرة مؤلفة من أكواخ صغيرة حول برجها المشهور باسمها tower of London ، ثم صارت بعد الفتح تشغل مساحة ثلثمائة فدان محاطة بالأسوار . وعلا شأنها من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التامز ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد عدد سكانها حتى بلغوا ستين ألفاً ، وسرعان ما أصبحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم .

ولا يزال أحد شوارع المدينة يحمل اسم سور لندن London Wall . كما لا تزال بقايا الطرق التى مدها الرومان هنا وهناك جزءاً فى معالم الجزيرة فى الوقت

---

(١) Carter, pp. 16 and 19. ديورانت ج ٣ مجلد ٣ ص ٨٥ .

الحاضر . وكان اتصال الجزيرة بالقارة عن طريق الموانى الكنتية بين رتش برى وبولونيا فى فرنسا ، وبين كولشستر ومصب الرين ، فضلا عن الطريق البحرى الطويل عبر المحيط فالبحر المتوسط . غير أن نقل الفرق العسكرية كان عن طريق أترخت على مصب الرين إلى مصب التين فى نور ثمبرلاند ، ويبحر التجار مباشرة من موانى غاليا إلى إيرلندا أو الموانى البريطانية الغربية . اتخذ الأسطول الرومانى قاعدته فى بولونيا ، ومهمته المحافظة على الأمن والملاحة على شاطىء القناة الإنجليزى(١) .

ومن الناحية الإدارية قسم الأمبراطور سفيروس بريطانيا الرومانية إلى قسمين إداريين ، وراعى أن يكون ذلك متمشياً مع التقسيم الجغرافى للبلاد ، فجعل بريطانيا العليا ذات صبغة عسكرية وقاعدتها مدينة يورك ، وجعل بريطانيا السفلى ذات صبغة مدنية وقاعدتها لندن ، حيث أقامت هيئة الحكومة .

ولم يقتصر نشاط روما فى بريطانيا على أعمال الضبط والربط ، وإنما امتد إلى النواحى العمرانية التى يعم نفعها الحاكم والمحكوم . فاهتموا بالريف وشيدوا الضواحى الريفية Villas بالجهات الزراعية المستحدثة فى الغابات والمرتفعات الخضراء مثل ، تشدورث Chedworth المنشأة سنة ١٨٨م بمقاطعة جومستر بين تلال كونسولدز ، وتقع تلك الفيلا اليوم على بعد خمسين ميلا تقريباً من مدينة اكسفورد . ويشهد الزائر لها اليوم بقايا من حمام وتوصيلات المياه وحجرة التدفئة وصالة الأكل وحجرة غزل الصوف والسور الذى يحوطها . ويجاور الفيلا المزرعة التى يعمل بها العبيد ، بحيث تكتفى الفيلا نفسها بنفسها من الخضراوات والحبوب والطيور والحيوانات وبعض الصناعات الخفيفة . وتدين انجلترا إلى اليوم للرومان بكثير من أنواع الفاكهة والطيور التى أدخلوها معهم مثل الكمثرى والفراولة .

واهتم الرومان بتخطيط المدن وإنشاء الحمامات وتوصيل المياه للمنازل واستخدام الحجر فى البناء ، ومنحوا بعض المدن البريطانية الكبرى حكما ذاتياً ،

---

(١) راجع تفصيل المواصلات البرية والبحرية فى Haverfield, pp. 376-377.

بلغت بفضله مرتبة المستعمرات المستقلة ، فأصبحت تشرف عليها مجالس الشيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . وكانت أربع من هذه المدن يتمتع أهلها بحق الوطنية الرومانية وهى : كمولودونم Camulodunum (كولشستر Colchester ) أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية . ولندم Lindum ( لنكولن Lincoln الحالية ) وإبراكم Eboracum ( يورك وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً ) ، وجليفم Glevum (جلوسستر) وبدأت تشستر ودنشستر ورشستر وشيشستر وليستر ومنشستر بلداناً صغيرة فى القرنين الأول والثانى من حكم الرومان . وكان فى أكواسالس Aquae sallis ( المياه المالحة ) التى تعرف باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذاً طيباً فى الزمن القديم ، كما يدل على ذلك ما بقى من آثار حماماتها الحارة إلى اليوم(١) وقد أسست هذه المدن خلال القرن الأول بواسطة جنود الحاميات الرومانية فيما عدا يورك فيرجع قيامها إلى القرن الرابع فيما يظن(٢) ويلى هذه المدن فى الأهمية الاجتماعية عدد آخر يتراوح بين عشرة وخمس عشرة مدينة ، وهى دون السابقة فى الحجم ومظاهر الحياة الاجتماعية ومدى صبغها بالصبغة الرومانية (٣) ، ولاشك أن عدداً غير قليل من تلك المدن الرومانية البريطانية القديمة اندثر ، وظل معظمها باقياً إلى اليوم ليدل على ناحية أخرى من التراث الرومانى فى بريطانيا الحديثة ، وهو تحديد لكثير من مواضع المدن الحالية(٤) .

وانحصرت أهم صادرات بريطانيا الرومانية فى الصفيح والرصاص وقليل من اللؤلؤ والجلود والعبيد والحبوب ، وزاحمت السلع الرومانية مثل الأوانى الساموسية — نسبة إلى جزيرة ساموس ببحر اليونان — الفن الكلتى ، وطاردته حتى قتلت صناعته ، وما بها من نماذج مرسومة بطابع الخيال الذى يشبه الأحلام . غير إن تدهور الحياة الاقتصادية بالمدن جعل المحور الاقتصادى ينتقل إلى الريف حيث

(١) ديورانت ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) انظر ص ١٦ فيما سبق .

(٣) راجع هذه المدن والفرق بين كل منها فى Haverfield p. 373. ويختلف رأيه مع ما سبق فى ص ١٦ حول تاريخ تأسيس مدينة يورك .

(٤) راوس ص ١٣ .

الماشية والأغنام والعناية بالزراعة وقطع الغابات وتحويلها إلى أراض زراعية غنية ، فنشطت الحياة حول الضواحي الريفية Villas التي شيدها الرومان بالجهات الزراعية المستحدثة من الغابات والمرتفعات الخضراء ، وغدت بريطانيا إحدى الولايات الغنية الكبرى التي تمون روما سنوياً بالغلال والماشية .

ولقد بكرت المسيحية في الوصول إلى بريطانيا وصلتها مباشرة من إيطاليا وانتشرت انتشاراً سريعاً بعد أن اعتنقها الكلتيون ، الذين ظلوا على حالهم من المعيشة القبلية في الأجزاء الغربية من الجزيرة ، وعن طريقهم ذاعت المسيحية في بريطانيا ، وقبل ذلك كانت الوثنية الكلتية هي السائدة بينهم في أشكال خالية من فكرة الإله الغالب الواحد . وصارت المسيحية عاملا من عوامل ربط الجزيرة بالدولة الرومانية ، وأسهم البريطانيون في السياسة الدينية العامة للدولة بدليل اشتراك ثلاثة من الأساقفة البريطانيين — من بينهم أسقف يورك وأسقف لندن — في المجمع الديني الذي عقد بمدينة آرل Arles بجنوب فرنسا الحالية سنة ٣١٤ م ، وهو المجمع الذي قرر إخماد حركة الدوناتيين المنسوبة إلى دوناتوس Donatus الروماني ، القائل بوجوب تقديس الشهداء وإنزال اللعنة على المرتدين عن المسيحية أزمنة الاضطهادات السابقة لعهد قسطنطين .

ومن ذلك التاريخ ، بدأت حركة تنقل الأفراد والجماعات من المسيحيين الكلتيين بين الجزيرة والقارة الأوربية . وشهدت تلك الحركة أول مرحلة من المراحل التبشيرية التي قامت بها المسيحية الكلتية ، ومن رجالها ننيان Ninian الذي تلقى علومه في روما ، ثم عاد إلى وطنه بريطانيا سنة ٤٠٠ م ، ثم رحل عنه لدعوة البكتيين إلى المسيحية وتنظيم التبشير بالبلاد الشمالية فيما وراء سور هادريان ومنهم أيضاً القديس باتريك St. Patrick الذي بشر بالمسيحية في إيرلندا ، واسمه الأصلي سوكات Sucat ، ولد من أبوين مسيحيين في بريطانيا ، ثم اختطفه القراصنة الإيرلنديون وهو صبي ، وأخفوه مدة ست سنوات حتى استطاع الهرب في سفينة تجارية ذاهبة إلى غاليا ( فرنسا ) حيث انتشر نظام الرهبنة المصرية بين الرجال والنساء سواء على الطريقة الباخومية ، فالتحق سوكات بدير مدينة ليرنس Lérins

وزهد وأصبح حجة فى الدين والرهبنة ، وعرف من ذلك التاريخ باسم Patricius ورقى فى سنة ٤٣٢ إلى رتبة الأسقف ، وأرسل فى بعثة تبشيرية إلى إيرلندا حيث نجح فى إذاعة المسيحية بين الإيرلنديين المتوحشين ، وفى إنشاء الأديرة ذات الطابع المصرى الذى نقله عن غاليا . ومن ثم انتشرت الديرية الإيرلندية وذاع صيتها فى مدى قرن من الزمان ، وخرجت منها البعثات التبشيرية إلى شمال انجلترا وغرب أوربا فى الفترة ما بين القرنين السادس والثامن ، حاملة معها التراث الأدبى للغتين الإغريقية واللاتينية ، منسوخاً فى مخطوطات لا تزال معتبرة من القطع الفنية الرائعة(١) . وتوفى باتريك سنة ٤٦١ وصار بأعماله شخصية ذات أهمية أوربية . أما القديس إيلتد فتتلمذ على القديس جرمانوس وتزعم البعوث التبشيرية فى بريطانيا سنة ٤٢٩و٤٤٧ م وهو مؤسس الديرية ببلاد الغال ومعلم المبشرين الذين دلت عليهم آثارهم الباقية بالجنوب الغربى من بريطانيا(٢) .

والنتيجة الطبيعية لانتشار المسيحية فى بريطانيا الرومانية ، هو بدء عملية التعلم بين البريطانيين فى ظل الكنيسة التى أنشأت بعض المدارس فى الأديرة لتؤهل الصغار لفهم الأنجيل ولتجعل منهم قساوسة . ومن ثم اهتمت تلك المدارس بتعليم اللاتينية ، ومن ثم جاءت تسمية المدرسة Grammar School لاهتمام هذا النوع من المدارس بتعليم الأجرومية أو قواعد اللاتينية ، وأقدم هذا النوع من المدارس كان فى مدينتى كانتبرى ويورك ، وبمضى الزمن اتسعت حركة التعليم على أيدى رجال الدين ، فقامت جامعتى أكسفورد وكمبردج فى القرن ١٢ م وخاصة بعد أن انقسمت الكنيسة إلى عدة مذاهب ، وأصبح لكل مذهب منها كنائسه الخاصة التى تنافست فى إقامة المدارس وجذب الصغار بقصد تنشئتهم النشأة الدينية التى تتفق وهذه المذاهب(٣) وفى كنف القوات الرومانية أخذت صبية المدارس فى كل بريطانيا يتعثرون فى قواعد اللغة اللاتينية التى أصبح تعلمها أسرع سبيل إلى النجاح فى الحياة وكان انتشار اللاتينية فى الجزيرة البريطانية أشبه بانتشار الإنجليزية اليوم فى الهند

---

(١) Carl Stephenson : Mediaeval History, pp. 67, 123.

(٢) انظر راوس ص ١٨

(٣) راجع تفاصيل الحركة التعليمية و بريطانيا فى كتاب :
History of Education in Great Britain, by Curtis, pp. 59-110.

أو بين المهاجرين الإغريق والإيطاليين فى الولايات المتحدة حيث استبدلوا الإنجليزية بلغتهم القومية ، أو الفوز بوظيفة عامة أو بمكافأة اجتماعية أو بشهرة أدبية . وفى نفس الوقت كان آباء هؤلاء الصبية يتعلمون من غزاتهم إقامة الحمامات والمسارح ، ويأخذون عنهم مآكلهم وأعيادهم ومنتدياتهم ومحاكمهم ، وتوفر للبريطانيين قدر عظيم من وسائل اللهو والترفيه ، مثل سباق العجلات ، ومبارزات المحترفين ، ومصارعات الحيوانات الضارية ، والاستمتاع بالحمامات العامة فى يسر وسهولة .

وتشير الوثائق إلى معرفة النبلاء البريطانيين الرومانيين للاتينية ، وأنهم يتكلمون بها ويعيشون مثل أهلها ، وأن أغلب عبيدهم عرفوا القراءة والكتابة باللاتينية . وحرروا الرسائل بها إلى شعوب فرنسا وأسبانيا وإيطاليا واليونان ومصر وسائر شعوب الإمبراطورية الشرقية . وأن البريطانى الوضيع الذى يقوم بخدمة الثرى الرومانى العليل ، يسعى من غير شك إلى تزويد نفسه ببعض المفردات اللاتينية التى يمكن بها أن يتفاهم مع سيده وأن تضمن له وظيفة . وأتاح الاحتلال الرومانى استعمال اللغة الكلتية المحلية جنباً إلى جنب مع اللاتينية لغة الإمبراطورية الرومانية الرسمية ، فاستمر اللسان الكلتى لغة التفاهم بين الطبقات الشعبية البريطانية غير أنه لم يملك من الأدب سوى القصائد والقصص التى ترددها الروايات الشفهية بين عامة الشعب البريطانى(١) ومهما كان من شيء ، فإن اللاتينية صارت لغة السياسة والقانون والأدب والأقلية المتعلمة فى البلاد ، ولكن اللسان الكلتى بقى سائداً فى الريف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن فى ويلز وفى جزيرة مان ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة فى بريطانيا ، وعينت الصور الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية وعمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية(٢) .

وهكذا نجح الرومان فى احتلال بريطانيا ما يزيد على أربعة قرون . بفضل

---

(١) Ellis and Fisher : A Hist. of Eng. Life, V. I, p. 51. فيشر ترجمة نصحى ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .

(٢) ديورانت جـ ٣ مجلد ٣ ص ٦٨ .

اعتمادهم على القوة الحربية ، وعنايتهم بمد الطرق المعبدة وتزويدها بالقلاع الحصينة ورداءة تسليح البريطانيين ، وتفككهم وسوء تنظيمهم ، فضلا عن أن الرومان كانوا يعزجون السياسة بالقوة ، ولا يدخلون على العادات المحلية من التغيير إلا ماتدعو إليه الضرورة ، فكانوا لا يهاجمون من العبادات إلا ذلك النوع الذى يهدف إلى أغراض سياسية كعبادة الدرويدار Druidae مع الإبقاء على القوانين والنظم القديمة التي يرونها صالحة للبقاء ، كما حدث فى مصر وصقلية ويضاف إلى ذلك ماساد الشعوب المختلطة — الخاضعة لروما — من شعور جميل من الإخاء لا تشوبه روح التعصب الحديث للعقيدة والجنس والقومية واللغة والدين .

ولقد ساعد على استمرار المؤثرات الرومانية فى بريطانيا بعد الفتح أمران : أولهما اهتمام الحكومة المحلية القائمة على المدنيين الرومانيين بنشر الثقافة الرومانية ، وثانيهما الحركة الأوتوماتيكية للتطور نفسه ، إذ هاجر عدد غفير من الفلاحين والتجار الإيطاليين إلى بريطانيا ، وأسهموا بنصيب وافر فى تثقيف البريطانيين وتلقينهم قواعد حضارتهم ، كما يتضح ذلك فى المدينة البريطانية فيرولانيوم Verulanium الواقعة بجوار سانت ألبانز بمقاطعة كنت ، حيث تأروم أهلها وحصلوا على الحكم الذاتى لأنفسهم(١) .

وكانت النتيجة الحتمية فى نهاية المطاف أن خسر المتحضرون من البريطانيين حيويتهم واستقلالهم تحت حماية روما ، واستحوذت مباهج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوبهم وأصبحوا مجرد إقليمين تابعين ، وانقطعت صلتهم بفنون الحرب وتجارب القتال ، إلى أن دارت عجلة الزمن وحل الانهيار الاقتصادى بالدولة الرومانية ، ودخلت أجهزتها الإدارية والسياسية فى دور الانحلال والاضمحلال ، لأسباب عديدة منها ضعف السلطة المركزية فى روما وقيام الحروب الأهلية بين أبنائها ، واضطهاد رعاياها من المسيحيين أيام الإمبراطور دقلديانوس ( ٢٨٤ — ٣٠٥ م ) بنوع خاص ، وكان نصيب بريطانيا الرومانية منه استشهاد القديس آلبان سنة ٣٠٣ م

---

(١) Haverfield, p. 371

وتحمل قرية سانت ألبانز اسمه إلى اليوم ، وظل الاضطهاد واقعاً بالمسيحيين حتى أوقفه الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣ م .

وأخطر تلك الأسباب جميعها التى أودت بالإمبراطورية الرومانية هو تسرب القبائل المتبربرة داخل حدود الإمبراطورية الرومانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى فى صورة مخيفة لا يمكن مقاومتها ، الأمر الذى أجبر روما على سحب الفرق الرومانية من حامياتها بالجزر البريطانية وغيرها سنة ٤٤٩ م للذود عن روما قلب الإمبراطورية نفسها ، ونهض البريطانيون من أهل ويلز وسط هذه الظروف العصيبة المحيطة بروما نهضة ، جعلتهم يحتلون مكانتهم الأصلية من التاريخ البريطانى غير أن هذه النهضة لم تكن من القوة بحيث تقدر على مواجهة الغزاة من السكسون الذين توالت غاراتهم على الشواطىء الشرقية من الجزيرة البريطانية .

# الفصل الثانى

## بريطانيا الأنجلوسكسونية

## (٤٥٠ م — ١٠٦٦ م)

---

الجرمان — الإغارات الجرمانية على بريطانيا — الدور الأول (٤٥٠ — ٥٥٠م) — الدور الثانى (٥٥٠ — ٨٥٠ م) — نشأة الممالك السكسونية ببريطانيا — الامتزاج بين البريطانيين والسكسون — سيادة مملكة وسكس (٨٢٥ — ١٠٦٦) — نظام الحكم الإنجلوسكسونى — اعتناق الانجليز للمسيحية — بعثة القديس أوجسطين ٥٩٧ م — أسقفية كانتبرى — المبشرون الإيرلنديون — المؤرخ بيده — المبشر بونيفاس — الغزو الدانى لانجلترا سنة ٨٥١ م — أصلى — الدانيين — المللك الفريد (٨٥٠—٨٩٩) والحضارة الانجليزية — مجلس الحكماء (الوتان) — وجة الدانية الثانية (١٠٠٠م) — ذهب الدانيين — الملك كانوت (١٠١٣ - ١٠٣٦) — إدوارد التقى (١٠٤٢ — ١٠٦٦) .

أطلق الرومان إسم جرمانيا على البلاد الواقعة خارج حدود إمبراطوريتهم فى أوربا . وهى بلاد ذات غابات كثيفة ، شديدة البرودة بالنسبة لمناخ البحر المتوسط ، كما أطلقوا على سكانها لقب البرابرة جرياً على عادة اليونان القدماء الذين أطلقوا كلمة برابرة على كل الأجانب ، ولو كانوا فى مثل حضارتهم واستمد المؤرخون معلوماتهم عن جرمانيا وقبائلها من مذكرات يوليوس قيصر ووصفه لهذه القبائل التى عرفها فى أثناء حربه فى بلاد الغال ( فرنسا ) ، كما استمدوها أيضاً من وصف المؤرخ تاكيتوس لهذه القبائل ، إذ ألف كتاباً فى أحوال معيشتهم ومواطنهم وعاداتهم ونظمهم أسماه « بحث فى أصـــول الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها «de origine, Situ, moribus at populis Germaniae »(١) ولم يكن الجرمان شعباً واحداً وإنما كانوا قبائل متفرقة ، وهم من الجنس الهندوأوربى ، أى نفس الجنس الذى ينتمى إليه اليونان والرومان ، ولـكنهم يختلفون عنهم فى الصفات الجسمية والعقلية ، فالجرمان أطول قامة وأنصع بشرة من الرومان ، كما أنهم يحبون الحرب والمغامرة والمقامرة . حل الجرمان فى أوائل عهدهم بالقارة الأوربية فى شبه جزيرة إسكندناوه ، حيث بقى منهم فريق تفرعت عنه الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية . وإلى هذا الفريق ينتمى الانجلز والسكسون الذين أسسوا المملكة بانجلترا بعد ذهاب الرومان عن الجزيرة ، وإليه ينتمى كذلك الفرنجة الذين أسسوا أسسوا المملكة الفرنجة بفرنسا . وهناك تيار جرمانى آخر اتجه صوب الشرق مع ضفاف الدانوب وسواحل البحر الأسود ، وتفرع عنه القوط والوندال والبرجنديون وغيرهم ، وهذان التياران(٢) المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية ، هما اللذان اصطدمت بهما الدولة الرومانية اصطداماً خطيراً ، آذن بوقوعها فى أيدى الجرمان منذ بداية القرن الثالث الميلادى ، لأن تغييرا كبيرا أتى على الدولة فى حلول ذلك القرن ، من جراء نقص عدد المواليد فى إيطاليا ، ومجازر الحروب التى كانت لا تنقطع

(١) فيشر . حـ ١ ص ١٦ .

(٢) راجع تفاصيلهما فى Orton : The shorter camb. med. hist., V. I, pp. 360-364.

وانتشار عادة وأد الأطفال وازدياد الترف وإشباع الشهوات ، وأمراض الطاعون التي بدأت عام ١٦٦ م . جعل مهمة الدفاع صعبة وزلزل عرش الأباطرة في روما ، وليس أدل على ذلك من أنه لم يمت ميتة طبيعية إلا ثلاثة أباطرة فقط ، من بين ثلاثة وعشرين إمبراطوراً سبقوا دقلديانوس ( ٢٨٤ م ) ، ولذلك استدعيت أعداد ضخمة من المحاربين المتبربرين للاستقرار في الأراضي الجرداء الواقعة خلف حدود الإمبراطورية . ومنذ بدء اتباع هذه السياسة لم ينقطع تسرب المتبربرين داخل الحدود وأصبح في الإمكان ملء أعظم المناصب وأخطر مسئولية في الجيش وفي الدولة برجال لا تجرى في عروقهم قطرة واحدة من الدماء الإيطالية . وآية ذلك أن أعظم قائدين في خدمة الإمبراطور ماركوس أوريليوس كانا سوريين ، بل وأكثر من هذا أن أحد أباطرة القرن الثالث كان سورياً ، والآخر عربياً ، وثالث أفريقياً ، ينتمي إلى أسرة كانت لغتها المألوفة هي اللغة البونية . وهذا الامبراطور الأفريقي هو سبتيموس سيفيروس (١) .

وهكذا تغلغل العنصر الجرماني تغلغلا صامتاً جعل شئون الحكم في روما وولاياتها في أيد جرمانية . ولم يقتصر الأمر على فقدان السيادة الرومانية نهائياً من غاليا ، بل تعداه إلى إغارة السكسون على الشواطىء الشرقية من الجزيرة البريطانية وشواطىء بحر المانش ، واضطرت روما إلى إعداد أسطول من السفن بثغور الشاطىء الجنوبي الشرقي من الجزيرة ، حتى عرف ذلك الجزء الممتد من مقاطعة لنكولن شمالا إلى جزيرة ويت Wight جنوباً باسم الشاطىء السكسوني . وبنى قسطنطينوس سنة ٢٩٦ م عدداً من القلاع الساحلية ، ومنح القائد المكلف بالدفاع عنها لقب كنت الشاطىء السكسوني ، غير أن قيام روماني مغامر بعده إسمه قسطنطين — وهو ابن قسطنطينوس أمر بسحب معظم الحاميات الرومانية من بريطانيا ، آملا في الذهاب بها إلى روما بعد أن نودي به إمبراطوراً ، عرض بريطانيا بصفة نهائية لغارات القراصنة من السكسون على شواطئها في الجنوب ، وهجمات البكتيين والاسكتلنديين على طول حدودها الشمالية أوائل القرن الرابع

---

(١) بشر ترجمة نصحي ص ٢٧ جـ ١٣١ و ١٣٢ .

الميلادى . ولم ينته هذا القرن حتى تعددت تلك الإغارات وجاءت من كل حدب وصوب ، ورغم الانتصار الجزئى الذى أحرزه البريطانيون بقيادة الأسقف الغالى جرمانوس سنة ٤٢٩ م على المغيرين من السكسون(١) ، اشتد ضغط المغيرين نتيجة الفراغ الحربى الذى أحدثه انسحاب آخر حامية رومانية من بريطانيا سنة ٤٤٢ م رغم ما أرسلته بريطانيا من توسلات وبعوث إلى روما تطلب إبقاء الحامية لدفع المغيرين . ولم تجد تلك البعوث سميعاً أو مجيباً وكان آخرها بعثة سنة ٤٤٦ م .

وتم الفصل الأول من قصة الإغارة الجرمانية باستيلاء السكسون على الجنوب الشرقى من الجزيرة ومهاجرة الكلتيين أهل الأقاليم الجنوبية الغربية من الجزيرة فراراً من السكسون إلى جهات أرموريكا بأقصى الشمال الغربى من فرنسا الحالية — التى سميت منذئذ بريتانى تحريفاً من إسم بريطانيا القديم(٢) — وفى أثناء ذلك أهوى الإيرلنديون على السواحل الغربية من الجزيرة البريطانية ، كما أغار البكتيون من أهل اسكتلندا على التخوم الشمالية فانهار أمامهم سور هادريان وسيطر السكسون على بحر المانش ، وأضحى البريطانيون بغير معين إلا من أنفسهم يحتلون مكانتهم الأصلية فى التاريخ البريطانى مرة أخرى .

ومن خلال الكفاح الطويل بين البريطانيين والسكسون كانت شخصية الملك أرثر Arther — وهو بطل الكفاح المغلوب فى ذلك الكفاح — هى الشخصية التى ملأت النفوس بالإعجاب ، فضلا عن أن قصة ذلك الملك هى أعظم وأبقى ما خلفه الكلتيون للثقافة والآداب الأوربية ، وهو قائد رومانى بريطانى وآخر الولاة الرومان ، هزم السكسون فى اثنتى عشرة واقعة ، آخرها مونز بادونيس Mons Badonis التى توقف بعدها الغزو السكسونى مدة نصف قرن(٤) .

والحقيقة أن روما لم تتخل عن الولاية البريطانية تخلياً رسمياً ، بمعنى أنها

---

(١) Haverfield, p. 388 ; Carter, p. 22.

(٢) فيشر ترجمة زيادة حـ ١ ص ٣٠ .

(٣) لمعرفة التفاصيل عن البكتيين والاسكتلنديين راجع Orton : The Shorter Camb. Med. Hist., V. I, p. 41.

(٤) راوس ص ١٩ — Carter. p. 28.

لم تتخذ قراراً بالجلاء عن أرض ظلت طوال أربعة من القرون مصدراً للثروة ومدعاة للفخر ، بسبب ما أقامه الرومان فى أرجائها من طرق معبدة ، ومدن عامرة وضواح بهيجة ، فضلا عما وجدوه بها من رقيق وافر ومعادن كثيرة وزراعات جمة ومصحات ذات مياه طيبة ، وأضحال زاخرة بأنواع الأسماك المحارية الشهية ، بل ترك البريطانيون وشأنهم للدفاع عن أنفسهم بما استطاعوا من وسائل المقاومة التى لا سبيل إلى معرفة درجاتها من الشدة أو مدتها من الزمن ، إلا عن طريق الحدس والخيال ، لأنه ليس يوجد من أخبار بريطانيا فى تلك المحنة إلا النزر اليسير .

واستغرق استقرار الشعوب الجرمانية فى بريطانيا دورين : أولهما من ٤٥٠ إلى ٥٥٠ م تقريباً ، حين جاء السكسون ومعهم الإنجليز إلى بريطانيا فى جماعات غير كثيرة لصعوبة النقل عن طريق البحر ، ولذا لم يكن فى مجيئهم ما يشبه هجرة من الهجرات القبلية الكبرى من أرض إلى أخرى . وإنما جاءوا فى جماعات من المحاربين القادرين تحت قيادة زعماء من أهل الحرب والمغامرة ، بل جاء بعضهم بناء على طلب المتنازعين من ملوك البريطانيين ، أو لمؤازرتهم ضد غزوات البكتيين من أهل اسكتلندا . وترافد الإنجليز والسكسون على هذا النحو مدة قرن من الزمان فى حركة أقرب للاستعمار منها للغزو . ولم يجدوا من أهل بريطانيا الرومانية إلا قليلا من المقاومة بالجنوب الشرقى من الجزيرة بعكس ما وجدوه بالجهات الغربية حيث ثبت لهم أهل بلاد الغال ( ويلز ) وأوقفوهم عن التقدم مدة قرن ونصف قرن أخذ الغاليون فى أثنائها بأسباب الحضارة فتزاوجت البيوت السكسونية الكبرى مع الكلتيين واتصلت بدمائهم . كما أخذ المغلوبين يعتادونهم بحكم الجوار ، وصار بعضهم إلى حال من الرق والاستعباد أما البعض الآخر فوجد متسعاً ومجالا للعيش فى سلام .

وكانت مملكة كنت أول ما آل من ممالك الجزيرة إلى أيدى الغزاة الجدد ، واشتملت على فئات من شعوب مختلفة ، وظهرت مدنيتها مزيجاً من عناصر حضارية متنوعة ، وظلت مملكة كنت السكسونية على صلة بجيرانها من البريطانيين الرومانيين فضلا عما قام بينها وبين شعوب القارة من علاقات تجارية وصلات اجتماعية ،


اسكتلندا
نورثمبريا
كومبريا
ايرلندا
أرض الدانيين
مرسية الانجليزية
ايست انجليا
اسكس
كنت
وسكس

وانتشرت مدنية كنت إلى جزيرة وآيت ومقاطعة هامبشير ، حيث نزلت الموجة الثانية من الموجات السكسونية ، أما الموجة الثالثة فأسست مملكة وسكس التى صار لها السيادة على جميع الممالك الإنجليزية بالجزيرة فيما بعد ، واتخذ مؤسسها لنفسه إسما بريطانيا هو سرديك Cerdic وربما كانت أمه من الكلتيين . وإلى الشمال فى وسكس وحول مدينة لندن نزل ال Middle Saxons على حين نزل فى الشمال الشرقى منهم السكسون الشرقيون وأنشأوا مملكة إسكس . وحلت قبائل الإنجليزية فى نورثمبريا وليستر وبدفورد وكامبردج . وفى أقصى الشمال نزل البرسيون وهم فرع من الإنجليز وامتزجوا بالكلتيين امتزاجاً وثيقاً ، نشأت منه مملكة نورثمبريا التى استقامت لها ولحضارتها الإنجليزية الكلتية زعامة الممالك النابتة بشمال الجزيرة . وتشير أقدم الوثائق التاريخية إلى أن الممالك السكسونية التى أسسها الوافدون الجدد بلغت عشراً أول أمرهم ، ثم اختزلت إلى سبع ، أطلق عليها لفظ هبتارشى heptarchy وهى ، نورثمبريا ومرسيا ووسكس وكنت وسسكس وإيست انجليا واسكس . ثم تقلصت إلى أربع ممالك فثلاث هى نورثمبريا ومرسيا ووسكس (١) .

وفى الدور الثانى من أدوار الفتح الأنجلوسكسونى ، وهو الدور الذى بدأ عند نهاية القرن السادس ( ٥٥٠ — ٨٥٠ م ) اخترقت مملكة وسكس زعيمه الممالك السكسونية ، فى عهد ملكها كيولن Ceawlin ( ٥٦٠ — ٥٩٢ ) — خطوط المقاومة التى ثبت البريطانيون عليها عشرات السنين ، وامتدت ما بين نهرى التايمز والسفرن ، وفصلت بين بلاد الغال الغربية وشبة الجزيرة الممتدة فى الجزء الجنوبى الغربى منها .

وهنا اشتد الصراع بالجهات الشمالية من الجزيرة بين الوطنيين الكلتيين وبين الانجليز . غير أن تقدم الإنجليز نحو حوض نهر مرزى فى بداية القرن السادس قتل الوحدة الوطنية بين الكلتيين فى الجنوب والشمال بقطع الصلة الجغرافية بين أجزائها وصارت مصائر الجزيرة منذئذ بيد الذين محوا ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان فى بريطانيا — أى اللسان اللاتينى ، والديانة المسيحية

---

(١) راوس ص ٢٤ Orton : outlines of med. Hist p. 95—Carter p. 30—

والمدن الكبيرة ، والنظم الرومانية . وفرض الإنجليز لغتهم ونظمهم ووثنيتهم على الجزيرة بعد أن صار اسمها إنجلترا . على أن الجزيرة لم تفقد أجناسها القديمة من أيبرية وكلتيه وبريطانية ، فظلت الروح البريطانية حيه ما بقى الدم البريطانى يجرى فى عروق أهله .

أما لماذا قضى الفتح الانجلوسكسونى على ما كان لروما من آثار بتلك الصورة السريعة الخاطفة ؟ فتفسيره — فيما يبدو — أمران : أولهما أن الصبغة التى أعطتها روما لبريطانيا كانت سطحية بالنسبة إلى الصبغة التى فازت بها فرنسا وأسبانيا ، إذ اهتمت روما باحتلال البلاد احتلالا عسكرياً ، لم تحاول فيه حمل الوطنيين على هجر لغتهم واتخاذ العادات الرومانية وتقبل كل ما هو رومانى عن رضى واختيار . حقيقة مدت طرق فى مختلف أنحاء البلاد ، وتطورت مراكز الحاميات الرومانية إلى مدن تضاعف عدد سكانها ، واتخذ الأهالى المظاهر الرومانية ، وتكلموا اللاتينية ، ولكن الريف ظل كما كان بعيداً عن هذه المظاهر (١) . وثانى الأمرين أن أجناس الجوت والسكسون والإنجليز لم تكن تأثرت بشىء من المدنية الرومانية قبل مجيئها بريطانيا أو بعده . بل ظلت تلك الأجناس تحيا حياتها الجرمانية البدائية التى ألفتها فى القارة والتى أشار إليها تاكيتوس فى مذكراته . عرف الجرمانى فى مجتمعه الأوربى الحرية السياسية والإبتكار الفردى وعادة الإكثار من الذرية ، والمحافظة على نظام الزوجة الواحدة . والحياة الزراعية المستقرة ، وهو عنيف ، يهوى المغامرات الحربية ويشرب الخمر ويحب الغناء . ويعبد إلهاً أسمه أودين ، يعيش مع عشيرته فى الأكواخ والقرى . ويعيش رئيس العشيرة وسط زمرة مختارة من رفقائه فى الحروب (٢) .

ومن ثم تتضح الفروق الكبيرة بين البريطانيين والسكسون ، فالبريطانيون خياليون متطرفون . تغريهم الأهواء ، ويغويهم التنافر ، وهم بين غارق فى الزهد

---

(١) حكومة الوزارة للدكتور السيد صبرى طبعة ١٩٥٣ ص ٦٧ .

(٢) فيشر ترجمة زيادة ج ١ ص ١٨ — ٢٠ .

أو غارق فى اللذة ، وتغلب عليهم الأنانية والتناقض ، فضلا عن شىء مع القدرة . أما السكسون فقوم عمليون مثابرون ، وفيهم شىء من بطء الفهم مع القدرة على تعاون بعضهم البعض ، والطاقة على السير فى أى عمل إلى النهاية ، وهم شعب ملؤه الشهامة والرجولة ، وهم فى الجملة أقوى من البريطانيين وهناك فرق محسوس بين النشأة الاستقلالية التى هى نشأة الأنجلوالسكسونيين ، وبين النشأة الاتكالية التى هى نشأة الإيرلنديين ، فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما فى نظام المعيشة وحسن الترتيب فى السكن (١) . ولم يكن أضمن للمستقبل من أن يتم الامتزاج بين هذين الشعبين ، برغم ما حدث بينهما أولا من عداء وصعوبة فى التوفيق .

حملت غزوات الإنجليز السكسون إلى بريطانيا جملة من الرؤساء والزعماء قواد الجماعات والعشائر الحربية ، وهم الذين صاروا بعدئذ ملوكا فى عشائرهم ، كما صارت تلك العشائر أرستقراطية فى أهل البلاد المفتوحة .

وكون الوافدون مجتمعاً طبقياً على قمته طبقة البيت المالك Aethelings ويليها طبقة ال gesiths فطبقة الإيرلات earls ، ومن الطبقات الثلاث تتكون فئة المحاربين ، ومن بينهم يختار أعضاء مجلس الوتان Witans ومهمته انتخاب الملك من بين أفراد الطبقة الأولى ، وإبداء النصح إليه فى مشاكل الدولة الرئيسية .

أما الطبقات العاملة فأهمها طبقة الأحرار الفلاحون ويليها طبقات عديدة من غير الأحرار (٢) . وأصبحت الحياة والغلبة فى المجتمع الجديد للأقوى ، مما ساعد فى النهاية على تأصل تلك الفردية التى تبدوأهم صفات الشعب الانجليزى فى العصر الحاضر ، فضلا عن مرونة بنائه الاجتماعى ، وانعدام نظام الطبقات وحرية الفرد . سكن الانجليز السكسون القرى والكفور دون المدن كما فعل الرومان قبلهم . وأصبحت القرية هى وحدة النظام الاجتماعى ، ثم تطور نظام الجماعات القروية فيما بعد إلى نظام الحكومات الإقطاعية (٣) . وحين نزل الغزاة الجدد بالريف لم يحاولوا

---

(١) سر تقدم الانجليز ص ١٦٠ .

(٢) Painter : A History of the Middle Ages, p. 82.

(٣) راجع قصة البشرية ص ١٢٠ .

أو مجلس الحكماء

التعرف على فن البناء الرومانى ، ولم يستخدموا الحجر فى البناء ، بل اشتغلوا بالزراعة وحرث الأرض وتربية الخنازير والأغنام والماشية بأنواعها .

عاشوا فى جماعات صغيرة مبعثرة هنا وهناك يفصلها بعضها عن البعض أميال قليلة أو غابات كثيفة (١) . يزرعون الأرض زراعة الحصص المبعثرة حسب نظام الحقول الثلاثة ، القائل بتقسيم الأرض الزراعية ثلاثة أقسام أو غيطان ، يزرع منها اثنان فى الزراعة الواحدة . ويترك الثالث كرابا غير مزروع ، وتدور كل منها هذه الدورة (٢) . وهذا يفسر علة استعداد الإنجليز للزراعة ، فتربيتهم فى الأصل ريفية لكثرة ما يوجد فى مساكنهم من الحدائق ، وعودتهم نشأتهم الاستقلالية حب الشغف بمعرفة الأشياء التى تقع تحت نظرهم أكثر من حبهم فى معرفة الناس ، فضلا عن رغبتهم فى تحصيل رزقهم بأنفسهم (٣) .

على أن أرض الفرد من الفلاحين لم تكن قطعة واحدة بل حصصاً مبعثرة بين أمثالها من الحصص المملوكة لغيره من الأفراد ، ومساحة كل حصة منها فدان أو نصف فدان أو قريب من ذلك . والراجح أن منشأ ذلك التوزيع الرغبة قديماً فى المساواة بين جميع الفلاحين بقدر الإمكان ، بحيث ينال كل فرد جزءا من الأرض القوية وجزءا من الأرض الضعيفة . ويشاهد الزائر اليوم بقايا الحقول الثلاثة أو الأرض المكشوفة open field — كما يسميها البعض — فى لاكستون Laxton بانجلترا خالية من السياج (٤) .

والحاصل أن الفاتحين لم يكن لهم ملوك عند غزوهم لبريطانيا ، بل كان لهم زعماء يطلق عليهم earldormen ، وهم شبيهون بالأمراء princes الذين ذكرهم تاكيتوس عند وصفه للقبائل الجرمانية . ثم هيأ فتحهم لبريطانيا السبيل لظهور الملكية بالتدريج فتكونت الممالك الصغيرة التى ذكرناها آنفاً ، وانقلب كل

---

(١) Ellis and Fisher, V. I, p. 65.

(٢) راجع تفاصيل هذا النظام فى كتاب « الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا » تأليف كوبلاند وترجمة زيادة ص ٦ و ٢٨ .

(٣) سر تقدم الانجليز ص ١٦٥ .

(٤) Carter, p. 34.

زعيم من زعمائها ملكا متوجا فى مملكة مستقرة ، وأخذ كل ملك من أولئك يرجع نسبه إلى إله من الآلهة ، ويستعين على شئون الحكم فى مملكته بمجلس من الراشدين إسمه الوتان . ثم اتحدت هذه الممالك فأصبحت المملكة الانجليزية حوالى عام ٨٠٠ م . وقد سبق هذه الوحدة سلسلة من الحروب المهلكة بين هذه الممالك ، فإذا نهضت إحدى تلك الدول حتى أصبحت الغالبة على سائر البلدان ، لا تلبث أن تهوى حتى تمسى مغلوبة .

ومثال ذلك دولة الجوتيين الصغيرة بمقاطعة كنت ، وهى جنة انجلترا منذ القديم ، وأعظم أجزائها تقدماً فى الحضارة ، إذ شهدت تلك المملكة أعز أيامها زمن الملك إثلبرت صديق القديس أوجسطين ، ثم ماعتمت أن صارت فى خبر كان . وكذلك مملكة نورثمبريا التى دبت فيها الحياة بفضل اتصالها بالمسيحية الكلتية ، فانها ظلت صاحبة السيادة على سائر الدول السكسونية حتى سنة ٦٥٨ م . أى خلال القرن السابع كله . ثم ما لبثت أن نزلت عن مكانتها لمملكة مرسيا حتى وفاة الملك أوفا Offa ( ٧٥٧ — ٧٩٦ ) أى خلال القرن الثامن كله . ومن ثم انتقلت السيادة إلى مملكة وسكس ( ٨٢٥ — ١٠٦٦ ) التى أسسها اجبرت الذى صرع المرسيين فى معركة فاصلة سنة ٨٢٥ م بمقاطعة ولتشير ، ومن بعده ظلت وسكس قابضة على زمام الجزيرة حتى مجىء الغزو الدانى من بلاد الدانمرك ، فبدأ صفحة جديدة فى التاريخ الانجليزى [١] .

وكيفما كان أمر تلك الممالك الذاهبة ، فإنها لم تفقد كيانها ووحدتها كلية ، بل ظلت فى الدولة الجديدة الكبرى على هيئة مقاطعات Shires ، تحتوى الواحدة منها على عدد من المئات hundreds ، وهى الوحدات التى قسمت إليها القرية ، ولعلها تشبه الكفور ، وسميت مئات لأن كل مائة عائلة تعيش فى كل واحدة منها ، وتبلغ مساحة المائة الواحدة مائة hides ، وواحدها تقدر مساحته بمائة وعشرين فداناً ، وهو أصل ملكية السيد السكسونى . وتعقد محكمة الـ hide

(١) فيشر ترجمة زيادة ج ١ ص ٤٠ . Carter, p. 52.

مرة فى الشهر من عضوية الفرسان المحليين ، وأربعة من أعيان القرية للفصل فى الخصومات بين الناس ، فضلا عن وجود محكمة جزئية hundred court أعلى درجة منها ، ولا يزال هذا التقسيم الإدارى معمولا به إلى اليوم فى انجلترا (١) .

وفى بعض الأحيان غدا أفراد البيت المالك القديم رؤساء المقاطعات earldormen ، وظل المقاطعة محكمتها أو جمعيتها الشعبية Folk-Moot التى كانت عبارة عن بعض الرجال المحاربين الذى يجتمعون مرتين فى العام مع الزعماء للتشاور فى المسائل الهامة . ولكن بظهور الدولة الجديدة تعدل اسم هذه الجمعية من Folk-Moot إلى Shire-moot نظراً لتحويل الملكية القديمة إلى مقاطعة فى المملكة الجديدة . وطبقاً للتقاليد الجرمانية أصبح للدولة الجديدة جمعية عمومية أطلق عليها اسم Witenagemot أى مجالس الحكماء Witans . وكانت هذه الهيئة غير محدودة ولا ثابتة ، فقد اشتملت أصلا على الأساقفة ثم ضمت بعد ذلك عدداً من رؤساء الأديرة ، وكان فيها كذلك رؤساء المقاطعات earldormen ، الذين يكثر عددهم ويقل وفق من يوجد منهم بالمقاطعة التى قد يحكمها واحد أو أكثر منهم وإلى جانب هؤلاء جميعاً نجد بها أشخاصاً يصفون أنفسهم بأنهم خدام الملك أو رجاله ministri ، وهم فى الأصل جماعة المحاربين الملازمين لشخص الملك ، الذى يزيد من نفوذهم بمنحهم الأراضى العامة ، فكونوا بذلك طبقة من الأعيان نشأت على أساس الخدمة العسكرية ، وأصبحت تشابه فيما بعد حائزى أراضى التاج Tenants-in Chief (٢) .

* * *

وأهم حدث وقع فى تاريخ الإنجليز هو اعتناقهم المسيحية ، ولم تدخل بريطانية عن طريق غاله ، وكان هو الأمر المنطقى ، وإنما وصلتها عن إيطاليا مباشرة فى عهد البابا جريجورى الكبير ( ٥٩٠ — ٦٠٤ ) الذى يقال إنه شاهد فى سوق روما عبيداً من الصبية الانجليز الصغار ذوى الشعر الجميل والعيون الزرقاء يعرضون للبيع فأعجب بهم وسأل عن جنسيتهم ، فقيل له إنهم إنجليز وثنيون ، فأرسل

---

(١) Carter, p. 35.

(٢) راجع حكومة الوزارة للدكتور صبرى ص ٦٨ .

على الفور إلى بريطانيا بعثة مكونة من أربعين راهباً برئاسة القديس أوجسطين أحد كبار الموظفين بدير سانت أندرو بروما ، وهو الدير الذى يسير فى حياته اليومية على الطريقة البندكتية . وأرسل معه شخصية هامة أخرى هى شخصية تيودور الطرسوسى ، غادرت البعثة روما سنة ٥٩٥ م ولما وصلت إلى Aix-in Provence بفرنسا ، أدركت ماينطوى عليه شعب الفرنجة من وحشية وقسوة فتوقفت عن السير فى بلادهم ، وعاد رئيسها فيما يقال إلى روما مستأذناً البابا فى رجوع البعثة فشجع البابا أوجسطين على المضى فى السير إلى بريطانيا ، وأعطاه خطابات بتوصيات إلى رجال مملكة الفرنجة فعاونوه على عبور القنال الانجليزى إلى مملكة كنت سنة ٥٩٧ م حيث رحب ملكها إثلبرت وزجته الأميرة الفرنجية المسيحية برتا بقدوم البعثة .

وآمن الملك اثلبرت بدعوتها ، فاعتنق المسيحية وصار صديقاً حميماً للقديس أوجسطين الذى أنزله فى مدينة كانتبرى عاصمة ملكه . وأعادت البعثة بناء كنيسة القديس مارتن التى ترجع إلى العهد الرومانى ، وبذلك أقامت أول كاتدرائية مسيحية فى انجلترا ، وغدا أوجسطين أول رئيس لأساقفة كانتبرى (٥٩٧ — ٦٠٥) وتبع أهل مملكة كنت وسائر البلاد الجنوبية بالجزيرة ملكهم اثلبرت ، وحذا حذوهم أهل نورثمبريا وإيست إنجليا ومرسيا ووسكس ، وصار جميع الناس على دين ملوكهم باستثناء مدينة لندن التى طردت بعض أعضاء البعثة ؛ ورفضت اعتناق المسيحية مما خيب أمل جريجورى فى جعلها مركزاً للمسيحية بدلا من كانتبرى، ولذا نصح رئيس البعثة أن يحتفظ بالمعابد الوثنية داخل الكنائس بدلا من إزالتها ، وأن يستعين ببعض الخبرات والطقوس الوثنية فى الاحتفال بالأعياد المسيحية تمشياً مع مبدئه القائل ، بأن من يريد الصعود إلى القمة عليه أن يرتقى السلم درجه بعد أخرى بدلا من أن يقفز (١) .

على أن المصدر الحقيقى لإيصال المسيحية إلى نورثمبريا والبلاد الشمالية هو جزيرة أيونا بغربى اسكتلندا ، وهى الجزيرة التى اتخذها القديس كولمبا

(١) Carl, p. 124.

الإيرلندى(١) St. Columba الأصل سنة ٥٦٣ مركزاً للتبشير بالمسيحية السكلتية التى أوغل بها المبشرون الإسكتلنديون فى البلاد ، حتى بلغوا جهات مرسيا بأواسط الجزيرة ، وذلك فى عهد أزولد Oswald مدى نورثمبريا الذى اتخذ الراهب الكلتى عيدان Audan أسقفاً لمملكته ، فأسس له ديراً على جزيرة Lind Isfarne القريبة من عاصمة المملكة ؛ ثم انتشرت المسيحية السكلتية فى تلك الجهات الشمالية حتى وصلت اسكس بالجنوب الشرقى من الجزيرة . وخلف أزولد أخوه أسوى Oswy وتزوج من إبنة ملك مرسيا المسيحية التى اصطحبت معها إلى نورثمبريا قساً رومانياً يعلم رجال البلاط المسيحية على الطريقة الرومانية ، على حين أن الشعب تعلمها على الطريقة السكلتية .

ومن هنا اصطدمت الطريقتان على ما بينهما من اختلافات جوهرية ، نشأت نتيجة التطور الطارىء على الكنيسة الرومانية فى طريقة التبشير وتفسير مدلولات الدعوة المسيحية . أما الكنيسة الإيرلندية فانقطعت صلتها بروما وظلت حافظة للقديم ولتقاليدها الأولى ، فاحتدم الجدل بين أنصار الطريقتين فى البلاط النورثمبرى حول أمور منها : الصوم الكبير ، وقص شعر الرأس وزواج الإبن من زوج

(١) سبقت الإشارة إلى جهود القديس باترك ( ص ٣٢ ) فى نشر المسيحية فى إيرلندا على الطريقة الرومانية لكونه مواطناً رومانياً . ثم تطورت المسيحية — لعزلة إيرلندا — إلى مسيحية قبلية بمعنى أن كل قبيلة أقامت لها ديرها الخاص يرأسه راهب هو الرئيس الأعلى لكهنة القبيلة . ولم تخضع المسيحية الإيرلندية لنظام كنسى عام آتياً من الخارج ، وبذلك اتخذت طابعاً خاصاً بها فى العقيدة والتبشير . وكان القديس كولمبا المتوفى ٥٩٧ م من ألمع المبشرين بها خارج إيرلندا ، والتف حوله كثير من الأتباع والمريدين المعجبين بطريقته ، منهم القديس كولمبان Columban ناشىء الديرية الإيرلندية فى برغنديا وألمانيا أشهرها دير القديس جول Gall ، وانتقل كولمبان من ألمانيا إلى إيطاليا حيث أنشأ آخر أديرته ومات بها سنة ٦١٥ واعتنقت كثير من المجتمعات الدينية طريقة كولمبان ، لأنها تمتاز بالحرية الفردية للراهب وبمظاهر الديرية الإيرلندية وتمشيها مع التطور الثقافى الأوربى .Carl, p. 123 .

الأب ، وقتل النفس والتقويم المسيحى الخ(١) وسرعان ما اشتد الخلاف بين الفريقين وتدخل الملك أسوى لفضه ، فدعى رؤوس الكنيستين إلى مجمع عقده فى مدينة هويتبى Whitby سنة ٦٦٤ م وأشرك معهم كبار رجال الدولة من غير رجال الدين . ودافع عن الطريقة الكلتية وشرحها للمؤتمرين الأسقف كولمان Colman خليفة عيدان ، ودافع عن الطريقة الأوجسطينية وشرحها الأسقف ويلفرد Wilfred رئيس الرهبان بدير ريبون .

واستقر الرأى أخيراً فى مجمع هويتبى وفى حضرة الملك أزوى ، على أن تكون روما صاحبة الأمر فى شئون المسيحية بإنجلترا ورحل كولمان وأتباعه من أنصار المذهب الكلتى عن أرض نورثمبريا(٢) ، وأعقب ذلك تعيين فيتاليان تيودور الطرسوسى اليونانى الأصل ( ٦٦٩ — ٦٩٠ ) أسقفاً بمدينة كانتبرى ، فأكثر من إنشاء المدن الأسقفية ، وعين حدودها وأساقفتها ، وجعل يورك عاصمة إقليمية ( أى مطرانية ) ونقل إلى الكنيسة الإنجليزية نظم الإدارة الرومانية وثقافتها ، واقنع ملوك انجلترا بمنحها الأراضى للانفاق منها على الكاتدرائيات والأديرة وعقد تيودور أول اجتماع عام للكنيسة الإنجليزية ، أصبح بفضله المؤسس للوحدة الإنجليزية ، وأول أسقف دانت لطاعته الكنيسة بإنجلترا كلها . وحين حاول تجزئة أسقفية ويلفريد العريضة فى نورثمبريا عارضه واختلف معه ، فرحل ويلفريد إلى روما شاكياً أمره إلى البابا ، فكان أول أسقف فى تاريخ الكنيسة الإنجليزية يستعين بالبابوية ضد رئيس أساقفة كانتبرى(٣) .

الحق ، أن تيودور قام على تدبير شئون الكنيسة الإنجليزية خير قيام ، فوضع لها نظماً وقواعد جعلته « السياسى الأول فى تاريخ انجلترا »(٤) ، وأورث أخلافه بعده المنصب بسلطاته السياسية والدينية ، وصار لهم مكانة مرموقة خطيرة فى الناحيتين معاً حتى اليوم ، فلا يزال رئيس أساقفة كانتبرى عضواً فى مجلس

---

(١) راجع .Painter, pp. 85-86 Carl, p. 134

(٣) Orton : Outlines, p. 97 ; Ibid., p. 86.

(٢) Painter, p. 87.

(٤) راوس ص ٣٧

اللوردات البريطانى ، يناقش الحكومة فى شئون السياسة ، كما يقف حارساً على شئون الدين فى بلاده . ويسجل التاريخ المصرى الحديث موقف الدكتور فيشر رئيس الأساقفة الحالى وترتيبه فى القائمة الثانى والتسعين ، يسجل موقفه من العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى الغادر على مصر فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، حين ذهب على رأس وفد من أعضاء مجلس اللوردات إلى مستر إيدن رئيس الحكومة وقتذاك يستنكر منه هذا العمل الشائن فى تاريخ بلاده(١) .

وبذا انتصرت الكاثوليكية الرومانية على المسيحية الكلتية القوية الشأن فى ويلز واسكتلندا وإيرلندا . ونجحت البعثة الأوجسطينية فى القضاء على الإنفصالية الدينية فى انجلترا ، وصاحب الفضل فى هذه الوحدة الدينية هو أزوى ملك نورثمبريا ، فبفضله دخلت انجلترا مرة أخرى إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، كما ارتبطت مرة ثانية بالعالم اللاتينى واجتهد الرهبان الأوجسطيون فى تعليم الناس اللاتينية والمسيحية فى آن واحد ، فارتبطتا فى أذهانهم ، وأصبحت اللاتينية والمسيحية فى اعتبارهم شيئاً واحداً(٢) . وتعلمت انجلترا من جديد ما للقوانين المكتوبة من مزايا فى تثبيت أحوال البلاد والناس ، وصارت لها نظم كنسية مرتبة على نسق النظم الامبراطورية الرومانية أدق ترتيب . وآية ذلك أن أول المجالس القومية التى عقدت بانجلترا هى المجالس الكنسية ، وأن أول مجموعة من القوانين العامة جمعت بمملكة كنت بإرشاد القديس أوجسطين ، وأن تقسيم انجلترا من أجل الإدارة الكنسية إلى أسقفيات ثم تقسيم الأسقفيات إلى أبرشيات ، قدمت أجل الخدمات فى الحياة الريفية الإنجليزية ، إنما يرجع الفضل فى ذلك كله إلى الرومان من رجال الدين(٣) .

وعن رجال الدين من الإنجلو سكسون انتشرت فى أوربا فكرة ارتباط المسيحية واللاتينية ، أى أن شمال أوربا أصبح مصدراً من مصادر الفكر . كما كان مركز السياسة أوربا فى ذلك الحين . والفضل فى ذلك يرجع إلى أولئك

(١) جريدة الأهرام أحد أعداد نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

(٢) حسين مؤنس : أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البحر المتوسط . المجلة التاريخية مايو سنة ١٩٥١ — Grant, p. 304.

(٣) فيشر ترجمة زيادة ج ١ ص ٤٠ — Orton, Outline, p. 98.

المبشرين الإنجلوسكون الذين حملوا إلى بلاد الشمال اللغة اللاتينية الأصيلة لا تلك اللاتينية الركيكة المليئة بالأخطاء ، التى استعملها الناس فى غالة وإيطاليا وقتذاك لتيسر شئونهم المعاشية والإدارية ، وحرص أولئك المبشرون على دراسة اللاتينية الصحيحة فى الأديرة دراسة ثابتة عميقة ، قبل صدورهم إلى نواحى الشمال التى كانوا يبشرون فيها بالمسيحية(١) .

ويذكر بالفضل أيضاً فى هذه الحركة التبشيرية ، الرهبان الإيرلنديون الذين عرفت جزيرتهم منذ القرن السادس بجزيرة الأولياء والقديسين ، وكانت مشحونة بالمعابد والأديرة ، ومنها ذهب المرسلون لنشر الدين المسيحى فى الأمم الجرمانية . وكانت إيرلندا غاصة بالرجال الذين اتصفوا بما تسعى إليه من الأخلاق كحب الخير والعقل والتقى ، وما كان اعتقادهم كنار القش لا تكاد توقد حتى تصير رماداً ، بل هو اعتقاد متين ، ولا تزال إيرلندا إلى اليوم مهد الحمية الدينية(٢) . وبينما كان العلم يضمحل بين سكان البلاد الرومانية الأصيلة فى إيطاليا وغالة كانت أقدامه تثبت فى نواحى الشمال ، حيث حمله رهبان من الإيرلنديين أو الإنجلوسكسونيين . وصارت أسماء من اشتهر بالعلم خلال هذا العصر غالبيتهم من أصول إيرلندية أو انجلو سكسونية وأوربية شمالى السين . ومما يستوجب الإلتفات هنا ، أنه رغم انتشار المسيحية بين الشعوب الجرمانية واعتناقهم لها ، فإن تجارة الرقيق ازدادت نشاطاً ، كما ازداد تجارها غنماً . لأن كثرة الحروب والغزوات أعانت على اتساع مدى الرق ، ولم تستنكر بل ولم تعترض الكنيسة على مبدأ الاسترقاق ، بدليل أن جريجورى الكبير اشترى سنة ٥٩٥ م عدداً من الرقيق الإنجليز من مرسيليا ، وبعث بهم إلى روما لينصرهم فيها(٣) .

ومهما كان الأمر ، فلا شك أن اعتناق الانجليز للمسيحية قد فتح لهم عالماً جديداً فى إرساء قواعد حضارتهم ، التى لاح معظم نورها من شمال الجزيرة

---

(١) مؤنس ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) سر تقدم الانجليز السكسون ص ٣٣٨

(٣) مؤنس ص ١٥٤

بمملكة نورثمبريا ، حيث تم التمازج بصورة واضحة بين العنصرين الانجليزى والكلتى ، بفضل النور المنبعث من أديرة Wearmouth و Jarrow الشهيرة التى أسسها بندكت بيسكوب Biscop الإنجليزى المولد وأحد القادمين إلى إنجلترا سنة ٦٦٩ م مع تيودور الطرسوسى .

وأعظم الشخصيات التى ساهمت بنصيب وافر فى تلك الحضارة ذلك العصر المؤرخ بيده Bede ( ٦٧٣ — ٧٣٥ م ) أحد تلاميذ بيسكوب ، الذى أمدته مجموعة كتبه الدينية والعلمية النادرة — التى أحضرها من روما — بذخيرة علمية جعلته فوق مستوى معاصريه ، وصار — بفضلها — يمثل خلاصة النتاج الفكرى لأوربا الغربية فى الفترة ما بين زوال الحضارة الرومانية وقيام النهضة الكارولنجية . قضى بيده حياته كلها فى دير جارو بين القراءة والكتابة وتربية النشىء . إمتاز بحاسة تاريخية دافقة ، وقدرة فائقة على التمييز بين المعرفة وأشباهها وبين الحقيقة والأسطورة(١) ، فهو صاحب كتاب « التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية . The Ecclesiastical History of the English people » ، وهو الكتاب الذى تناول العصر السكسونى وانفرد بمكانة خاصة بين جميع التواريخ التى ألفت فى العصور الوسطى . لأن بيده اعتمد فى أخباره عن الإنجلوسكسون فى انجلترا قبل الغزو الدانى على مصادر قديمة مفقودة ، كما اعتمد على مشاهداته الشخصية وثقاته فى الأحداث المعاصرة له ، فضلا عن أفكاره الجديدة فى ضرورة تقدم الجنس البشرى عن طريق المعرفة والدين ، لهذا يعتبر كتابه مصدراً أساسياً لمعرفة تطور المجتمع المسيحى ونظمه الأولى فى إنجلترا ، كما يعتبر بيده نفسه أول مفكر انجليزى استطاع أن يتحدث إلى العالم الحديث فى موضوعات شتى فى دقة ووضوح(٢) .

ومن معاصرى بيده بونيفاس Boniface وأصله من ديفونشير بأقصى الجنوب الغربى من الجزيرة . وهو أعظم قدراً من معاصره بيده فى تاريخ الثقافة الأوربية ، إذ تطلع شخصيته على القارىء من خلال العصور المظلمة وهى تتألق

---

(١) Painter, p. 87.

(٢) Ibid., p. 88. — راوس ص ٢٨

إنسانية ونوراً وجاذبية وانجليزية أيضاً ، وهو المبشر الذى أدخل ألمانيا إلى حظيرة المسيحية ونظم الكنيسة الألمانية ، كما أصلح الكنيسة ببلاد الفرنجة ، وأشرف على ترميم الأديرة القديمة وأنشأ أخرى جديدة ، منها دير فولدا fulda ، وهو فى الواقع شخصية هامة فى تاريخ العالم . عينه البابا جريجورى الثانى سنة ٧١٩ م مبشراً لألمانيا فقصد أولا إلى فريزيا حيث تتلمذ على مواطنه ولبرود الذى يرجع إليه الفضل فى نشر المسيحية بين الفريزيين ، فتعلم منه أساليب الدعاية والتبشير ، ثم انتقل بونيفاس إلى ألمانيا ليكون مبشراً دينياً بين قوم همج غلاظ القلوب ، أشداء الطباع ، فما زال يعمل بينهم بكثير من الصبر والمعونة التى قدمتها الدولة الميروفنجية إليه حتى حولهم إلى المسيحية ونظم الكنيسة فى بافاريا ، ثم عينه البابا رئيساً لأساقفة ماينز سنة ٧٤٨ م وفى سنة ٧٥١ أنابه البابا زكريا عنه فى تتويج ببين القصير ملكا على الفرنجة فى كاتدرائية سواسون . وكذا ربط بونيفاس بين ألمانيا والمسيحية وتقاليدها الرومانية بأوثق رباط(١) ، ولما اعتزل الخدمة فى الخامسة والسبعين من عمره عاد إلى التبشير بين الفريزيان ، وهناك اغتاله قرصان كافر سنة ٧٥٤ م ، وكما كان أوجستين بداية عصر جديد فى انجلترا ، صار بونيفاس بداية عصر جديد فى ألمانيا(٢) .

* * *

وبينما الحضارة الإنجليزية الأولى تشق طريقها فى الوجود كنتيجة من نتائج التمازج البين بين العنصرين الانجليزى والسلتى ، إذ بالعصر كله قد آذن بالانتهاء فى بداية القرن التاسع الميلادى ، حين بدأت غارات الدانيين على الشواطىء الشرقية والشمالية الغربية من بريطانيا . ولنسأل أولا من هم الدانيون ؟ وما موطنهم الأصلى ؟ وما صفاتهم ؟

الدانيون فرع من الشماليين Northmen الساكنين شبه جزيرة إسكندناوه وحوض بحر البلطيق . والشماليون والجرمان من جنس واحد ، ويمتاز الجرمان عنهم بتأثرهم بالمؤثرات اللاتينية . يدين الشماليون بالوثنية المتعددة الآلهة ، وأهمها ثور إله

---

(١) رواس ص ٢٨ — فيشر ج ١ ص ٨٧ ل ٨٨ و ٨٢ .

(٢) Carl, p. 135.

الرعد ، وأودن إله الحروب والملاحم ، وفراى إله الخصب . لهم أدبهم الشمالى وحضارتهم الوثنية القديمة النابضة بحقائق الحياة وبالبساطة ، اتجه الشماليون جنوباً فاصطدموا بالسكسون والفرنجة فانقسموا إلى قسمين : شرقى وهم السويديون الذين وصلوا إلى نهرى الفلجا والدنيبر وشواطىء بحر قزوين والبحر الأسود ، وأسسوا المحطات التجارية فى كيف ونوفجورد ، حيث وضع زعيمهم روريك الحجر الأساسى لقيام دولة روسية . وتأثر هذا التيار السويدى بالثقافة والنظم البيزنطية وعلموا الروس أن يولوا وجوههم شطر القسطنطينية . أما القسم الغربى وهو من الدانيين والنرويجيين ( الفيكنج ) فكانت وجهتهم غرب أوربا ، إذ سطا الدانيون على فريزيا وانجلترا وفرنسا وهاجم النرويجيون جزائر أوركنى وشتلاندوهبرديز وجزيرة مان وشمال اسكتلندا ونورثمبريا وإيرلندا ، وأقاموا لأنفسهم محطات فيها . ثم أوصلتهم سفنهم المصنوعة من ألواح البلوط النرويجى المتين وأمراس الحديدالشديد إلى جزيرة إيسلندا وجزائر فارد وجرينلند وشواطىء أمريكا الشمالية فيما يعرف اليوم باسم نيوفونلند . ونشرت إغارات الفيكنج الذعر فى المجتمع الأوربى الذى شمله الخلل والفوضى بعد وفاة شارلمان . كما هدمت الحضارةالإيرلندية التى أضاءت الأفق الأوربى منذ قرون . غير أن أعمال الهدم لم تلبث أن توقفت وتطورت من لصوصية إلى فتوحات ، ومن فتوحات إلى استقرار وتعمير . فالفيكنج الذين ضربوا الأديرة الإيرلندية ، هم الذين أسسوا المدن التجارية ، والفيكنج الذين هدموا مدينة أرماخ الإيرلندية ، هم الذين أنشأوا عوضها مدن ووتر فورد ودبلن ووكسفورد وليمرك(١) .

أما الدانيون فحلوا بالجزء الشمالى الغربى من فرنسا وهو نورمنديا الحالية ، واستولوا على الجزء الشرقى من انجلترا وأطلقوا إسمهم زمناً عليه ، وجعلوا انجلترا تابعة لإمبراطوريتهم الدانمركية ، ولما كان الدانيون مثل الإنجليز والسكسون والفرنجة يرجعون إلى أصول جرمانية ، فالدانيون فى انجلترا صاروا إنجليزاً وفى نورمنديا صاروا فرنسيين ، وتقبل جميعهم المسيحية والثقافة اللاتينية . أما كيف

---

(١) راجع فيشر جـ ١ من ص ١١٣ — ١١٨

حدث هذا فى انجلترا ؟ فتفصيله أن إغارات الفيكنجيين بدأت صوب شمال اسكتلندا وإيرلندا وشواطىء أمريكا سنة ٧٨٧ م ، على حين بدأت إغارات الدانيين على السواحل الجنوبية الشرقية لانجلترا سنة ٨٥١ م . ثم تحولت تلك الإغارات الدانية المخربة الناهبة إلى فكرة الفتح والاستيلاء سنة ٨٦٦ م ، حين استطاع هنجوار زعيم القراصنة الدانيين فى تلك السنة أن يكتسح جميع الممالك الإنجليزية بين التيمز والكليد فى حملة واحدة خاطفة ، قضى فيها على مملكة نورثمبريا ، وأكره أهلها على دفع ضريبة الذهب الدانى ، وفى السنة التالية اكتسح هنجوار إيست أنجليا بعد أن ذبح ملكها الصغير إدموند ، ونهب ما فى أديرتها من تحف ونفائس ومجوهرات ثم زحف إلى مرسيا واستولى على نوتنجهام فى انجلترا الوسطى ، وألقى الحصار على دمبارتن فى الجنوب الغربى من اسكتلندا . وعبر هنجوار البحر الإيرلندى إلى الجزيرة الايرلندية ٨٦٨ م تاركا أخاه هالفدان Halfdan ليتم ما بدأه من الفتح والنصر ، وخيل للناس أن الجزيرة كلها والحضارة الانجليزية سوف تصبح غنيمة سائغة للدانيين .

غير أن مملكة وسكس — بفضل سلسلة من ملوكها الأقوياء — تزعمت حركة المقاومة الانجلوسكسونية أمام تيار المهاجرين الجارف ، وانضم إليها أهل الممالك التى هدمها الدانيون وغيرهم من الأعيان والمزارعين والفلاحين . وأول أولئك الملوك أجبرت الذى انتخب ملكا سنة ٨٠٢ م عقب استدعائه من منفاه فى بلاط شارلمان ، وأعقبه ولده إثيلولف Ethelwulf الذى قام بعدة إصلاحات اجتماعية ، أهمها عنايته بالكنيسة الانجليزية ومخصصاتها وتوطيد صلتها بروما . ثم زيارته لتلك المدينة الخالدة وبصحبته ولده الرابع ألفرد وهو فى الرابعة من عمره ، وبارك البابا حجتهما . وفى سنة ٨٧١ م تولى الفريد العظيم ( ٨٦٠ — ٨٩٩ ) عرش وسكس ولم يبلغ من العمر سوى ثلاث وعشرين سنة(١) ورغم صغر سنه وقلة خبرته فقد لمعت شخصيته كبطل قدير ، استطاع أن ينقذ مملكته من الدانيين ، وحال بينهم وبين الاستيلاء على الجزيرة كلها . نجح ألفرد فى أن يلحق الهزيمة بالدانيين سنة

---

(١) Orton : The Shorter Camb. Med. Hist., V. I, p. 381. ; Painter, p. 91.

مرات آخرها واقعة إدنجتون Edington سنة ٨٧٨ التى تعتبر من الواقع المفصلة فى التاريخ الإنجليزى ، وأن يرغم زعيمهم جوثرن Guthrun على قبول شروط صالح ودمور Wedmore سنة ٨٨٦ م ، ومن شروطه تنصر جوثرن وقسمة البلاد بحيث تكون الحدود بينه وبين ألفرد خطاً يقطع الأقاليم الوسطى بالجزيرة على طول الطريق الرومانى المعروف باسم واتلنج ستريت Watling-Street ، فيكون شرقى ذلك الخط تحت سلطان الدانيين Danelaw ، ويشتمل على معظم يوركشير ولينكولن ولنكشير وإيست أنجليا وشرق مرسيا ، وهى الجهات التى صبغت بالصبغة الدانية جنساً ولغة وقانوناً وعادات ، وبعد ذلك بسبع سنين أكره ألفرد الدانيين على معاهدة أقرت امتداد حدود مملكته إلى الشرق داخل أراضيهم ، بما فى ذلك مدينة لندن التى عمر ما تخرب منها على أيديهم . ولفوز ألفرد ملك وسكس أهميتان آخريان ، وهما أن هزيمة الدانيين على يده كانت أول صدمة خطيرة للتيار الوثنى الجارف من الشمال ، وأول بداية للموجة العكسية التى أدت إلى نشر الدين المسيحى بين الشعوب السكندناوية ، مما مهد لقبول تلك الشعوب فى دائرة السياسة الأوربية(١) .

ولم يكد ألفرد ينتهى من حروبه المضنية التى حفظت انجلترا للانجليز حتى أخذ فى تحصين وتنظيم دولة السكسون الغربيين ، فبنى حول وسكس خمسة وعشرين حصناً منيعاً ، وحفر الخنادق وأقام الأسوار حول المدن الكبرى (Boroughs) وأسكنها بالحاميات ، وعنى ألفرد ببناء أسطول ضخم من سفن طويلة ذات ستين مجدافاً للواحدة منها على غرار السفن الدانية ، واختار بحارته من الفريزيان ، وأحرز أسطوله النصر على معظم القراصنة فى القناة وحطم الأسطول الدانى فى نهر لى Lea سنة ٨٩٦ . ورغم عجز ألفرد عن تعقب السفن الفيكنجية السريعة العدو ، فإنه يعتبر وحده مؤسس البحرية الإنجليزية(٢) .

وقسم ألفرد جيش السكسون الوطنى إلى ثلاثة أقسام ، يخدم كل منها لمدة شهر يعود

(١) فيشر ج ١ ص ١٢١ .

(٢) Painter : p. 92 ; Carter : p. 57.

بعده إلى المزارع ، وأعاد تنظيم هذا الجيش الوطنى تحت قيادة فرسان محليين . وأصدر قانوناً شاملا لعادات السكسون والمرسيين والكنتيين ، كما جمع القوانين كلها وكتبها من جديد ، بما فى ذلك قوانين أثلبرت ملك كنت أوفا Offa ملك مرسيا والملوك السالفين لمملكة السكسون الغربيين ، حذف بعضها ونقح البعض الآخر .

الواقع أن حياة الملك الفرد مليئة بالدلالات على عظمة الفرد منذ نشأته ، ومنها زياراته المتكررة لروما ، وانشراحه للأغانى والآداب الإنجليزية ، وعنايته بالتعليم فأسس المدارس ومن بينها جامعة اكسفورد على قول البعض(١) مما يدل على سعة أفقه وقدرته على تشرب الثقافات المختلفة كى تعينه على وضع مقومات شعبه الحضارية، على أن كثيراً من مقومات هذا التقدم الحضارى الذى ذاع بين الغربيين يرجع فضله إلى أواصر المودة التى تربط بين الخليفة هارون الرشيد ( ٧٨٦ — ٨٠٩ م ) . وبين معاصره شارلمان إمبراطور الغرب وملك المسيحيين فى زمن تفوقت فيه ثقافة الإسلام بالشرق تفوقاً بالغاً على ثقافة أوربا الغربية(٢) . وكما نقل شارلمان الكثير عن صديقه المسلم هارون الرشيد نقل الفريد كذلك الكثير عن صديقه المسيحى شارلمان . فأنشأ مدرسة القصر تشبها بشارلمان ، واستدعى إليها العلماء والأدباء من ألمانيا وفرنسا ، كما استدعى أيضاً جون السكسونى والأسقف آسر Asser الغالى (ويلز) ليستعين بهم على تثقيف نفسه وشعبه ، وعاش الأخير فى القصر الملكى وكتب تاريخ حياة ألفرد وصورها تصوير العارف بها وشجع ألفرد العلم عن طريق الترجمة لمعظم الكتب اللاتينية الشائعة فى عصره ، وترجم هو عدة كتب من اللاتينية إلى الإنجليزية منها « التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية » المؤرخ بيده والمعروف باسمه أحياناً Bedes History ، وتاريخ العالم لأورسيوس Orosius's History of the world والعناية الربانية لجريجورى Gregory's pastoral care وسلوى بيوثيوس الفلسفية Boethius consolation of philosohy ، واقتباس من قصائد مناجاة القديس أو جسطين نفسه An adaptation from St. Augustine, S'saliloquies ولم ينس ألفرد أن يسجل تاريخ بلاده بالإنجليزية ،

---

(١) Curtis p. 58

(٢) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ٤٥ .

فألف كتاب تاريخ الأنجلوسكسون The Anglo Saxon chronicle فى عصورها القديمة(١) .

الواقع أن ألفرد شحذ همم العلماء والأدباء فى نشر الثقافة الدينية والأدبية بين رعيته ، وتعليم البارونات والقسس بنوع خاص اللاتينية والتعمق فى البحث ، وصار ألفرد بذلك مؤسس النثر فى الأدب الإنجليزى ، مما جعل صورته تنفذ من خلال القرون الماضية إلى صميم قلوب الإنجليز ، وقد صدق أحد المؤرخين حين قال إن مثل الملك ألفرد كمثل المؤرخ بيده ، إذ يشعر الإنجليز نحو كل منها بأنه لا يماثله أحد من عظماء الرجال بمختلف الأمم ، وإنما يشبه أحسن ما أنجبته انجلترا من العظماء(٢) .

يضاف إلى ذلك كله ، أن وسكس صارت بفضل ما قام به ألفرد قاعدة لما سوف يتمخض عنه المستقبل ، فمنها غزا إبنه إدوارد الأكبر ( ٨٩٩ — ٩٢٢ ) بالاتحاد مع زوج أخته أثلرد ملك مرسيا الدانيين فى مرسيا وإيست أنجليا ونورثمبريا واستولى قبل وفاته سنة ٩٥٤ على أرضهم بانجلترا شرقى واتلنج ستريت . . . وَصدَّ حفيده أثلستان Athelstan ( ٩٢٥ — ٩٣٩ ) هجوماً دانياً مزدوجاً من إيرلندا واسكتلندا فى وقعة تقشعر الأبدان من حوادثها ، وتذوب القلوب من تتبع قصتها ، وهى وقعة برونابرى Brunaburgh سنة ٩٣٧م التى ألهمت ملحمة من أعظم الملاحم الأنجلو سكسونية ، وغدت مادة القصة من أبهى القصص فى أدب الشماليين(٢) .

والحاصل أنه لم تأت سنة ٩٥٤م حتى استطاع إيدرد ملك وسكس أن ينادى بنفسه ملكا على جميع انجلترا من بحر المانش إلى الكليد ، وأن يقبل الدانيون الموجودون بانجلترا حكمه عليهم ، وقد بلغت وسكس قمة المجد زمن ملكها إدجار Edgar (٩٥٩ — ٩٧٥) بفضل اتخاذه دونستان Dunstan رئيس دير جلادستونبرى ورئيس أساقفة كانتبرى فيما بعد أى سنة ٩٦٠م مستشاراً لحكومته ، فأكد التعاون بين الكنيسة والملكية السكسونية ، وهو التعاون الذى خدم البيت

---

(١) راوس ص ٣٠ .

(٢) Orton : The Shorter. V. I, pp. 383-391.

السكسونى فى ألمانيا ، إذ توج بفضله أتو الكبير — المعاصر لإدجار — إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة فى الغرب سنة ٩٦٢ . أصلح دونستان الأديرة وأعاد تنظيمها على أسس أشبه بتلك الحركة الديرية المعاصرة فى القارة ، بعد أن قضى الغزو الدانى على نظام الديرية البندكتية التى أقامها تيودور الطرسوسى ، بحيث لم يبق من النظام فى وسكس ومرسيا سوى مكانب الكتبة حول الكاتدرائيات ، فأعاد دونستان للديريه البندكتيه سيرتها الأولى بترميم وإصلاح الأديرة ، وإعادة مخصصاتها إليها ، وتابع الكتبة العلمانيون حياتهم الاجتماعية من تعليم وعزوبة وتقشف فى مساكنهم الخاصة ، بعيدين عن غوغاء المدينة وملذاتها المادية والجثمانية(١) .

وهكذا حفظت المملكية فى وسكس منصب الصدارة على سائر انجلترا سبعاً وسبعين سنة بعد وفاة ألفرد العظيم ، فمدت نفوذها فى خطوات قوية ، وحكمت بلادها وأرض الدانيين بانجلترا حكماً هيناً لا قوة فيه ولا شدة ، بمعاونة مجلس الحكماء الذى نمت سلطته وكبرت — فيما يبدو مع الزمن ، وتمثلت فيه طبقتا الأمراء ورجال الدين بنوع خاص ، تقول المصادر أنه اجتمع فى لوتن Luton ٩٣١ م واشتمل على ٢ من رؤساء الأساقفة و٣ من أمراء ويلز ، و١٧ أسقف ، و١٥ من رؤساء المقاطعات و٥٩ من رجال الملك ministri و٥ رؤســاء أديرة ، ومجموع هؤلاء جميعاً ١٠٠ شخص ، أما مجلس عام ٩٣٤م. فكان عدده ٩١ شخصاً فقط ، فهو إذن جميعه من العظماء ينقص عددهم ويزيد حسب قوة الملك وضعفه . أما اختصاصاته فهى أنه يختار الملوك ويعزلهم ويشترك مع الملك فى التشريع ، فلا يصدر الملك القوانين إلا بموافقته ، كما يشترك معه فى تعيين رؤساء المقاطعات والأساقفة ، ومنح الأراضى العامة وفرض الضرائب وإعلان حالتى السلم والحرب . ويكون الملك والمجلس محكمة عليا للقضايا الجنائية والمدنية ، ومعنى ذلك أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية(٢) .

واستطاعت مملكة وسكس بمعونة الكنيسة أن تكون بنجوى من الأخطار

---

(١) Ibid., p. 392.

التى هددت كيانها ، لقيام قاصر فى الملك ولما يبلغ العاشرة من عمره وهو إثلرد الثانى ( ٩٨٧ — ١٠١٦ ) ولمجىء الوجه الثانية من غارات الدانيين وهى الموجة التى دعمت لندن ووسكس وجنوب انجلترا فى سنة ١٠٠٠ م فصاعداً . وأطمعها فى البلاد أمران : الأول اتحاد أولاف ملك النرويج مع سوين ملك الدانمرك المنفى خارج بلاده ، والثانى تنازع الجيوش الدانية المعسكرة فى انجلترا شرقى واتلنج ستريت والجيوش النرويجية الضاربة فى نورثمبريا ، وعدم اندماج تلك الجيوش مع أهل البلاد من السكسون . تعرضت وحدة انجلترا لخطر تلك الغارة ، ولم تكن هناك شخصية مثل شخصية الفرد لتقف فى وجه المغيرين ، وعاد إلى أذهان الناس نظام الممالك السبع الذى قسم انجلترا إلى سبع ممالك متنافرة قبل أن يجيئها الدانيون . ولكى يتجنب أثلرد ملك وسكس شر أولئك الأعداء المفسدين تزوج من إما ابنة رتشارد دوق نورمنديا للاستعانة به ضد الدانمركيين ، كما لجأت حكومته الضعيفه إلى شرائهم بالمال ، وفرضت على الناس ضريبة باهظة عرفت باسم مال الدانيين أو ذهب الدانيين Danegeld . وتأثرت بسببها نواحى الحياة الاقتصادية والإدارية بأنحاء الجزيرة ، واعتبرت تلك الضريبة فى علم الاقتصاد أصلا من أصول التطور الإقطاعى والعبودية الزراعية فى انجلترا(١) وبلغ مجموع ما حصل منها على عهده فى ست مراحل ٨٠٥٠٠٠٠ جنيها إنجليزياً ، وظلت ضريبة مال الدانيين الركيزة المالية الكبرى فى انجلترا على عهد كانوت ، ووليم الفاتح وأعقابه من الملوك النورمانيين مدة غير قليلة ، وغدا الناس بسببها فى انجلترا وغيرها من البلاد الأوربية — حيث فرضت لأسباب مشابهة — فى حال من العبودية الزراعية كأنهم والقيون عبيد الأرض سواء .

غير أن تلك الوسيلة لم تجد شيئاً ، ولم تعصم البلاد من الإغارات الجديدة ، وطلب المغيرون المزيد أو التخريب ، وعاثوا فى الأرض فساداً يقتلون ويتلفون كل ما يعترض سبيلهم ، وزاد الأمر سوءاً اشتراك الدانيين المرتزقة الذين استخدمهم إثلرد فى جيشه لكى يقمع بهم إخوانهم فى الجنس — اشتراكهم فى عملية التخريب

---

(١) فيشر ترجمة زيادة جـ ١ ص ١٣٢ .

فلما خاب أمله فيهم وظهر عدم ولائهم ، قتلهم جميعاً فى يوم سان باريس ( ١٣ نوفمبر سنة ١٠٠٢ )(١) ووقعت مذابح شنيعة بينهم وبين الإنجليز ذبح فيها الفج Alphege رئيس أساقفة كانتبرى على أيدى الدانيين ، كما ذبح مائة من الدانيين من بينهم شقيقه سوين ملك الدانيين على أيدى الإنجليز(٢) ، ولذا عقد سوين العزم على الأخذ بثأرهم فاشتط فى وحشيته وقسوته بالإنجليز ، حتى اضطر الملك إثلرد إلى الفرار لنورمنديا وبصحبته زوجته النورمانية إما وأولادها ، وأعلن سوين نفسه ملكا على انجلترا سنة ١٠١٣ م ومات فى العام التالى تاركا البلاد لولده كانوت(٣) .

نودى بكانوت ملكا ( ١٠١٣ — ١٠٣٦ ) على مملكة إسكندناوية ، شملت انجلترا والدانمرك والنرويج وجزائر هبريديز بأطراف اسكتلندا ، وصارت انجلترا بذلك جزءاً من إمبراطوريته السكندناوية الواسعة مدة عشرين عاماً . بل وجعل كانوت منها مركزاً لإمبراطوريته ولم يأل جهداً فى التوفيق بين الدانيين والإنجليز على أساس المساواة والخضوع للمسيحية ، وتحول كانوت نفسه من عالم الشماليين النورديين إلى العالم الرومانى اللاتينى حين اعتنق المسيحية ، وشد الرحال إلى روما حاجاً وزائراً للبابا ، للحصول على تأييده ومؤازرته ضد المدعين لعرش انجلترا من البيت السكسونى ، فضلا عن زواجه من الملكة إما أرمل سلفه أثلرد على عرش انجلترا ، والطامعة فى استرداد مقامها السابق كملكة لانجلترا .

وكانت تلك الزيجة إحدى القواعد التى قامت عليها سياسة كانوت الخارجية ، لأن إما نورمانية الأصل والزواج منها يحول دون غزو خارجى لبريطانيا من مقاطعة نورماندى ، حيث تركت إما ولدها إدوارد مع أخواله . والقاعدة الثانية فى سياسة كانوت الخارجية هى ، عقده معاهدة مع ملك إسكتلندا تنازل له فيها عن إقليم لوتيان أى كل نورثمبريا بين التوريد والفورث . وأهمية تلك المعاهدة أنها أقرت حدود

---

(١) تاريخ الجيوش . تأليف جورج كاستلان ترجمة كمال دسوقى طبعة ١٩٥٦ ص ٥١

(٢) قيل إن أنصار أثلرد كانوا يطمرون نساء الدانمركيين عاريات فى حفر إلى أوساطهن ويطلقون عليهن الكلاب فتمزق أجسادهن وتميتهن وكانت بينهن أخت سوين ملك الدانمرك مما كان سبباً فى حملته الانتقامية على الانجليز .

(٣) Orton ; The Shorter, V. I, p. 395. Carter p. 62. grant p. 309-310.

اسكتلندا الجنوبية ، والمعمول بها من ذلك التاريخ حتى اليوم ، كما أنها جعلت البلاط الإسكتلندى ضمن الأقاليم الناطقة بالإنجليزية(١) . كما أنه حكم انجلترا حكم الملك الوطنى لا الأجنبى ، وأقر مجلس الوتان حكمه بعد أن مات إدموند إثلرد ، وضمت الأجزاء الباقية من مملكة أبيه إلى كانوت .

وعقد كانوت النية على نقل المسيحية من انجلترا إلى سائر ممتلكاته بالبلاد الشمالية ، وساعده على ذلك أن أهل البلاد الدانية فى انجلترا — وهم الذين تحولوا إلى المسيحية نظرياً منذ معاهدة ودمور سنة ٨٨٧ م — أخذوا يدخلون فى دين الكنيسة الإنجليزية أفواجاً تلو أفواج ، حتى أصبح الواردون على انجلترا من الدانمرك والنرويج والسويد للتجارة ، يجدون بموانيها مسيحيين تربطهم بهم رابطة اللغة والدم ، فاعتنق أولئك التجار المسيحية ، وبات القساوسة الإنجليز موضع الطلب فى النرويج والدانمرك ، ووافق عهد كانوت حركة للتوسع فى الدعاية للمسيحية بهاتين المملكتين . ولا شك أن سياسة كانوت الدينية وتملكه لانجلترا ، وحرصه على أن يكون إبناً تقياً باراً بالكنيسة المسيحية ، وحرصه على أن يبدو سكسونياً أكثر من السكسون ، جعله أقوى الملوك السكندناويين وأغناهم على الإطلاق . فعمر مدينة سنت إدمندز بيورى تكريماً للملك الانجليزى الشهيد الذى قتله الدانيون فى أثناء إغارتهم الأولى . وبعث إلى الدانمرك فئة من رجال الدين الانجليز لتنظيم الكنيسة بها والحق أن سياسة كانوت آذنت بنهاية الخطر السكندناوى على المسيحية اللاتينية ، على الرغم من بقاء عبادة الآلهة ثور وأودن وفراى وغيرها فى بعض الأركان(٢) .

ومما يستوجب الالتفات هنا ، أن كانوت لم يحاول تغيير نظم الحكم السكسونية السائدة فى انجلترا ، كما لم يحاول إدخالها فى مملكته الدانمركية . فاحتفظ بالقوانين واللغة الانجليزية ، واستعان بمجلس الوتان فى إدارة شئون البلاد ، وأبقى بها قطعة صغيرة من جيشه الملكى الثابت المعروف باسم house carls لمراقبة الأشراف المحلى فى تطبيق القانون الانجليزى وتنفيذ أوامر الملك ، وجعل إدارة المقاطعات الكبيرة

---

(١) Carl Stephenson : mediaeval History, 3rd. ed., op. 194.

(٢) فيشر ترجمة زيادة ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥

فى نورثمبريا وإيست أنجليا ومرسيا ووسكس فى يد ثقاته من النواب الذين أطلق عليهم لفظ « إيرلات » الدانى . ونظم ضريبة الذهب الدانى وفرضها على أولئك الايرلات ، لينفق منها على إنشاء جيشه وأسطوله . وقسم المقاطعات إلى أقسام Shires يدير كل منها شريف Sheriff خاضع للأرل . ومن ثنايا هذا النظام نما وتطور النظام الإقطاعى فى انجلترا بعد الفتح النورمانى[1] . وغدا هذا التقسيم الإدارى وتلك السلطة الممنوحة للارلات خطراً كبيراً على وحدة الأمة الانجليزية وأدى فى النهاية إلى تقسيم القوى بها وتنازعها السلطات عدة قرون .

وكيفما كان الأمر ، فلقد أضاف الدانيون إلى المزيج البريطانى السكسونى عنصراً جديداً من أهم العناصر الداخلة فى تخطيط الشعب الانجليزى — وخصوصاً فى الأقاليم التى تركزوا فيها وهى يوركشير ولينكولن وإست أنجليا وإقليم البحيرات — إذ كانوا أكثر حرارة وحيوية من السكسون ، وفيهم من الصفات حب الاستقلال والمهارة فى فنون البحر ، وهم أعظم من عرفهم التاريخ من أهل الملاحة والأسفار ، ومن مهرة التجار ، وإليهم يرجع الفضل فى عودة الحياة إلى المدن الرومانية بشمال انجلترا ، وتزويد الحركة التجارية بمدينة لندن بكثير من النشاط . ثم إنهم كانوا أكثر حرية واستقلالا من السكسون ، فاشتمل إقليمهم الأول بشرق الجزيرة على عدد كبير من المدنيين والأحرار ، ولم يوجد أحد من العبيد بعكس الحال فى الجنوب والغرب (٢) .

على أنه لم يكن بين أبناء كانوت من استطاع الإبقاء على وحدة الدولة بعده ولقد عادت انجلترا بعد قليل من وفاته إلى سيرتها القديمة ، واستدعت إليها سليل الملك ألفرد وهو إدوارد التقى من منفاه فى نورمنديا سنة ١٠٤٢ ، وهو آخر الملوك فى سلالة ألفرد العظيم ، وانتهى بذلك عهد الدانيين . أما إدوارد فتنقصه الخبرة بأحوال انجلترا لأنه عاش بعيداً عنها مدة شبابه بالبلاط النورمانى حتى أصبح

---

(١) Grant pp. 310, Carter, p. 66.

(٢) راوس ص ٣١

نورمانيا بقلبه ولسانه ، وتعوقه أساليبه الفرنسية ولسانه الفرنسى عن فهم ما حوله بانجلترا .

ولم تكن لدى إدوارد التقى القوة التى تجعله يسيطر على الحزبية الضاربة الأطناب بالبلاد منذ أيام الدانيين . فلما صار إليه الملك ١٠٤٢ عين النورمان بأسقفيات انجلترا ، فألحق روبرت ، وهو أول أسقف نورمانى بمدينة لندن ، ثم رئيساً لأساقفة كانتبرى وحاط إدوارد نفسه بمظاهر مدنيتهم ، ومنح تجارهم الامتيازات داخل البلاد ، وأقطع أحدهم مقاطعة عند حدود بلاد الغال ، واستقبل فى بلاطه النورمانى بلندن وليم دوق نورماند استقبالا ، دل على عظم نفوذ الحزب النورمانى فى انجلترا ، وبذا مهد السبيل لعودة الدوق وليم إلى انجلترا فيما بعد ( ١٠٦٦ ) غازياً لا زائراً . وبنى إدوارد ديروستمنستر بظاهر لندن على الطراز الابتداعى Romanesque الذى بدأه النورمان فى دوقيتهم بفرنسا ، وبنى قصره بقرب ذلك الدير بظاهر لندن . ومات إدوارد التقى ١٠٦٦ م ولم يعقب ولداً . تاركا انجلترا لقمة سائغة لفئة ناشطة قوية ، هم النورمان الذين أقاموا لهم ملكا فى شمال غرب فرنسا فيما يسمى بنورمنديا Normandy(١) .

---

(١) راوس ص ٣٤ — فيشر ج ١ ص ١٢٦ .

# الفصل الثالث

## انجلترا والفتح النورمانى

## (١٠٦٦ – ١١٥٤ م)

الشماليون — دوقية نورمنديا — أسباب الفتح — هارولد ملك انجلترا — وقعة هستنجز — الثورات الوطنية — قواعد الحكم النورمانى — كتاب الروك — المجلس الكبير — سياسة وليم الدينية — العلاقة مع فرنسا بعد الفتح — نتائج الفتح — وليم الثانى (١٠٨٧—١١٠٠) — هنرى الأول (١١٠٠— ١١٣٥) — ستيفن (١١٣٥ — ١١٥٤) .

سبقت الإشارة(١) إلى نزول فرع من التيار الشمالى المعروف باسم Northmen بالجزيرة البريطانية ، وهو الفرع الأنجلو سكسونى واستقراره بها ، وإطلاق اسم انجلترا على الجزيرة نسبة إليه ، وقيام ملكية وسكس الإنجليزية نتيجة الكفاح بين الإنجليز والدانيين . أما الفرع الآخر الذى اتجه صوب فرنسا والمعروف باسم النورمان Normans فاستقر منذ ٩١١ م بوادى نهر السين ، وعرفت البلاد التى استقر بها باسم نورمنديا Normandy واستبدل النورمان المسيحية بوثنيتهم والفرنسية بلغتهم الدانية وأصبحوا فرنسيين ، وبنوا الكنائس وأقاموا الحصون وأجادوا ركوب الخيول إجادتهم ركوب الزوارق والسفن ، وأسسوا دوقية قوية عاصمتها روان ، ونشأ كفاح طويل بينها وبين الدوقيات الفرنسية ، أسفر عن ظهور أسرة كابيه وهى التى أسست الملكية الفرنسية بباريس .

غير أن توقف مطامع النورمان فى الأراضى الفرنسية دفعهم إلى تحقيقها بالمغامرة فى فتح صقلية وانجلترا فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ففى سنة ١٠١٥ م أذاع الحجاج الرومان فى نورمنديا خبر الحروب الأهلية بجنوب إيطاليا ، فلبى الفرسان المغامرون الدعوة واتجهوا صوب جنوب إيطاليا ، ومنحهم دوق نابلى ١٠٣٠ م المقاطعات مكافأة لهم على شجاعتهم . وبعد قليل استطاع بضع مئات من فرسان النورمان بقيادة اثنى عشر من أبناء المغامر النورمانى الكبير تانكرد دهونفيل أن ينتزعوا جنوب إيطاليا من البيزنطيين ، وصقلية من المسلمين ، وأسروا البابا ليو التاسع وهزموا جيشه الخليط من الألمانيين والطليانيين فى ١٠٣٥م . وأدركت البابوية قوتهم فعقد البابا نقولا الثانى معاهدة معهم ١٠٥٩ ليؤزروه ضد الأمبراطور الألمانى والأمراء الإيطاليين . ووحد روجر الثانى سليل تانكرد جنوب إيطاليا وصقلية فيما يعرف بمملكة الصقليتين ، واستوى على عرشها فى بالرمو نائباً عن البابوية وساهم فى حضارة تلك المملكة جميع أهلها من البيزنطيين والرومان والمسلمين واليهود .

أما انجلترا فتطلعت إليها الأسرة الحاكمة فى دوقية نورمنديا أقوى الدوقيات بدول غرب أوربا ، لأن أدواقها أقاموا حكومتها على أسس إقطاعية

---

(١) ص ٢٩

تنظيمة مقيدة بأسباب الفتح العام ، فتقررت الخدمة العامة على أصحاب الإقطاعيات داخل حدود الدوقية ، وتحددت الحروب الخاصة ، وامتنع بناء المعاقل والقصور الحصينة إلا بإذن من الدوق ، وصارت العملة احتكاراً للدوق ، ومثل النواب مصالح الدوقية العامة فى الإدارة المحلية ، لا المصالح الإقطاعية الخاصة ، وهيمن الدوق على شئون الكنيسة فى نورمنديا . ولم تحل سنة ١٠٤٧ م إلا والدوق وليم قد سيطر سيطرة تامة على جميع النبلاء النورمان وركز السلطة كلها فى شخصه(١) .

وتطلع وليم إلى فتح جديد يشبع فيه فروسيته وطموحه ويزيده قوة على قوة ، وسنحت له الفرصة ، وواتاه الحظ السعيد حين ساءت أحوال انجلترا السياسية والحربية أيام الملك ادوارد التقى بسبب تنافس إرلات وسكس ومرسيا ونورثمبريا وإيست إنجليا على من يخلفه على عرش انجلترا . ولما توفى إدوارد سنة ١٠٦٦ م دون أن يعقب ولداً ، اجتمع مجلس الدولة ( الوتان ) وقرر انتخاب هارولد بن جدوين أمير وسكس ملكا ، فنازعه فى العرش طامعان آخران أجنبيان ، أولهما وليم الابن غير الشرعى لروبرت الخامس دوق نورمنديا ، مدعياً أحقيته فى العرش لأن عمته إما تزوجت من والد ادوارد التقى ؛ وثانيهما هارولد هاردراداملك النرويج ، مدعياً كذلك أن ادوارد وعده بالملك من بعده . وأضافت المراجع التاريخية ادعاء آخر لوليم وهو أنه غزا انجلترا لمعاقبة هارولد على نقضه لعهد قديم قطعه على نفسه مع وليم فى مناسبة ترجع إلى أيام ادوارد الذى ارتقى عرش انجلترا سنة ١٠٤٢ بفضل المساعى التى بذولها جدوين إرل وسكس وعائلته لدى أعضاء الوتان لارتقائه العرش طمعاً فى أن يكون خليفته بعد وفاته . ثم أحاط ادوارد التقى نفسه وبلاطه بجماعة من ندمائه النورمانيين الدائبين على مضايقة جدوين وأسرته ، مما كان سبباً فى اعتداء أهل دوفر التابعة لمقاطعة وسكس سنة ١٠٥١م على الكونت بولون وأتباعه وهم من أصدقاء الملك ادوارد ، ورفض جدوين إجابة طلب الأخير وهو معاقبة المعتدين ، فكان جزاؤه وأولاده النفى خارج البلاد وحين أبحر هارولد أكبر أولاد جدوين

---

(١) راجع فيشر ج ١ ص ١٢٧ — ١٣٢ ؛ Orton : Outines, pp. 188-290.
وراجع تاريخ الجيوش ص ٤٩ — ٥٠ .

من انجلترا تحطمت سفينته على الشاطىء النورمانى ، وأسره أحد أتباع وليم دوق نورمانديا الذى أطلق سراحه مقابل قسم أداه هارولد لوليم ، تعهد بمقتضاه أن يؤيد ويساعد وليم فى الحصول على عرش انجلترا عند وفاة ادوارد التقى(١) .

ثم عاد هارولد إلى انجلترا وعفا عنه إدوارد التقى وأقره إرلا لوسكس بعد وفاة أبيه . فلما مات إدوارد التقى سنة ١٠٦٦ م وخلفه هارولد اتهمه وليم بالخيانة ونقض العهد ووطد العزم على معاقبته ، ووافق مجلس دوقيته على إعداده حملة لغزو انجلترا ، اشترك فيها نفر قليل من أصدقائه المقربين من كبار اللوردات النورمان ، وعدد من صغار أبناء البيوتات النورمانية الكبيرة المعارضة لأطماعه ، وكثير من المغامرين من الفلاندرز وبريتانى ومين وانجو وبواتو واكويتين ووسط فرنسا ، والمستعمرات النورمانية فى جنوب إيطاليا كذلك ، وأيده القوتان الكبيرتان فى غرب أوربا وقتذاك وهما ، الإمبراطور هنرى الرابع والبابا اسكندر الثانى ، الذى ذهب خليفته جريجورى السابع إلى أبعد من التأييد الأدبى ، فأسهم عملياً فى الحملة بلواء بابوى ، لإقرار سلطان البابوية على الكنيسة الانجليزية ، ولطرد ستيجند Stigand رئيس أساقفة كانتبرى المعارض لهذا السلطان .

ولما علم هارولد بمغادرة تلك الحملة الشاطىء النورمانى فى طريقها إلى انجلترا ، غادر لندن بقوته إلى شواطىء كنت وتجمع فى جزيرة ويت لصدها عن قصد انجلترا . غير أنه علم بإغارة هارولد هاردرادا ملك النرويج على الجهات الشمالية من انجلترا فى ثلثمائة سفينة ، وبانتصاره على قوات يورك وعقده صلحاً مع أهلها ، وبانضمام أخيه الأكبر الحاقد عليه توسنج Tosing إلى العدو الزاحف جنوباً مع الساحل الانجليزى ، فأسرع الملك الجديد لملاقاته وأحرز نصراً كبيراً فى وقعة ستامفورد بريدج Stamford bridge يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٠٦٦ ، وقتل فيها هارولد ملك النرويج والأخ الخائن توسنج وعادت الحملة النرويجية خائبة تجر أذيال الفشل ، وختمت هذه

(١) Painter, p. 175.

المعركة نهاية الصراع الانجليزى الاسكندناوى ، كما سجلت نصراً مبيناً لآخر ملك من ملوك الانجلوسكسون .

وبعد المعركة بثلاثة أيام ، وصل هارولد خبر نزول وليم النورمانى على الشاطىء الانجليزى ، فأسرع بقطع مسافة ١٩٠ ميلا بين يورك ولندن فى ثلاثة أيام ، ثم غادر لندن — قبل أن تستريح قواته وقبل تجمعها — صوب العدو الذى اتخذ منزلته فى سهول هستنجز وفى يوم ١٤ اكتوبر دارت المعركة ، وحالف النصر الانجليز فى أولها لتسلطهم على أرضها من أعلى قمة تل هستنجز ، وإجبارهم النورمانيين على الارتداد وإحداث الخلل فى صفوتهم ولما ظهر وليم فجأة وسط صفوف الشاردين توقفوا عن العزوف عن القتال ، وبدأت المعركة من جديد وخاضها النورمان بروح جديدة ، جذبت هارولد إلى أرضها مخضباً فى دمائه ، وألحقت به أخاه جيرث Gyrth وكبار قادته ، وفقد الجيش الانجليزى وحدة صفوفه بين أسير وقتيل وهارب . ولولا استدعاء الانجليز إلى الشمال بادىء ذى بدء لمواجهة الغزو النرويجى ، ولولا الإعياء الذى أصابهم فى الذهاب والإياب ، ولولا قبولهم نشوب المعركة فى هستنجز بدلا من زحزحتها إلى الداخل ، حيث تسكون عوامل النصر فى جانبهم ، لولا ذلك كله لما خسروا المعركة ! ولما كان التاريخ الانجليزى بالصورة التى هو بها الآن .

وبعد خمسة أيام من أول انتصار حاسم لوليم فى انجلترا ، أضفى عليه لقب الفاتح وتقدم إلى احتلال مدينة دوفر ، وحصنها والشاطىء المحيط بها ، وزحف إلى كانتبرى فاستضافته شهراً ، أكدت فيه ولاء هاله ، ثم أقدم على محاصرة لندن من جميع اتجاهاتها ، وفى ضاحيه بركهامستد Ber Khamstead جاءه وفد من أعيان لندن وكبار رجال الدين يبايعونه الولاء والطاعة . ومهما اختلفت الروايات(٢) الانجليزية والنورمانية والفرنسية فى الطريقة التى سلمت بها لندن ، فإنها توجته ملكا فى كنيسة ويستمنستر دون انتظار مجىء زوجته وأهله .

(١) Stenton : Anglo-Saxon England sec. ed., pp. 576-580. Ibid. p. 186, Carter, p. 78.

(٢) راجع Stenton : anglo. p. 589

ومن ثم أخذ وليم الفاتح يحصن مركزه فى مدينة ويستمنستر ، وشيد حصناً فى مكان برج لندن الحالى لمواجهة الثورات التى توقعها فى مدينة لندن وضواحيها ، والتى أخمدها بسرعة دلت على مهارته الحربية . وبعد ستة أشهر من الفتح وزع سلطات حكومته بلندن على نائبه وإرلانه من النورمان والانجليز الصادقين فى إخلاصهم له ، وغادر الجزيرة لزيارة نورمنديا . وما كاد يعود فى مستهل سنة ١٠٦٧ ويتوج زوجته الدوقة ماتيلدا ملكة على انجلترا وويستمنستر ، حتى اندلعت الثورات الوطنية فى طول البلاد وعرضها . من أقصى الجنوب فى اكستر إلى أقصى الشمال على الحدود الاسكتلندية ، وفى الجنوب الغربى على شاطىء البحر الإيرلندى ، حيث رفع راية العصيان ثلاثة من أبناء هارولد الملك السابق . وبدأ وليم فى إخماد تلك الثورات فى غير هوادة ، فحصد الثائرين فى كل مكان ، وقضى على كل نفوذ سياسى للارستقراطية الانجليزية . وطارد إدجر أثلنج المطالب بعرش انجلترا وأفراد البيت المالك إلى مالكولم ملك اسكتلندا ، التى أمست منذئذ ملاذ الفارين والمهاجرين من كبار الانجلوسكسونيين .

وعلى الرغم من تغلب وليم على هذه الثورات بفضل حزمه وما أقامه من سلسلة القلاع الحصينة ، وبفضل السياسة التى انتهجتها باسكان العائلات النورمانية وسط الأقاليم الثائرة ، فإنه لاقى مقاومة شديدة وثورة جارفة فى خريف ١٠٦٩م بالجهات الشمالية فيما يعرف بنورثمبريا ، وبالجهات الوسطى Midland لقربها من اسكتلندا وإيرلندا ، وتحالف سوين ملك الدانمرك مع زعمائها الثائرين وإمدادهم بالأساطيل والجيوش . سار وليم إلى الشمال وأوقع بأهله الانجليز الدانيين صنوف السلب والنهب ، وأنزل عليهم أنواع التخريب والتدمير ، وخصوصاً مدينة يورك التى أبادها إبادة تامة ، وانتقم من أهلها انتقاما ارتجت له انجلترا كلها . وهاجر زعماء الحركة إلى اسكتلندا فغزاها وليم ، وأجبر ملكها على دفع الجزية وعلى طرد اللاجئين السياسيين من بلاده ، فعبروا البحر وعلى رأسهم إدجر أثلنج إلى بلاد الفلاندرز حيث منحه فيلب ملك فرنسا سنة ١٠٧٤ مدينة منتريال الواقعة على الساحل لتكون قاعدة لغزواته على شرق دوقية نورمنديا . وكان ذلك نهاية التحالف القائم بين انجلترا والفلاندرز وبداية العداء السافر بين المملكتين النورمانية

الانجليزية والفرنسية(١) .

وأخيراً هدأت الأحوال تماماً لوليم فى نهاية سنة ١٠٧٠ م ومضى فى تطبيق قواعد حكمه الاستبدادى الذى بدأه فى انجلترا عام الفتح على ثلاثة عناصر أساسية فى الحكم وهى : قانون يحترمه الناس ويسيرون على هديه ، وقوة حربية كافية لشئون الدفاع عن البلاد ، وحصيلة مالية معلومة المبلغ والمواعيد . واستمد وليم تلك الأركان الأساسية فى الحكم من امتزاج النظم والقوانين الانجليزية والسكسونية القديمة بنظم النورمان وقوانينهم . وهذا الامتزاج هو الأصل الذى درجت منه القوانين والحريات الانجليزية الحديثة ، فمثلا اتخذ وليم وخلفاؤه من بعده لأنفسهم جميع ماوجدوا فى انجلترا من قديم التقاليد ، فاعتبر نفسه الوريث الشرعى بعد إدوارد التقى ، وحرص على قيام مجلس الدولة ( الوتان ) — الذى عرف منذ الفتح بالمجلس الأعظم — بتتويجه ، وكان بانجلترا محاكم كلية Shire-courts ومحاكم جزئية Hundred-Courts وكلها تابع للملك ، فجعل منها محاكم إقطاعية Manorial Courts فى طول البلاد وعرضها . وعين عليها نواباً (Sheriffs) للحكم باسم الملك ، وحرص على أن يظل أولئك النواب نوابا عن الملكية بختلف القاطعات على ألا تصبح مناصبهم وراثية ، وعلى هذه الصورة أصبح كل مسئولا أمام القانون والمحاكم عما يرتكب من مخالفات(٢) .

ثم قسم وليم الأراضى والإقطاعيات الانجلوسكسونية التى صادرها إلى أقسام كثيرة ، ثم وزع تلك الأقسام بين البارونات النورمان — ويتراوح عددهم بين ١٧٠ و ١٨٠ بارونا — ومن معهم من جنسيات مختلفة مكافأة لهم على خدماتهم . وجعل هذا التوزيع ضياعهم أجزاء مبعثرة فى أنحاء البلاد . وبذا قلل من أخطار مقاومتهم إلى درجة ملحوظة ، كما جعل التمليك على الإقطاعيات فى انجلترا — كما فى نورمنديا — من حقوق التاج مباشرة ، مقابل الخدمة الحربية فى جيش الملك كى تظل كلمة الملك هى العليا ، وكى لاتصير شئون الحكم فى الدولة وقفاً على الإقطاعيين

(١) Stenton, pp. 591-597.

(٢) فيشر ج ١ ص ١٦٢ — راوس ٤٠ .

يوماً من الأيام ، واستند وليم فى ذلك كله إلى حق الفتح الذى صير الملك مصدر السلطات جميعها . وبذلك حل البارونات النورمان محل طبقة الملاك من الإنجليز والسكسون ، وأصبح أولئك البارونات أصحاب الحل والعقد فى البلاد ، فجعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة يبلغ عدد أفرادها أربعة آلاف وقيل خمسة آلاف من نبلاء ورؤساء كنائس وأديرة بندكتية وأساقفة ، يختلف كل منهم عن الآخر فى القوة والثراء[١] . وبنت تلك الطبقة لنفسها المعاقل الكثيرة من الحجر استعداداً لكل طارىء . وقد أقطع وليم مملكة نورثمبريا لسيد نورمانى كبير يحمل لقب إرل ، ومقاطعة درهام لأسقف درهام ، وأدمج شمال يوركشير إلى رتشموند ، وكون منهما مقاطعة كبيرة أقطعها لكونت بريطانى ، ومنح مقاطعة لانكشير لروجر بواتو ابن روجر منتجومرى أحد كبار البارونات النورمان ، وأنشأ على طول حدود ويلز ثلاث إقطاعيات كبرى هى ، تشستر وشرويزبرى وهيرفورد .

ونظم بذلك وليم فتوحاته تنظيماً حربياً حصيناً لمواجهة خطر النرويجيين والاسكتلنديين من الشمال والشرق وأهل ويلز من الغرب . أما جنوب وشرق انجلترا فأسس بها سلسلة من القلاع الملكية مثل : اكستر ويورك ولنكولن ونوروتش لمراقبة المداخل الرئيسية لطريق انجلترا الجنوبى[٢] . وبات الأنجليز وفق هذه التنظيمات الإقطاعية محرومين من أية سلطة أو نفوذ ، غير أن وليم سمح للملاك الوطنيين منهم الذين لم يحاربوه فى استرداد أملاكهم بالشراء ، أى بدفع غرامة له والتنازل رسمياً عن هذه الأملاك ، ثم أخذها منهم من جديد وفق نظام العهد الإقطاعى، وبذلك يصبحون حائزين للأرض tenants in chief ولم يكتف وليم بهذا بل أخذ الإيمان المغلظة على البارونات فى سالسبورى ١٠٧٢ The moot andoath of salisbury بأن يكون إخلاصهم له فوق إخلاص لسيد آخر ، بمعنى أن إخلاص صغار الملاك Under.tenants لا يتعارض مع إخلاصهم للورداتهم المحليين ، بل هو إخلاص ذو مغزى كبير فى

---

(١) فيشر جـ ١ ص ١٦٣ ؛ Wood ward, p. 33.

(٢) Stenton : anglo,p. 617, — Painter, p. 617,

(٣) حكومة الوزارة للدكتور صبرى ص ٧١ .

يوماً من الأيام ، واستند وليم فى ذلك كله إلى حق الفتح الذى صير الملك مصدر السلطات جميعها . وبذلك حل البارونات النورمان محل طبقة الملاك من الإنجليز والسكسون ، وأصبح أولئك البارونات أصحاب الحل والعقد فى البلاد ، فجعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة يبلغ عدد أفرادها أربعة آلاف وقيل خمسة آلاف من نبلاء ورؤساء كنائس وأديرة بندكتية وأساقفة ، يختلف كل منهم عن الآخر فى القوة والثراء[1] . وبنت تلك الطبقة لنفسها المعاقل الكثيرة من الحجر استعداداً لكل طارىء . وقد أقطع وليم مملكة نورثمبريا لسيد نورمانى كبير يحمل لقب إرل ، ومقاطعة درهام لأسقف درهام ، وأدمج شمال يوركشير إلى رتشموند ، وكون منهما مقاطعة كبيرة أقطعها لكونت بريطانى ، ومنح مقاطعة لانكشير لروجر بواتو ابن روجر منتجومرى أحد كبار البارونات النورمان ، وأنشأ على طول حدود ويلز ثلاث إقطاعيات كبرى هى ، تشستر وشروزبرى وهيرفورد .

ونظم بذلك وليم فتوحاته تنظيما حربياً حصيناً لمواجهة خطر النرويجيين والاسكتلنديين من الشمال والشرق وأهل ويلز من الغرب . أما جنوب وشرق انجلترا فأسس بها سلسلة من القلاع الملكية مثل : اكستر ويورك ولنكولن ونوروتش لمراقبة المداخل الرئيسية لطريق انجلترا الجنوبى[2] . وبات الأنجليز وفق هذه التنظيمات الإقطاعية محرومين من أية سلطة أو نفوذ ، غير أن وليم سمح للملاك الوطنيين منهم الذين لم يحاربوه فى استرداد أملاكهم بالشراء ، أى بدفع غرامة له والتنازل رسمياً عن هذه الأملاك ، ثم أخذها منهم من جديد وفق نظام العهد الإقطاعى ، وبذلك يصبحون حائزين للأرض tenants in chief (٣) ولم يكتف وليم بهذا بل أخذ الإيمان المغلظة على البارونات فى سالسبورى سنة ١٠٧٢ The moot andoath of salisbury بأن يكون إخلاصهم له فوق أى إخلاص لسيد آخر ، بمعنى أن إخلاص صغار الملاك Under.tenants الملاك لايتعارض مع إخلاصهم للورداتهم المحليين ، بل هو إخلاص ذومغزى كبير فى تدعيم

---

(١) فيشر ج ١ ص ١٦٣ ؛ Wood ward, p. 33.

(٢) Stenton : anglo,p. 617, — Painter, p. 617,

(٣) حكومة الوزارة للدكتور صبرى ص ٧١ .

سلطان الملكية ، ونقطة تحول خطير فى تطور نظام الإقطاع الانجليزى لأنه جعل رئيس الدولة أكثر شعبية وأكثر انتصاراً عن ذى قبل (١) . وهذا عدا ما استحدثه وليم من الإقطاعية الحربية والجيش الإقطاعى ، مما كان له أكبر الأثر فى تطور النظام الإقطاعى بانجلترا . فصار قائماً على نسق واحد وقاعدة واحدة مفهومة للجميع ، على حين كان زمن الإنجليز والسكسون مستنداً إلى روابط شخصية متغيرة . وهذا الذى أحدثه وليم فى النظام الإقطاعى بانجلترا هو بعينه السائد فى المجتمع الأوربى وقتذاك ، ومعناه قيام المجتمع وأصول الحكم ونشوئهما فى الحرب والاقتصاد والسياسة والقضاء على أسس محلية . والخلاصة هنا أن انجلترا صارت إقطاعية كدول أوربا ، والفضل فى ذلك للنورمان الذين أقاموا حكمهم بها على أسس الإقطاع ونظمه (٢) .

ومن الناحية المالية ورث وليم عن أسلافه ملوك الأنجلوسكسون موارد ثابتة المال ، أهمها أرض التاج والضرائب المقررة على المدن ، ورسوم القضاء ، وأرجع المؤرخون (٣) أصل النظام المالى النورمانى إلى الملك الفرد ، الذى أفرحق الملك فى التصرف فى أمواله جملة ، وفى تخصيص بعضها للأعمال السلمية ، مما أوحى بإنشاء خزانة بيت المال ومقرها مدينة ونشستر Winchester ، حيث يحفظ بها أموال الملك وملابسه ومجوهراته وسجلاته ومخلفاته ، وكان خازن بيت المال أو بلغة اليوم وزير المالية على عهد وليم الفاتح رجلا إسمه هنرى الخازن ، وليس أدل على ما اتصف به وليم الفاتح من ضبط ودقة فى إدارة البلاد المالية من كتاب الروك Domesday Book الذى تم إنجازه عام ١٠٨٦ أى قبل وفاة وليم بعام ، والذى دل على مبلغ الجهد الذى بذله عمال المالية النورمان فى الكشف عن كل مصدر من مصادر المال ، إذ هو تقدير لمالية البلاد وإحصاء لأهلها ، وما تحت أيديهم من أرض وماشية ، فهو نوع من الإحصاء العام لموارد البلاد ، وهو السجل الأول الذى قامت على أسسه سجلات النظم الإدارية بانجلترا ، والأصل الذى

---

(١) Stenton, p. 610.

(٢) راوس ص ٣٩ .

(٣) Stenton, p. 635.

تشعبت منه تلك الحلقات المتصلة من تقاليد الإدارة بها ، كما يعتبره البعض بوجه عام أعظم سجل وصفى فى أوربا فى العصور الوسطى ، كتب بعد زوال الإمبراطورية الرومانية ، بلغ من الأهمية والأثر ما بلغته الإجراءات القضائية ، التى سنها الملك هنرى الثانى فى المحاكم الانجليزية والمعروفة بمحاكمة المحلفين (Jury trial) (١) وقال عنه أحد المؤرخين « إن الملك قد أمر بإحصاء كل شىء ، فلم يترك من الأرض قيراطاً أو ذراعاً ، أنه لم يترك ثوراً أو بقرة أو خنزيراً إلا أحصاه وأثبته فى كتابه وهو ما نخجل من ذكره ، وإن لم ير الملك فيه ما يخجل »(٢) وهذه شكوى إنجليزية حقاً ومثلها كثير خلال عصور التاريخ الانجليزى .

ويقول التاريخ إن وليم الفاتح كان يعقد جمعية عادية ثلاث مرات فى السنة وذلك بمناسبة الأعياد الثلاثة ( الفصح — الميلاد — العنصرة ) ويضم هذا المجلس كبار الحائزين لأراضى التاج ، الذين هم بعض رجال الكنيسة ، وكبار طبقة الأعيان ورجال البلاط وأطلق على هذا المجلس الكبير Magnum Concilium أو Common concilium أو Commune concilium : ولم تكن لهذا المجلس أية سلطة فعلية ، فحقه فى إقرار الضرائب كان نظرياً ، وليس أدل على ذلك من جباية هنرى الأول لضريبة الذهب الدانى Danegeld دون موافقة المجلس ، ومن الناحية الإدارية استعان وليم بجماعة من البارونات ورجال الدين وعلى رأسهم ساعد الملك الأيمن Chief-Justiciar وينوب عن الملك إذا تغيب عن البلاد ، وتولى هذه الوظيفة لانفرانك رئيس أساقفة كانتبرى سنة ١٠٧٥ ، ومستشار التاج The king's Chancellor ، ثم عدد من كبار موظفى التاج الذين يجتمعون فى لجان لبحث مايعرض عليهم ، فمحكمة المسائل المالية يطلق عليها The Excheguer ، ومحكمة المسائل القانونية أو الادارية يطلق عليها Curia regis أى مجلس الملك الذى فاقت أهميته أهمية المجلس الكبير وفيه تركزت السلطة

---

(١) Carlstephenson, p. 317.

(٢) راوس ٤١ ، ٤٢ وراجع Painter, p. 183.

الإدارية ، وصار أصل الإدارة التنفيذية الحالية (١) . وأحل وليم — تدريجياً — اللغتين اللاتينية والفرنسية محل الانجليزية فى المكاتبات والوثائق ، وأنشأ إدارة جديدة للمراسلات وعين لها عدداً من الإداريين والكتابيين ، ويرأس الإداريين هيرفست Herfast أسقف إيست إنجليا برتبة مستشار ملكى أول ، ويرأس الكتابيين أزموند Asmund اسقف سالسبورى برتبة مستشار ملكى ثان ، وتطورت وظيفة المستشار الأول فيما بعد إلى ناظر القصر الملكى وحامل أختام الملك وهى واجبات وزارية بحتة (٢) .

وكان هدف وليم من تلك القواعد التى وضعها لحكومته الجديدة ، هو تأسيس حكومة مركزية ملكية قوية يخضع لها جميع البارونات ، وألا تكون ملكية ضعيفة كالملكية الفرنسية التى تستطيع أية بارونية تابعة لها أن تحاربها . وساعد ملوك النورمان على تحقيق هذا الهدف ، صغر مساحة انجلترا وسهولة تنقل نواب الملكية بين البلاد ، وعدم دخول إيرلندا واسكتلندا فى حوزة الممالكات النورمانية ، وعدم تسرب الفتن والآراء الأوربية إلى انجلترا ، لانفصالها عن القارة بواسطة بحر المانش والقناة الإنجليزى .

ويلاحظ من الناحية الدينية ، أن وليم الفاتح على الرغم من كراهيته الشديدة للبابوية ، فإنه أخفى هذه الكراهية واستفاد من خصمه فى الحصول على موافقة منه عند القيام بمشروع الفتح ، فلما تم له ذلك أخذ يعمل على إصلاح الكنيسة الإنجليزية التى أصابها الفساد والانحلال ، وطغت عليها النزعة الدنيوية ، وقضت محاكمها فى الدعاوى الدينية والمدنية من غير تمييز ، كما تدخل مجلس الدولة فى المسائل الكنسية والسياسية دون تفريق ، مما جعل السلطة الروحية تبدو خاضعة للسلطة الزمنية . ولم يكن غريباً على وليم أن يعمل على إصلاح ذلك كله بقواعد جديدة فأصدر سنة ١٠٧٢ م قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية ، وتحويل القضايا الدينية من المحاكم الجزئية ومحاكمة الأساقفة وفق القوانين الدينية والمدنية

(١) حكومة الوزارة للدكتور صبرى ص ٧٢ — ٧٣

(٢) Stenton, p. 634.

معاً ، كما أصدر قانون الزواج الذى يحرم على أى فردأن يزوج ابنته أوقريبته دون تبريك الأسقف ، وصدر القانون الذى تطور تطوراً أقر صحة الزواج الشرعى بمجرد إعلان موافقة كل من الزوجين به(١) .

ثم استعان وليم فى تنظيم الكنيسة الإنجليزية بكبار الأساقفة من الإيطاليين أمثال لانفرانك وآنسلم اللذان توليا منصب رئاسة الأساقفة فى كانتبرى الواحد بعد الآخر . فحمل إليها كل منهما من العلم والنظام والفلسفة ، ما لم تذق انجلترا طعمه منذ زمن بعيد ، وافتتح الطريق لدراسة القانون الكنسى ، وإلى خلق حياة ديرية نقية صارمة ومستوى عال فى العلم والأخلاق بين رجال الدين(٢) . منح وليم صديقه لانفرانك كل ثقته وأطلق يده فى إصلاح الكنيسة الإنجليزية وأديرتها ، فاستعان لانفرانك — فى أداء هذه المهمة — بفئة مختارة من الأساقفة ورؤساء الأديرة أمثال أزمند أف سالسبورى وجندولف أف روشستر ، ودولشير أف درهام وريميجوس أف لنكولن وولشيلين أف ونشستر ، وروبرت أف هيرفورد ، كما أكثر من عقد المجالس الدينية معهم وكبار رجال الكنيسة ، لمناقشة أمور الدين ومشاكله وعلاقته بالدولة وبالبابوية ، ولم يقتصر لانفرانك على عقد تلك المجالس فى إفهام الأساقفة ورؤساء الأديرة واجباتهم الروحية والزمنية ، بل اعتمد كذلك على مراسلاته الشخصية معهم ودلت تلك المراسلات على مبلغ ما وصل إليه من إيجاز وإيضاح وإلمام بكل تفاصيل الإدارة المدنية والدينية المتعلقة بالكنيسة الإنجليزية وعلى ما بينه ووليم من ثقة وحب وإخلاص(٣) .

ومما يستوجب الالتفات فى نظام الديرية الإنجليزية أن لانفرانك لم يؤسس منازل جديدة لها ، باستثناء دير واحد وصومعة واحدة ، وأنه شجع المنح المجباة على الأراضى الإنجليزية لصالح الأديرة فى فرنسا ، لاعتماد كثير من المجتمعات الصغيرة فى الأديرة الأوربية على هذه الإعانات ؛ وتدل الحركة الديرية فى شمال انجلترا على ما بين الفرنسيين والانجليز من تعاون بين ، فقائد الحركة هناك فارس نورمانى

---

(١) Stenton, pp. 691-662.

(٢) راوس ص ٣٨ .

(٣) Stenton, p. 663.

إسمه رينفريا Reinfria وراهب إنجليزى إسمه إيلدوين العليم بتاريخ الشهداء فى نورثمبريا والراغب فى حياة الزهد والتقشف(١) . ومن دلائل هذا التعاون الفرنسى الانجليزى تشجيع وليم للرهبان الانجليز على نشر الإصلاحات الدينية الواسعة المنسوبة إلى مدينة كلونى بالجنوب الشرقى من فرنسا والمعروفة بالإصلاحات الكلونية .

وقضى وليم على كل تدخل للبابا فى شئون الكنيسة الانجليزية ، إذ حرم على أساقفته حضور الاجتماعات البابوية فى روما ، وتقديم شكاياتهم إلى البابا دون علم ، أو تلقى مكاتبات منه دون موافقة . الأمر الذى أكد سلطان الملكية النورمانية على الكنيسة الانجليزية ، وحررها من كل أثر لسلطة البابا ، وآية ذلك تنكره عقب الفتح مباشرة — لأى عهد قطعه على نفسه للبابا اسكندر الثانى بجعله تابعاً إقطاعياً للبابا . ولما جدد جريجورى السابع طلب الولاء سنة ١٠٨٠ أجابه وليم بالرفض ، بل إنه وقف على الحياد حين طردت روما هذا البابا ونصبت منافسه كليمنت السابع مما زاد فى قوة الملكية الانجليزية(٢) . وهكذا حرص وليم وأخلافه على أن تكون الكنيسة فى انجلترا خاضعة لسلطان الدولة .

ويلاحظ أخيراً أن وليم الفاتح لم يفقد دوقيته فى نورمنديا عند ما أصبح ملكا على انجلترا سنة ١٠٦٦ ، بل ظل وأتباعه وسلالته ملوك انجلترا أصحاب دولة أخرى عبر المانش . ولذا بقى ملك انجلترا بحكم دوقيته النورمانية فسالا vassal إقطاعيا تابعاً للملكية الفرنسية ، وارتبط كذلك كثير من كبار الإقطاعيين فى انجلترا بإقطاعاتهم وذوى قرابتهم فى نورمنديا . وطالما بقى جزء من فرنسا فى أيدى ملوك انجلترا ، بقى عداء دائم بين التجار من أهل البلدين . وظلت الحروب ناشبة بين الطرفين حتى أواسط القرن السادس عشر ، حين نزلت انجلترا عن كل شبر لها من أرض فرنسا ، ولا تزال مقبرتا وليم الفاتح وهنرى الثانى فى أرض أجنبية(٣) .

ولقد عمد ملوك النورمان بانجلترا منذ أوائل عهدهم إلى الاختلاط بالانجليز

---

(١) Stenton, p. 667.

(٢) Stenton, p. 665.

(٣) فيشر ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٧

واستخدامهم بمختلف الأعمال كوسيلة للحد من سيطرة البارونات ؛ وقاد وليم الفاتح بنفسه أكثر من حملة مختلطة من العنصرين لإخضاع المدن النورمانية العاصية لحكمه في مقاطعة نورمنديا بفرنسا ، ودأب على قضاء شطر من كل عام في الفترة ما بين ١٠٧٢ و١٠٨٤ هناك ، بل وغاب عن انجلترا ما يقرب من ثلاث سنوات متتالية بين عامي ١٠٧٧ — ١٠٨٠ م واعتبر الانجليز أنفسهم الملكية النورمانية رمزاً للمصالح القومية ضد مصالح البارونات .

ومن الفوائد التي جنتها انجلترا بعد الفتح أنها لم تتعرض لغزو خارجي بعده ، كما حدث قبل ذلك ، لأن النورمان نقلوا إليها معهم دولة قوية ذات سلطان وبأس فلم يطمع فيها طامع من قريب أو بعيد ، ثم إن الفتح خلق من عناصرها المتنافرة أمة واحدة ، ولم يتحقق ذلك إلا عن طريق الملوك النورمان الذين حكموا البلاد حكماً عسكرياً ، فضلا عن أن الفتح أمد انجلترا بسلسلة من أقوى الملوك وأمهرهم في السياسة وأصول الحكم ، وحملوا معهم نظمهم الخاصة التي تطورت وتشكلت بحسب البيئة الانجليزية .

مات وليم الفاتح عن ثلاثة أبناء روبرت أكبرهم وله دوقية نورمنديا ، ووليم الثاني الشهير بوليم رفس لاحمرار وجهه the redrufus وله عرش انجلترا ، وأخذ الابن الثالث والأصغر هنري بعض إقطاعات في نورمنديا . أما وليم الثاني ملك انجلترا ( ١٠٨٧ — ١١٠٠ ) فاتصف بالشراسة والطيش والقوة والبطش وسوء التدبير . تنازع الأخوان وليم وربرت بسبب الدوقية والملكية الانجليزية ووفق بينهما فيلب الأول ملك فرنسا عام ١٠٩١ ، على أن يرث روبرت أخاه وليم الثاني في العرش . ورغم هذا لم ينته الخصام بين الأخوين ، إلا باشتراك ربرت في الحملة الصليبية الأولى الذاهبة لتخليص بيت المقدس من المسلمين سنة ١٠٩٥ بعد أن رهن دوقية نورمنديا عند أخيه وليم ، لقاء مبلغ من المال جهز به الحملة .

واستبد وليم الثاني بالملك ، وغلب على ملكيته الطغيان والظلم والتبذير ، ومكنه كتاب الروك النورماني الذي وضعه والده من معرفة ما يمتلكه كل شخص في المملكة ، وما عليه من ضرائب شتى ووسائل تحصيلها في أوقاتها المعينة ، وحمل

وليم كل حقوقه الإقطاعية على الأمراء نقدية ، فإذا مات بارون لايقر وارثه فى بارونيته إلا بعد دفع مبلغ من المال ، ولا يصرح لبارون بتزويج ابنته إلا إذا وهبه أجراً كبيراً ، وإذا مات البارون عن ابنة غير متزوجة باعها الملك لمن رست عليه المزايدة (١) .

فلا غرو إذن فى أن يثور البارونات ضد وليم ويعلنون عليه حرباً أهلية ، أيدهم فيها رجال الدين الذين اتبع وليم الثانى معهم نفس الأساليب التعسفية لجمع المال ، فأ كثر الضرائب على الأديرة واضطر أصحابها إلى الفرار والهجرة ، وأدارها هو بنفسه ودخل إيرادها جيبه ، ولما توفى لانفريك كبير أساقفة كانتبرى رفض وليم أن يشغل وظيفته ليؤول دخل أسقفيتها إليه كذلك . ثم مرض وليم واشتد به الألم فعين سنة ١٠٩٣ القديس أنسلم المشهور بثقافته العالمية وأخلاقه الرفيعة فى هذا المنصب الشاغر . يعتبر أنسلم أول المدرسين ، وهو إيطالى درس بفرنسا ودخل دير بك حيث تعلم ثم علم ، وبفضله ذاعت شهرة الدير فقصده كثير من طلاب العلم الفرنسيين والانجليز . وتدور معظم فلسفة أنسلم حول موضوعات دينية لا سيما موضوع وجود الله وصفاته . ويعترف فى كتاباته بأنه تلميذ القديس أوجسطين ومنذ توليه أسقفية كانتبرى نشأ (٢) . منذئذ الخلاف بين الملكية الانجليزية والكنيسة ومحوره هل يكون ولاء رجال الدين وإخلاصهم للملك أو للبابا . نشأ ذلك السؤال حين استأذن أنسلم الملك وليم فى السفر إلى روما ، ليقلده البابا شارات الوظيفة الجديدة فرفض وليم السماح له بذلك ، فتلمس أنسلم أسباب الفرار إلى نورمنديا ، ليتفادى التصادم العنيف مع وليم (٣) الذى اندلعت الثورات البارونية ضد سياسته فى كل المقاطعات . ويعزو البعض (٤) . الخلاف الذى وقع بين وليم ورجال الدين إلى المعاملة الخشنة التى

---

(١) Painter, p. 183.

(٢) النهضات الأوربية للدكتور سعيد عاشور ص ١٦٧ طبعة ١٩٥٧ .

(٣) Grant, p. 365.

(٤) Woodward p. 35.

عامل بها المؤرخين المعاصرين وكلهم من رجال الكنيسة الملك وليم الثانى ، الذى خرج بعد ثلاثين عاماً من حكمه الظالم إلى الصيد فى إحدى الغابات ، فاصابه سهم من أحد حاشيته ومات قتيلا .

وتقربت الملكية النورمانية من الانجليز فى عهد أخيه هنرى الأول أصغر أبناء الفاتح ( ١١٠٠ — ١١٣٥ ) وعمد إلى التقرب من الشعب ، وتصاهر النورمان معهم عامة . ادعى هنرى أنه جاء لرفع الضرائب المختلفة عن الشعب وأنه عازم على استخدام حقوقه ضد العصاة من البارونات لاضد الشعب كما فعل أخوه من قبل ، وأصدر أمراً ملكياً يوم تتويجه تعهد فيه بوقف الإجراءات التعسفية التى اسقنها أخوه ، وأصبح هذا الأمر ذا أهمية دستورية فى التاريخ الإنجليزى ، لاعتراف هنرى فيه بأنه مقيد بالقانون ، فاحترامه له صار أمراً حتمياً عليه ، تزوج هنرى من أميرة إنجليزية من بيت كلير Clare إحدى البيوتات الملكية القديمة فى وسكس ، والتى منها قاتل أخاه وليم رفس . وهذه الأميرة هى إدث Edith التى بدل إسمها الانجليزى السكسونى إلى ماتيلده الإسم الفرنسى إرضاء للنورمانيين ، وقرب أسرتها إليه حتى عدت أكبر الأسر الانجليزية نفوذاً فى عهده وسخر الأمراء النورمان من هذه الزيجة وامتعضوا لسياسة الشدة والدسائس التى انتهجها معهم مخالفاً بذلك ماتعهد به يوم تتويجه ، فاخذهم بالبطش والشدة ، ونفى الثائرين منهم وابتدع لهم نظام البدل Scutage وأجاز به دفع المال مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية ، فمكن له ذلك النظام من السيطرة على الجيش الذى أنشاه أبوه بحيث استطاع أن يغير من تكوينه تغييراً تاماً (١) وقضى هنرى الأول شطراً كبيراً من سنى حكمه فى حروب طاحنة بدوقية نورمنديا بعضها مع أخيه الأكبر روبرت بعد عودته من الشرق سنة ١١٠١ ، انتهت بالقبض عليه فى وقعة تنشبرى سنة ١١٠٦ وإرساله أسيراً إلى قلعة كارون بانجلترا ، مات بها بعد ثلاثين عاماً من سجنه ، والبعض الآخر من تلك الحروب مع البارونات النورمان الذين آزروا أخاه وتعاونوا مع لويس

---

(١) فيشر ح ١ ص ٤١ .

ملك فرنسا ( ١١٠٨ — ١١٣٧ ) ضده . ومن أجل معاقبة أولئك الأعداء وتدعيم حقوقه فى دوقية نورمنديا ، صاهر هنرى الأول أقوى بيت فى أنجو Anjou فزوج ابنته ماتيلده ، أرملة هنرى الخامس أمبراطور الدولة الرومانية من جيوفرى بلانتاجنت كونت أنجو . وأغضبت سياسة توازن القوى هذه كلا من بارونات النورمان الانجليز وملك فرنسا ، لأنهم المقصودون من هذه السياسة ، وأكره هنرى الأول بارونات انجلترا ورجال الدين بها على القسم بأن يؤول العرش بعده إلى ابنته الوحيدة ماتيلده هذه .

ودعم هنرى الأول سلطة حكومته باتباع القواعد التى وضعها أبوه وأخوه عدا ما ابتكر من وسائل جديدة مثال ذلك ، أن وليم الأول والثانى قررا ضرورة نظر القضايا الملكية أمام قضاة ملكيين ومن الناحية التنفيذية عهدا إلى نواب الملك ( الإشراف ) بالنظر فيها ، فلما جاء هنرى أنشأ المحاكم الملكية وجعلها تنتقل بانتظام فى طول البلاد وعرضها للنظر فى قضايا التاج . وأكمل هنرى الأول سياسة وليم رفس فيما يختص بتعيين نواب الملك وقضاته من رجال يعتمدون على تأييد الملكية ومعونتها بدلا من اختيارهم من بارونات يعتمدون على مواردهم الخاصة ونفوذهم الشخصى .

ومن ناحية الإدارة المالية اعتاد أسلاف هنرى الأول وضع خزانة المال الاحتياطى للمملكة فى قلعة ونشستر Winchester الحصينة وخزانة المال المتداول فى البلاط الملكى تحت حراسة أمناء بيت المال ، فنقل هنرى ثلاثة من أمناء المال ببلاطه ، وعينهم بصفة دائمة فى ونشستر للاشراف على خزانتها ، لقب أحدها فيما بعد بأمين الخزانة ( وزير المالية Treasurer ) وعرف الأخيران بأمينى بيت المال . ثم وضع وزير مالية هنرى الأول نظاماً ثابتاً لجمع الضرائب سنوياً ، فعين ملكيين أطلق عليهم بارونات بيت المال ، يطوفون مرتين كل عام على نواب الملك فى الأقاليم ويحصلون منهم الضرائب الملكية ، ويكتبون تقريراً مالياً يعرف فى التاريخ باسم ال Pipe Roll ولايزال أحد هذه التقارير موجود إلى اليوم مع سلسلة أخرى مماثلة ترجع إلى عهد هنرى الثانى (١) . وابتكر هنرى الأول فى سياسته الدفاعية عادة

(١) Painter, pp. 184-185.

رفع مرتبات الجنود مما أتاح له أن يستبقى رجاله أكثر من مدة الأربعين يوماً وهى الأجل الذى حدده النظام الإقطاعى فى التزاماته ، والذى لم يكن يكفى انتقال فرسانه إلى القارة . وأخذ خلفاء هنرى الأول بهذا المبدأ وعمموا نظام رواتب الجند أثناء حرب المائة عام وأضطر ملك فرنسا إلى الأخذ بهذا التقليد الإنجليزى أثناء الحملة الصليبية الثانية والثالثة (١١٤٧ — ١١٨٩ م) ثم طبقها باستمرار فى كافة الحروب — وليس شارل السابع ملك فرنسا إذن — كما ظن البعض — هو الذى حول مجندى الإقطاع Contingents إلى جنود مأجورين Soldats (١) .

ولم يعترف لوردات انجلترا بماتيلده ملكة على العرش عند وفاة أبيها هنرى الأول ١١٣٥ م لعدم استساغتهم تولية امرأة ، فضلا عن أن الاعتراف بها معناه الاعتراف بغريمهم وزوجها جيوفرى بلانتاجنت ملكا عليهم . وهو المعروف باقطاعاته الواسعة فى نورمنديا وبقوته التى لاتقارن بغيرها ، واستدعوا على الفور ستيفن ابن كونت بلوا الفرنسى وابن أخت هنرى الأول إلى انجلترا ، ونصبوه ملكا عليهم وهو المشهور بظرفه ولين جانبه ودماثة أخلاقه وأيدهم فى هذا الاختيار ملك فرنسا كما أيدهم الأساقفة لأن أخاه تيبوت Thibaut كان واحداً منهم ، ولذلك كان ستيفن على وفاق مع طبقة رجال الدين والكنيسة وأقسم ستيفن فى مجلس عقده من الأساقفة والبارونات فى مدينة اكسفورد أن يلغى الضرائب التى استحدثها سلفه وأن يحفظ حقوق رجال الدين ؛ فيتخلى عن ادعائه فى إلباس رؤساء الأديرة والأساقفة الخاتم وتسليمهم صولجان تعينهم ، ومنح البارونات حقوقاً وامتيازات لم تكن لهم من قبل ، كالصيد فى أحراشهم وبناء المعاقل الجديدة فى عقاراتهم ، ونتج عن ذلك أن اكتسب ستيفن حزباً كبيراً وقوياً ، وأقيم فى انجلترا فى مدة قصيرة مائة وست وعشرون قلعة جديدة ، فضلا عن القلاع القديمة ، وغدت جميعها — فيما بعد — ملجأ لقطاع الطرق واللصوص والأحزاب المعارضة للملكية .

وهكذا اغتصب ستيفن العرش من ماتيلده صاحبه الحق الشرعى فيه وانضم إليها

---

(١) تاريخ الجيوش ، جورج كاستلان ترجمة كمال دسوقى طبعة ١٩٥٦ .

جماعة من اتباعها البارونات ، كما ناصرها إدوارد ملك اسكتلندا وانقسمت انجلترا بذلك إلى حزبين كبيرين . لكل منهما أنصاره فى الداخل والخارج وعانت البلاد كثيراً من فوضى هذين الحزبين وتعرضت لحروب أهليه طاحنة وخراب شامل ، على أثر قيام ماتيلده وزوجها بحملتين من نورمنديا ، إحداهما نزلت بقيادة جيوفرى على نورثمبريا فى شمال انجلترا تؤيدها من الشمال جيوش ملك اسكتلندا انتهت بهزيمة الاسكتلنديين فى وقعة ستابدرد أغسطس سنة ١١٣٧ وتقهقرهم إلى كارليل ، وعقد الصلح بينهم وبين ستيفن الذى تنازل عن بعض نورثمبريا مقابل أخذه خمسة من إشراف اسكتلندا رهينة للمحافظة على المعاهدة . أما ماتيلدة فنزلت بحملتها على السواحل الجنوبية ونشبت حرب أهليه بينها وبين ستيفن ، وتبين عجز الأخير عن حماية أملاكه فى نورمنديا أوعرشه فى انجلترا ، إذ انتهت معركة بريستول، بأسره وبازدياد أنصار ماتيلده وولدها هنرى من البارونات ورجال الدين ، غير أن بعض أنصاره من كنت احتلوا لندن وأطلقوا سراح ستيفن وفرت ماتيلده إلى اكسفورد حيث حوصرت وفرت من الحصار ، وظلت تتنقل فى أحراش انجلترا حتى عبرت البحر إلى نورمنديا ، وهناك عاشت وولدها هنرى الذى ذاعت شهرته بين الفرسان وعزم على استرجاع العرش من ستيفن . ولم ينقذ البلاد من الخراب والدمار الذى سببته الحرب الأهلية إلاموافقة البارونات جميعاً على تعيين هنرى بن ماتيلده بعد مضى عام على وفاة ستيفن سنة ١١٥٤ (١) .

ودل عصر ستيفن ( ١١٢٥ — ١١٥٤) على ما اتصف به الانجليز والنورمان من بربرية وهمجية لم تقتصر أثارها القبيحة على أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب ، وإنما امتدت إلى القيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية وقوانين البلاد ، إذ وجد البارونات ورجال الدين فرصتهم الذهبية فى تلك الحرب الأهلية للاثراء والتملك والجاه والسلطان ، وكانت وسائلهم لتحقيق ذلك الهدف متعددة ، فركنوا إلى الخيانة والغدر والنفاق والانضمام إلى حزب دون آخر ، إذا منحهم من الأراضى والامتيازات مايفوق عروض الحزب الآخر . وبفضل التنقل من حزب إلى آخر ، استطاع أقوى بارونات إسكس وهو جيوفرى دى مانديفيل de mandeville

---

(١) Grant, p. 362,365. ، ٣٦ — ٣٧ ؛ Trevlyan, p. 139.

أن يحصل على لقب إرل اسكس ، وقائد حامية قلعة لندن Tower of London ونائب الملك وقاضيه فى لندن ومقاطعات ميدل سكس ، واسكس وهرتفوردشير على أن تورث ، كما حصل لأبنائه من بعده على إقطاعات ملكية واسعة بما فيها ، والسماح له ببناء المعاقل والحصون وأعدام من يعترض سبيله . وكذا صيرته هذه الحقوق السيد المطلق السلطات فى أربع مقاطعات بما فيها مدينة لندن (١) . وحصل قليل من البارونات على مثل تلك الامتيازات التى حصل عليها جيوفرى ، أما الغالبية العظمى منهم فصاروا أشرافا فى مقاطعاتهم وقادة للقلاع الملكية واستحوزوا على أراضى ملكية وخدمات يقدمها إليهم Minor ten ants in chief ، وكذا قامت فى جميع أنحاء انجلترا قوات بارونية جديدة إذ بينما يجمع كبار البارونات قواهم ويصيرون من الناحية العملية مستقلين عن التاج ، يجمع قليل من الأحرار جماعات مسلحة من الجند ويتخذون بعض القلاع مأوى للانتشار فى الريف للسلب والنهب ولم يكد هذا ينتهى حتى صارت إنجلترا كألمانيا دولة تغمرها الفوضى ليس لملكها حول ولا طول مع أتباعه إلى أن اعتلى هنرى بلانتاجنت بن ماتيلده ابنة هنرى الأول دوق نورماندى وا كويتين وكونت أنجو عرش انجلترا باسم هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) .

# الفصل الرابع

## تطور نظم الحكم فى عهد البلانتاجنت

## ( ١١٤٥ - ١٣٢٧ م )

---

الملك هنرى بلانتاجنت المعروف بهنرى الثانى ( ١١٥٤ - ١٦٨٩ م ) — إصلاحاته القضائية — القانون العام - قانون التوريث — هنرى الثانى والكنسية - توماس بيكت — هنرى والجيش — سياسة هنرى الثانى الداخلية — رتشارد قلب الأسد ( ١١٨٩ — ١١٩٩ م ) — الملك حنا ( ١٠٩٩ — ١٢١٦ ) — الماجنا كارتا سنة ١٢١٥ م — هنرى الثالث ( ١٢١٦ — ١٢٧٢ ) - شروط اكسفورد ١٢٥٨ -- برلمان سيمون — أدوارد الأول ( ١٢٧٢ — ١٣٠٧ ) — البرلمان النموذجى — تشريعات ادوارد الأول — حروب إدوارد — ادوارد الثانى ( ١٣٠٧ - ١٣٢٧ )

إعتلى هنرى بلانتاجنت عرش إنجلترا باسم هنرى الثانى ( ١١٥٤ — ١١٨٩ ) وهو شخصية من أكبر شخصيات العصور الوسطى على الإطلاق ، وحاكم ذو عقلية قانونية إنشائية بلغ بقوة عقله ومضاء عزيمته مبلغ العباقرة . أعطى للقرن الثانى عشر أعظم أنموذج للملكية القوية المستبدة . وكان هو الدولة حقاً كما كان لويس الرابع عشر فى فرنسا بعد ذلك بقرون . أفاد هنرى الثانى إنجلترا من عدة وجوه . أفادها فى سياستها الخارجية وفى تدعيم وتقوية قواعد الحكم التى وضعها وليم الفاتح ، وفى نضالها مع الكنيسة ، وفى حروبها مع إيرلندا وويلز . وأول عمل اتجه إليه هنرى الثانى عقب توليه الحكم كان إقرار الأمن وإنهاء فوضى عهد ستيفن ، فشرع فى هدم القلاع الجديدة التى بناها البارونات فى عهد سلفه وما تبقى من الهدم استحوذ عليه هنرى بعد وفاة مالكه متجاهلاحق ورثته ، وألزم هنرى الثانى البارونات بالحصول على موافقته عند تزويج أبنائهم مقابل دفع قدر معلوم من المال للخزانة الملكية . وإذا مات أحد البارونات إشترط دفع مائه جنيه إنجليزى لانتقال اللقب إلى إبنه إذا لم يعترض عليه معترض ، أما إذا اعترض عليه معترض فللملك أن يطلب من المال مايشاء . وأمر هنرى بإخراج الأغراب المفسدين من البارونات الذين تسللوا إلى انجلترا فى عهود الفوضى السابقة وعاثوا فيها فساداً ، ثم ألغى ما حصلوا عليه من إمتيازات . وأدت هذه الإجراءات الشديدة من جانب هنرى الثانى للسيطرة على البارونات إلى قيامهم بثورات إقطاعية ضد الملكية ، آخرها سنة ١١٧١ م وقد أخمدها هنرى بضربة قوية اضطر أولئك النبلاء إلى اعتبار الحكومة الملكية حقيقة لاسبيل إلى إنكارها وأسهموا مع فرسان الأقاليم ونواب المدن بسهم فى الاضطلاع بشئونها ، وبهذا التحول فى أحوال النبلاء النورمانيين من طبقه أجنبية منعزلة إلى طبقة أرستقراطية وطنية منسجمة مع سائر الطبقات ، زالت العقبة الكبرى فى سبيل تكوين أمه إنجليزية موحدة حتى أمكن القول إن محاولة سيطرة هنرى الثانى على الأمراء كانت أخطر محاولة قام بها ، لم تحاولها فرنسا إلا فى القرن السابع عشر على عهد ريشيليو .

ثم إن ذلك السلام الذى شمل البلاد جميعاً طوال عهد هنرى الثانى قلب هذه الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية — طبقة أهل السيف والحرب — إلى طبقة

من الأعيان المزارعين ، أصبح كل همهم العناية بأراضيهم الواسعة والعمل على زيادة إنتاجها . واعتمدت الملكية فى أغلب الأحيان على خدمات طبقة الأعيان المزارعين فى تصريف الشئون المحلية ، ونشأت بين تلك الطبقة رغبة أكيدة فى خدمة الدولة ، ونما بين أبنائها إحساس عميق بشىء من المسئولية العامة ، مما يدين له التاريخ الإنجليزى بالكثير من خصائصه البارزة منذ أوائل العصور الوسطى ، وتلك ظاهرة متصلة فى التاريخ الإنجليزى كله (١) .

وشملت إصلاحات هنرى الثانى القضاء . فحدت من سلطة البارونات القضائية تلك السلطة التى كانت مورداً من موارد المال فى إقطاعاتهم ، والمعروف أن هنرى سار على سياسة إرسال القضاة المتجولين Itenerant gudges فى المحكمة الملكية Curia-regis إلى محاكم الإقطاعات لتوكيد الصلة بين الإدارة المحلية فى تلك الإقطاعات والإدارة المركزية فى ويستمنستر ، غير أنه أضاف عنصراً جديداً إلى القضاء وهو عنصر جماعة المحلفين المحليين Local juries وهم الفئة المختارة من أعيان البلاد المقيمين فيها ، والعارفين لجميع المواطنين والملمين بالقانون العام : يستعين بهم القضاة المتجولون فى تحقيق الجنايات والدعاوى ومعرفة أسرار الأمن ومخالفى القانون ، من اللصوص والأشرار وقطاع الطرق والتبليغ عنهم وتقديمهم للمحاكمة . وبذلك أحل هنرى الثانى نظام المحلفين محل الوسائل البدائية الشائعة وقتذاك فى تحقيق الجنايات والدعاوى المدنية ، كامتحان المدعى عليه بالنار أو بالماء الساخن أو الماء البارد أو تأدية اليمين على من أنكر ، والاحتكام إلى السيف والمبارزة أو المشى على أسياخ محماة ، أو أن يسير المتهم حاملا فى يده سيخاً محمى لمسافة معينة وتفحص يده بعد ثلاثة أيام ، فإذا احمرت دون تورم كان ذلك آية من الله على براءته ، أو غير ذلك من الوسائل التى اعتمدت على القضاء والقدر للوصول إلى الحق . اقتضى نظام المحلفين أن تبعث كل مدينة أربعة رجال من أبنائها وكل مئة Hundred مزرعة اثنى عشر رجلا للمثول أمام الشريف للتبليغ — بعد أداء

(١) راجع : راوس ص ٤٥ — فيشر ص ٢ ص ٢٩٥ — Painter, p. 251-292.
Girant, p. 363.

القسم — عمن ارتكب جريمة قتل أو سرقة فى دائرتهم . ثم يدعى المتهم فوراً أمام المحكمة الملكية بحضور المحلفين وتجرى عليه الاختبارات البدائية السابقة الذكر ، فإن دلت على براءته وأصر المحلفون على إدانته أخذ هنرى بوجهة نظر المحلفين وأمر بنفى المتهم (١) . وسرعان ما ألف الناس ذلك النظام واطمأنوا إلى عدالته مع قلة تكاليفه وحرصت محكمة الملك من ناحيتها على النظر فى معظم الأعمال القضائية فى البلاد وبذلك وضعت أسس القانون العام الانجليزى ، ولقد تطور نظام المحلفين من بعد الملك هنرى الثانى فصاعداً حتى صار فخر النظم الانجليزية، وإلى اليوم يأخذ القضاء الانجليزى بنظام المحلفين ، فيجلس اثنا عشر رجلا منهم فى منصتهم جنباً إلى جنب مع أعضاء المحكمة العادية . ويصدرون رأيهم فى القضية سراً قبل أن يعلن رئيس المحكمة حكمه فيها .

ويشترط اتفاق جميع المحلفين على إدانة المتهم أو براءته قبل هذا الإعلان وإذا كان الفارق بين نظام المحلفين اليوم وبين ما كان عليه أيام هنرى الثانى هو أن هنرى اعتبرهم شهود إثبات ضد المتهم أما اليوم فمهمتهم سماع أقوال الشهود والحكم بمقتضاها دل هذا على مبلغ ما وصل إليه القضاء من تقدم كبير وقتذاك (٢) .

وهكذا عبر القضاء عن سلطان الملكية وقوة القانون العام الذى قام مقام القوانين الإقليمية والتقاليد المحلية المتنوعة . والمقصود بالقانون العام مجموع القوانين السارية فى أنحاء البلاد على جميع الناس وهو ناشىء من مألوف العرف والعادة . وقائم على أركان مدنية بعيدة عن المؤثرات الدينية . وهو لذلك يختلف عن القوانين التشريعية والمراسيم المؤقتة والعادات المحلية ، كما يختلف عن القوانين الكنسية التى بنيت على أسس من القانون الرومانى . ويرجع أصل القانون الانجليزى العام English Common Law إلى أيام إثلبرت ملك كنت ، حين كان الفقه الرومانى

---

(١) Rayner : A short History of Britain, p. 88 - Painter, p. 263.

(٢) Woodward, p. 39 ; Trevelyan, p. 190. - فيشر ج ١ ص ١٦٣ — رواس ص ٤٢ .

يودع الوداع الأخير فى كتاب أصول القانون Institutes الذى أمر بتأليفه الإمبراطور جستنيان . ثم أضيفت إلى القانون الإنجليزى -- زمن ملوك وسكس — أضافات ماديه زادته حجما وسعة .

غير أن الصورة التى انتهى إليها ذلك القانون قبل الفتح النورمانى لإنجلترا جاءت على يد الملك كانوت ، حين رأى أن موضع الخلاف بين عادات الانجليز والدانيين عرضية طفيفة ، ومواضع الشبه بينهما جوهرية عميقة ، فلفظ قانون فى اللغة الانجليزى دانى الأصل ، وكذلك حب إقامة الدعاوى والتقاضى فى كل شىء وهوما امتاز به الخلق الانجليزى منذ كانت انجلترا ، ثم إن الدانيين والانجليز تعودوا القضاء العلنى فى المحاكمات ، وتشابهت وسائلهم فى معرفة البرىء من المجرم مثل امتحان المتهم بالنار أو بالماء الساخن أو باللقمة من الخبز أو بقطعة من الجبن أو بتأدية اليمين على من انكر ، مع تزكية العدول لليمين المودى ، كما تشابهت لديهم قوائم الديات والغرامات التى يدفعها أهل الجناة لأهل المجنى عليهم مرة واحدة أو مرات متعددة . وفضلا عن ذلك كله فإن نظام المحلفين الذى ابتدعه النورمان لا يعدم ما يشبهه لدى الانجليز الأولين من وسائل التحقيق فى القضايا والجنايات . وخلاصة القول أن القانون العام اختص بالقدرة على ملاءمة الظروف والحاجات الاجتماعية المختلفة وعدم التقيد بالقواعد العامة والآراء النظرية العريضة . وهذا هو سر قيام ذلك القانون بين جميع الشعوب الانجليزية حيثما وجدت ، وهو أيضاً سر اختلاف الانجليز عن سائر الشعوب الأوربية التى أخذت بالقانون الرومانى (١) .

ومن مآثر هنرى الثانى أيضاً قانون التوريث الذى حصر توريث الأرض فى الإبن الأكبر ، مما ألقى بسائر مادون الأكبر من أبناء البيوتات إلى معترك الحياة فى طلب العيش ، من طريق المغامرة أو المتاجرة أو الدخول فى سلك الكنيسة ، وهذا مما جعل المجتمع الإنجليزى دائم التطور نحو الحرية بالقياس لنظائره بأنحاء أوربا حيث استقرت الحياة الإجتماعية على أسس جامدة . ولم يكن الأصل هو الشكل فى الشكل بانجلترا فى يوم من الأيام ، بل ظل فى استطاعة الفرد

(١) رواس ص ٣٤ — فيشر ج ١ ص ١١٩ .

دائماً أن يشق لنفسه فى الحياة طريقاً بمواهبه . وصار حب الإستقلال هو الذى يحرك الإنجليزى ويدفعه إلى الهجرة والعمل فى جميع الأحوال ، على عكس النورمانى الذى من طبيعته الإتكال ، فلما وفد إلى انجلترا بعد الفتح قاسم الإنجليزى السكسونى أرضه واختص بخيراتها . ولم يطمئن إليها إطمئنان الإنجليزى السكسونى الذى استمر فى زراعتها لمنفعة سيده النورمانى وما النزاع القائم بين الفريقين بعد الفتح سوى نزاع بين جنسين مختلفين فى النشأة كل الاختلاف (١) والتاريخ الإنجليزى فى العصور الوسطى عامر بالأدلة على إعتماد الفرد على نفسه . مثل هيوبرت والتر Walter الذى جمع بين وظيفتى رئيس أساقفة كانتبرى وقاضى القضاة فى عهد الملك رتشارد قلب الأسد . ومثل ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتبرى أيضاً . وهو صاحب الفضل فى الحصول على العهد الأعظم فى عهد الملك حنا ، وكذلك غيرهما من رجال الدولة والكنيسة منذ أيامهما فصاعداً ممن لم يدينوا لمولدهم بشىء البته ، بل يرجع الفضل فى عظمتهم إلى مقدرتهم الشخصية دون أى شىء آخر .

وكانت التجارة من الأمور التى ساعدت على التطور نحو الحرية فى المجتمع الإنجليزى . لأن التجار لم يكونوا بمعزل عن الطبقات الإقطاعية الكبرى بل اختلطوا منذ أوائل العصور الوسطى بأصحاب الأراضى والأطيان عن طريق الزواج والمصاهرة والأصفار ، وقد أدى ذلك كله إلى كثير من المرونة بين طبقات المجتمع الإنجليزى . كما أدى إلى قوة الروابط الإجتماعية بين تلك الطبقات كاتصال صغار الأعيان من أهل الإقطاع بأعيان المدن ، ولا سيما مدينة لندن التى بدأ مركزها فى تجارة البلاد فى تلك العصور الوسطى أعظم بكثير من مركزها التجارى فى العصر الحاضر ، وحياتها مرآة لأنواع الحياة بأنحاء البلاد . وزاد من أهميتها أن هنرى الثانى جعل ويستمنستر مكان قضاته الدائم وصارت لندن بالتالى عاصمة لمملكته ولا تزال إلى الآن . فاتسعت دائرة تجارتها حتى اتصلت بالمشرق عن طريق الصليبيين والواقع أن أهمية لندن الإدارية ترجع إلى العهد النورمانى ، لأن

---

(١) سر تقدم الانكليز ص ١٦٨ ، ١٨١٧ .

انجلترا لم تكن لها عاصمة ثابتة قبل الفتح . وإنما كانت عاصمتها تتنقل من مكان إلى آخر حيث تكون الملك وحيث يعقد جلسات مجلسه الأعظم . فلما جذب موقع لندن الفريد أنظار ملوك النورمان استقرت بها الأداة الحكومية ، وأعطاها نهر التيمز مركزاً تجارياً مع مدن القارة فى فرنسا والأراضى الواطئة والمانيا بنوع خاص وما عداها ، ولم يكن بانجلترا من المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان سوى يورك ونورويك ولنكولن .

وحافظت المدن الانجلوسكسونية والانجلونورمانية على صلتهم بالزراعة . وقد بنيت عدة مدن صغيرة بعد الفتح وغلبت عليها الصفة الدفاعية ، غير أن أحياء منها خصصت لسكنى التجار ومنحت امتيازات خاصة مقابل دفعها رسوماً مالية ثابتة عن عملية البيع والشراء (١) . مما ساعد على نمو الحركة التجارية بين تلك المدن الجديدة الناشئة وبين مدينة لندن ذات الأهمية السياسية والإدارية والتجارية ، وأصبحت الصلة الناشئة بين أصحاب الأراضى وبين أعيان المدن هى العمود الفقرى فى تاريخ الدستور الانجليزى ، وقد نمت هذه الصلة حتى غدت قاعدة الحكم فى البلاد ، ولعلها هى سر فقدان روح الثورة بمدن إنجلترا فى العصور الوسطى بعكس ما كانت عليه بمختلف القومونات Communes بأنحاء القارة الأوربية حتى إذا دب دبيب الثورة فعلا كان مصدره البارونات فى أكثر الأحيان أو طبقة الفلاحين فى بعض الأحيان (٢) .

ومما يستوجب الالتفات فى سياسة هنرى الثانى الداخلية أنها اصطدمت اصطداماً عنيفاً مع الكنيسة ، لأنها كانت الهيئة الوحيدة دون غيرها من الهيآت العامة التى انفردت بالوقوف فى وجهه وناقشته الحساب فى أعماله ، حين عمد إلى الحد مما تمتعت به من حصانة قانونية (Benefit of Clergy) كى يجعلها خاضعة لسلطة المحاكم الملكية . وصاحب هذا المشروع فى الواقع هو هنرى الأول الذى لاحظ أن تطبيق القانون الكنسى على المتهمين من رجال الدين أخف وطأة

---

(١) Woodward, p. 43.

(٢) راوس ص٤٧ .

من القانون العادى ، مما جعل الناس تفضل الفصل فى قضاياهم المدنية أمام المحاكم الكنسية ، حيث يمكنهم استئناف أحكامها أمام المحكمة البابوية فى روما ، وأصبح من حق البابا عن طريق هذا الاستئناف أن يتدخل فى سلطة القضاء الإنجليزى .

وهناك الآلاف من رجال الدين وأتباعهم فى إنجلترا ، يرتكب الواحد منهم الجرائم ولاينال حكما رادعاً من المحاكم الكنسية . غير أن هنرى الأول فشل فى مشروع إصلاح المحاكم الكنسية . فلما أتيحت الفرصة لهنرى الثانى حين خلت وظيفة كبير الأساقفة فى كانتبرى ، فعين لها صديقه ومستشاره توماس بكيت Thomas Becket اعتقاداً منه أن هذا الصديق سيعضده فى توحيد نظام القضاء فى البلاد . وسرعان ما استبدل بكيت جماعة من الرهبان بحاشية من الفرسان واستبدل بحياة التبذير والإسراف حياة التقشف والاقتصاد ، واتشح بوشاح رجال الدين ، واستنمر على سيده هنرى الثانى حين أصدر الأخير سنة ١١٦٤ قانوناً باصلاح الكنيسة عرف باسم Constitutions of Clarendom ويحتوى على ستة عشر مادة ، تنص الثالثة منها والأهم على أنه إذا أدانت محكمة من المحاكم الكنسية متهماً من رجال الدين بالاجرام ، فيجب تجريده من حقوقه وصفاته الدينية وتسليمه للسلطات المدنية لتوقيع العقوبة اللازمة من محكمة القضاء العادى ، ونصت كذلك على أن استئناف القضايا إلى روما لايكون إلا بعد الحصول على موافقة الملك الشخصية .

فعارض بيكيت اللائحة واحتكم الملك إلى مجلس عام ، دافع بيكت أمامه عن وجهة نظره فى القانون الصادر ضد الكنيسة ، غير أن المجلس أخذ بوجهة نظر هنرى الثانى بطبيعة الحال ، وآثر بيكت الفرار إلى أوربا والاستنجاد بالبابا اسكندر الثالث فشفع له عند هنرى الثانى ، وعاد بيكت إلى انجلترا فوجد أملاك أسقفيته مصادرة بأمر من هنرى ، فأصدر بيكت حرما على كل من تملك قطعة أرض منها ، وأبعد عن الكنيسة كل من تعاون من رجال الدين مع هنرى الثانى وعلم هنرى الثانى بهذا كله وهو فى نورماندیا فاستشاط غيظاً وصاح فى من حوله قائلا « ألا يوجد بين الذين يأكلون زادى من يكفينى مؤونة هذا الأسقف

العاصى (١) فنهض أربعة من الفرسان الذين سمعوه وأقسموا على قتل بيكت شر قتلة على مقربة من درج المذبح بكتدرائية كانتبرى ، واستعظم الشعب الحادث وأقام ضريحاً لبكيت وجعله فى مصاف القديسين . واتهم الناس هنرى الثانى إنه هو الذى دبر مقتل بكيت ، ومهما كان من شىء فإن هنرى الثانى قد ندم على ما أقدم عليه من غلطة لاتغتفر ، فأراد أن يكفر عنها بزيارة قبر الشهيد القديس بكيت ، ساعياً إليه على قدميه وألقى بنفسه على مزاره ، تائباً إلى الله . ثم أمر أن يجلد الضريح بجلد من القارع المعقدة(٢) .

وغدت انجلترا من جراء تلك المحاولة الاصلاحية للكنيسة كبقية أوربا ، وظلت الكنيسة الانجليزية متمتعة بحصانتها الدينية ثلاثة قرون ، حتى جاء هنرى آخر وهو هنرى الثامن ( ١٥٠٩ - ١٥٤٧ ) فدمر تلك الحصانة تدميراً لانظير له فى أى بلد من البلاد ، بحيث صارت الكنيسة الانجليزية طوع سلطان الدولة ، ومع هذا الاخفاق الذى لازم هنرى الثانى فى سياسته الدينية فإن عهده والقرن الثانى عشر الميلادى كله يعتبر عهد التقدم العظيم والتوسع الشامل فى الكنيسة الإنجليزية إذ سرى بالبلاد اهتمام ببناء الكنائس ، وتأسست كثرة من الأديرة ، ومرجع الفضل فى ذلك إلى تلك الحركة الديرية السسترشيانيه The Cistercian Mouvement نسبة إلى بلدة سيتو Citaux بأواسط فرنسا الحالية ، إذ امتدت تلك الحركة إلى انجلترا وأحدثت بها نهضة ديرية كبرى ، ثم أحدثت مالا يقل عن ذلك أهمية حين أخذ الديريون الجدد يعملون فى قفار الشمال ليجعلوا لأنفسهم منها أرضاً صالحة للزراعة مرة أخرى . والواقع أن أهم ما تم فى ذلك العهد من أعمال عظمى هو ذلك الاستعمار الداخلى فى طول البلاد وعرضها ، فضلا عن امتداد الزراعة إلى مختلف النواحى سنة بعد سنة(٣) .

ومما ينبغى الإشارة إليه فى إصلاحات هنرى الثانى الداخلية ما أدخله من تعديلات فى نظام الجيش ، إذ المعروف أن وليم الفاتح وضع قواعد السياسة

---

(١) Ellis & Fisher V 2, p. 32.

(٢) Rayner, p. 87 - Grant p. 367.

(٣) راوس ص ٤٤ ؛ زيدان ص ٤٠ ؛ Trevelyan p. 153

الدفاعية على أسس إقطاعية تفرض على الأمراء ورجال الدين تقديم عدد معين من الفرسان حزرته المراجع بخمسة آلاف فارس ، يضعون أنفسهم تحت تصرف الملك لمدة أقصاها أربعين يوماً فى السنة ، استطاع وليم بفضل هذا العدد من المحاربين أن يصد غزوات الدانيين والفيكنج وأهل اسكتلندا وويلز ويخمد ثورات السكسونيين . وجاء هنرى الأول واستبدل بهذا النظام ضريبة مالية قررها على الأمراء عرفت بضريبة البدل Scutage or shield - money مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية ومكنته حصيلة هذه الضريبة من إنشاء جيش ملكى مأجور ثابت يدين له بالولاء والطاعة ، فضلا عن أن الضريبة أضعفت البارونات مالياً وأعجزتهم عن الاحتفاظ بقوات محاربة لحسابهم الخاص رأى هنرى الثانى أن الأوضاع السياسية والإجتماعية تغيرت عما كانت عليه زمن وليم الفاتح نتيجة اختلاط النورمان بالسكسون ، ولم تعد هناك ثورات سكسونية وغزوات خارجية ، بل هناك حروب طاحنة فى القارة بين انجلترا وفرنسا تتطلب وجود جيش دائم فى نورمانديا بدلا من نقل قوات من انجلترا عبر القناة ولمدة معينة من السنة ، فضلا عن صعوبة تموينهم وتسليحهم ونقلهم لذلك قرر هنرى الثانى الأخذ بطريقة هنرى الأول فى الدفاع وأدخل عليها كثيراً من القيود والمواد التى مكنته من إيجاد جيش قوى يعتمد عليه فى حروبه ، بدلا من مساهمة البارونات وجال الدين فى الدفاع عن البلاد . وأصدر هنرى الثانى سنة ١١٨١ قانونا خاصاً بحمل السلاح The Assize of Arms أباح به للرجال الأحرار من جميع الطبقات إحراز السلاح وحمله للدفاع عن البلاد ضد أى خطر خارجى أو داخلى . وأمر نوابه فى كل مقاطعة بجمع أولئك المسلحين (١) فى عاصمة الإقليم ثلاث مرات أو أربع سنوياً لتدريبهم وإعدادهم إعداداً عسكريا ليكونوا على أهبة الاستعداد إذا ما دعاهم داعى الملك (٢) .

وبفضل هذا الجيش الذى كونه هنرى الثانى سيطر على البارونات سيطرة تامة فى الداخل ، وسار قدماً فى بناء امبراطوريته العظيمة القوية التى امتدت حدودها من

---

(١) يشبههم اليوم فرق الجيش المرابط أو الحرس الوطنى أو المليشيا .

(٢) Painter pp. 170-179-261, Trevelyan, p. 144, Grant, p. 364.

جبال البرانس جنوب فرنسا إلى جبال الشفيوت بالأطراف الشمالية باسكتلندا ، وشملت جويين وأوفرن وإقطانيا ( أكويتين ) عن زوجته اليانوره مطلقة لويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٥٣ ، وعلى مقتضى القوانين الإقطاعية السائدة فى تلك العصور انتقلت مساحة تلك الأراضى من حوزة الزوج الأول إلى يد الزوج الثانى ، ثم شملت أيضاً أنجو ومين ودوقية نورماندیا ومملكة انجلترا بالوراثة عن أبيه سنة ١١٥٤ . وبذلك أصبحت أراضى ملك انجلترا فى فرنسا تفوق فى مساحتها وثروتها الأراضى التى فى حوزة ملك فرنسا ، على الرغم من اعتبار ملك انجلترا أحد الإقطاعيين التابعين لملك فرنسا والذين يدينون له بالولاء والطاعة ، وضرب لويس السابع ملك فرنسا لتلك الحال مثلا حين قال مخاطباً والترماب walter map فى وصف هنرى الثانى بلانتاجنت « أن مولاك الملك لا يعوزه شىء البتة ، فعنده الرجال والمال والخيل والحرير والماس ، وطيور الصيد وأنواع الفاكهة ، وكل ذلك فى وفرة وكثرة . أما نحن فى فرنسا فليس لدينا سوى الخبز والنبيذ والمرح » (١) .

وبسبب هذه الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا قامت روح المنافسة بين الدولتين ، حتى أنشبت بينهما حرباً متقطعة المراحل وهى حرب المائة سنة على النحو الذى سوف يأتى فيما بعد . وبسبب هذه الممتلكات أيضاً تحملت انجلترا أعباء سياسية وحربية وإدارية لاحد لها ، وصرفت كثيراً ملوك انجلترا عن التفكير فى شئون انجلترا الداخلية أو فى فتح إيرلندا وبلاد الغال واسكتلندا باستثناء هنرى الثانى بطبيعة الحالة ، الذى بلغت الدولة فى عهده من النضج والقوة ما جعلها قادرة على أن تؤثر فيما حولها من البلاد ، وأن تغير سياستها الخارجية من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم والتوسع . ففى الشمال على حدود اسكتلندا اشتركت جيوش هنرى الثانى فى معركة حامية عند الأنويك Alnwick سنة ١١٧٤ مع جيوش وليم الأسد ملك اسكتلندا ، وأحرزت انتصاراً كبيراً وأسر وليم الأسد وعلم هنرى الثانى بهذا الخبر فى اليوم التالى لزيارته قبر القديس بيكت وحسب ذلك مكافأة من الله

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٢٨٦

لما أتاه من الـكفارة عن ذنبه فى قتل القديس توماس بكيت وعلامة من الله على قبوله التوبة . ونقل الملك المأسور إلى فرنسا ولم يفرج عنه إلا بعد الاعتراف بولائه وتبعيته لهنرى الثانى وتنازله عن أكثر من ست قلاع اسكتلندية من بينها أدنبره ، أنزلت بها جيوش هنرى الثانى .

أما بلاد الغال فاقتصر الأمر فيها على ما قام به بعض أمراء الملك من أصحاب إقطاعات الأطراف Marcher lords فى محاولات للتوغل فى تلك البلاد ، مما أدى إلى اصطدام أولئك السادة الإقطاعيين بأمراء الغال ، وتولد عن ذلك الاصطدام حركة وطنية غرضها توحيد الغال تحت زعامة لويلين العظيم Iewelyn the great وظلت هذه حال ويلز حتى أخضعها الملك أدوارد الأول لحـكمه بعد سلسلة من الحملات الحربية .

وشهد عصر هنرى الثانى بداية الصراع بين انجلترا وإيرلندا وهى الجزيرة التى نجت من غزوات الدانيين فنعمت بالسلم قروناً عديدة . ساعدت على قيام حضارة زاهية خاصة بها . وعلى نشر الدين المسيحى هناك وخرج من جوفها أكثر من بعثة تبشيرية إلى اسكتلندا وغيرها من الجزائر الشمالية الغربية . ثم حدث فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى أن قامت حروب أهلية بايرلندا مزقت وحدتها السياسية . وفر بسببها درموت Dermot ملك مقاطعة لنستر Leinster إلى جنوب ويلز طالباً النجدة من الأرل النورمانى المعروف باسم سترنجبو Strongbow أى صاحب القوس المنيع فلبى البارون الدعوة بعد أن أذن له بها ملـكه هنرى الثانى . وقاد سترنجبو جيشاً من المتطوعين المغامرين وعبر به البحر الايرلندى ونزل فى ميناء ووترفورد . وهناك أحرز عدة انتصارات على الأمراء المحليين وتقدم نحو دبلن فاحتلها ولحق به الملك هنرى الثانى سنة ١١٧٤ . غير أنه تقدم ببطء لشدة مقاومة الإيرلنديين رغم تفكـكهم السياسى . ولذا اكتفى هنرى بلقب سيد إيرلندا والاعتراف بسلطته الاسمية على الأجزاء الجنوبية الشرقية من الجزيرة . وكون مقاطعة انجليزية حول مدينة دبلن وأمر عليها قائده صاحب القوس المنيع ليضع قواعد السيادة الانجليزية النورمانية فى الجزيرة . ولم تنضم إيرلندا نهائياً إلى التاج البريطانى إلا فى القرن السابع عشر على يد كرومويل(١) .

(١) راجع : Grant, p. 367. ؛ Rayner, p. 91 راوس ص ٥١

ولما مات هنرى الثانى سنة ١١٨٩ م حفظ الإنجليز عنه أربعة دروس عظيمة : إذ تعلموا دفع الضرائب ، وهو درس لم تستطع الملكية الفرنسية تلقينه للشعب الفرنسى ، ولم يفهمه الفرنسيون تمام الفهم حتى العصر الحاضر . وتعلم الإنجليز كذلك أن الإجرام جناية ضد الدولة تفصل فيه محكمة الملك . أما الدرس الثالث الذى تعلمه الإنجليز وقتذاك فهو وجود قانون واحد يسرى على جميع البلاد وتقوم محكمة الملك على تطبيقه عن طريق قضاتها المتنقلين وأما الدرس الرابع فهو ضرورة التعاون فى شئون الحكم بتأدية المقطعين ما عليهم من خدمة عسكرية فى الحروب أو تضامن المواطنين عامة فى القبض على الفارين من وجه العدالة وقيام المحلفين بتقدير الضرائب ، وتجريم المجرمين أو تبرئة البريئين أمام الدوائر الجنائية ، فضلا عن الفصل فى القضايا المدنية فى المحاكم المركزية(١) .

وظلت هذه النظم قائمة على مر الأجيال فلم تتعرض لها الأيدى بسوء فى عهد خليفته وولده رتشارد قلب الأسد ( ١١٨٩ — ١١٩٩ م ) رغم غيبته عن مملكته عدة سنوات . ويرجع الفضل فى ذلك إلى صديقه هيوبرت والتر Walter رئيس الأساقفة وقاضى القضاة ورئيس المجلس الأعظم الذى أدار عجلة الحكم فى انجلترا داخلياً وخارجياً على ضوء القواعد العامة التى تركها هنرى الثانى ، ولولا حكمة هيوبرت واستمرار العمل بنظم هنرى الثانى لما احتفظت المملكة بوحدتها فى عهد رتشارد . أعطى هيوبرت أفراد الطبقة الوسطى من سكان المدن والريف حقوقاً وامتيازات جديدة ، ضاعفت من قوتهم وآذنت بتغيير كبير فى نظم الحكم البرلمانية فيما بعد ، بل أكثر من ذلك منح هيوبرت المدن الكبيرة حق حكم نفسها بنفسها مقابل دفع مبلغ من المال ، وبمقتضى هذا الحق انتخبت مدينة لندن لأول مرة عمدتها سنة ١١٩١ . لم تتوفر فى شخصية رتشارد صفات الملوك ولم ير انجلترا طول مدة حكمه البالغة عشر سنوات سوى مرتين حين زارها لجمع المال والجند لإشباع هوايته فى الحروب التى شنها ، ولم يمكث فيها خلال هاتين المرتين أكثر من بضعة أشهر ولذا عرف بالملك الغائب . حارب أباه وأخويه هنرى وجون ، وانضم رتشارد إلى مطلق أمه

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٢٨٤

وعدو أبيه لويس السابع ملك فرنسا ، وكان رتشارد على استعداد أن يبيع مدينة لندن لو وجد لها مشترٍ على قوله[١] .

ومن أجل الحصول على المال باع وظائف الدولة ورتبها وأملاكها فى نورثمبرلند واسكتلندا . كان على وفاق مع رجال الكنيسة لتلبية دعوتهم فى الإشتراك فى الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ( ١١٨٩ — ١١٩٢ ) كما كان على وفاق مع البارونات لميلهم الشخصى إليه ولخوفهم من بطشه . قرب الشعراء وأغدق عليهم العطاء لميله إلى الشعر ونسج شعراً متداولا ، ومن شعرائه المقربين الشاعر أمبروز[٢] الذى صحبه معه فى حملته الصليبية إلى الشرق وسجل أخبارها فى شعره .

أما عن أخبار رتشارد فى الشرق فقد صال وجال ، وأظهر فروسية نادرة وشجاعة فريدة ، كما أظهر الخسة والقحة فى نقض العهود وانتهاك أبسط مبادىء الإنسانية والعدالة ، وآية ذلك أنه انتزع جزيرة قبرص من حاكمها البيزنطى ثم نزل مع ملوك الحملة الثالثة على أرض فلسطين لمحاصرة مدينة عكا ، ونجحوا فى الإستيلاء عليها بعد حصار دام أكثر من عامين فاستسلمت حاميتها الإسلامية وسلمت أفرادها له كأسرى حرب ، وعددهم ثلاثة آلاف فغدر بهم فى وضح النهار وأمر بقتلهم وكانت أفظع مجزرة بشرية فى التاريخ[٣] ولم يعامل صلاح الدين أسرى الصليبيين بنفس المعاملة التى عامل بها رتشارد أسرى المسلمين ، بل حافظ على أرواحهم وأشرف بنفسه على راحتهم . وعجز رتشارد بعد تلك الفضيحة عن الاستيلاء على بيت المقدس[٤] فعاد خائباً إلى أوربا ووقع أسيراً عند عودته فى يد ليوبولد دوق النمسا ، فسلمه إلى الامبراطور هنرى السادس ملك ألمانيا فألقى به فى السجن حتى جمعت له حكومته فدية كبيرة لإطلاق سراحه . وما كاد ينعم بحريته حتى خاض حرباً

---

(١) Ellis v. 2, p. 33.

(٢) راجع ما كتب عن هذا الشاعر المؤرخ فى كتاب ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية للمؤلف ص ١٩ وما بعدها وكذلك كتاب ( المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ) .

(٣) راجع جيش مصر أيام صلاح الدين للمؤلف ص ٨٣ - ٨٤

(٤) أنظر التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين للمؤلف ص ٢٨١ وما بعدها .

ضد ملك فرنسا من ناحية وأخيه حنا من ناحية أخرى ولقى حتفه سنة ١١٩٩ وهو على حصار حصن شاتوس Chatus بنورمانديا حيث دفن (١). ولا شك أن حملة رتشارد إلى الشرق أتاحت للإنجليز فرصة الاتصال بالحضارة العربية الإسلامية فى مختلف ميادينها ؛ فلما عادوا إلى بلادهم حملوا معهم ألواناً جديدة من الثقافة والمعرفة ، مما كان له أبعد الأثر فى قيام نهضتهم العلمية بنوع خاص(٢) .

وخلف رتشارد على العرش أخوه حنا ( ١١٩٩ - ١٢١٦ ) ونازعه فيه ابن عمه الأمير أرثر وهو صبى فى الثانية عشر من عمره وأيده فى هذا النزاع بارونات نورمنديا وأنجو وأكويتين وفليب ( أغسطس ) ملك فرنسا ، الذى قرر ألا يدع مشكلة الخلاف على العرش الإنجليزى تمر دون أن يستغلها فى طرد الإنجليز من فرنسا وتوسيع مملكته على حسابهم وحساب غيرهم من جيرانه ، ولذلك دخل حنا فى حروب طويلة بعضها فى الجزر البريطانية والبعض الآخر فى القارة وأحرز النصر فى الأولى على الأسكتلنديين والايرلنديين وأهل ويلز وأسر إرثر . أما معاركه فى القارة فأضاع بسببها كل ماورثه عن أبيه هنرى الثانى فاستولى فليب اغسطس على نورمانديا وانجو ومين وتورين بالحرب ، واستطاع أن يختم ذلك كله بهزيمة جيش حنا ومن معه من حلفائه الألمازين فى وقعة بوفين الشهيرة Bauvines ٢٧ يوليو ١٢١٤ قرب مدينة ليل ، وصحت القصة التى ذاعت بين الناس وتتداولها وهى أن توماس بكيت ظهر لأحد رجال الدين فى المنام وقال له إنه اختار الأمبراطور فليب الثانى ملك ألمانيا لينتقم لمصرعه من هنرى بلانتاجنت(٣) . وانتصار فرنسا على انجلترا والمانيا فى وقعة بوفين أفاد التقدم الدستورى فى انجلترا ، حيث أفسد على الملك حنا مشروعه لاسترداد ممتلكاته الفرنسية الضائعة(٤) .

كانت هذه الهزيمة العسكرية وحدها كفيلة بزعزعة أركان عرش حنا ، لأنها

---

(١) Painter, p. 266 — Rayner, p. 92 — Grant, p. 370.

(٢) راجع التاريخ الحربى المصرى للمؤلف ص ٢٦١ وما بعدها عن تلاقى الحضارتين الإسلامية والمسيحية حول أسوار مدينة عكا .

(٣) فيشر ج ٢ ص ٢٨٧

(٤) فيشر ج ١ ص ٢٤٩

دلت على فقدانه لأبرز صفات الملك فى العصور الوسطى وهى شهرته كمحارب ماهر ، كما دلت على سوء تصرفه فى شئون السياسة والحرب معاً . إذ أنه حاول أن يكره طبقات الشعب على مشاركته فى إعداد قوة حربية جديدة لاسترداد ما فقده من أملاك التاج فى فرنسا وشجعه على هذه المحاولة ما لاحظه من نمو مضطرد فى المدن الانجليزية على عهده ، كنتيجة طبيعية لنشاط الحركة التجارية وزيادة الأنتاج الزراعى وثراء تجار المدن وأفراد الطبقة الإقطاعية الذين استثمروا دخلهم من الزراعة فى التجارة . هذا على حين نما دخل التاج نمواً بطيئاً إن لم يكن ثابتاً ، فقرر حنا عزل نواب الملك فى الاقاليم واستبدل بهم موظفين مأجورين يحصلون الأموال والأتاوات الاقطاعية لحساب الخزانة الملكية لتدعيم قوتها وزيادة دخلها على حساب البارونات ، فثاروا وتربصوا له وزاد من ثورتهم انعدام الثقة بينهم وبين الملك لعدم توفر صفة أخرى من صفات الملك فى العصور الوسطى وهى صفة المقدرة على العفو والتسامح ، وحين اتجه حنا إلى رجال الدين يطلب العون منهم عارضوه بشدة لاسيما بعد ان وقع الخلاف معهم حول تعيين رئيس أساقفة كانتبرى سنة ١١٠٥ فاختاروا واحدا منهم واختار هو أحد أعوانه ، ولما عرض الأمر على البابا انوسنت الثالث رفض الاثنين ، وعين ستيفن لانجتون الاستاذ السابق لعلم اللاهوت بجامعة باريس وأحد كبار الكراد له فى البلاط البابوى فهو عليم بأمور الدين والقانون الكنسى وأعمال بطرس اللمباردى وجرتيان وتشريعاتها الكنسية ، غير أن حنا رفض الموافقة على هذا التعيين ومنع لانجتون من دخول انجلترا ونفاه سبع سنوات ، وطرد أهله وعشيرته من البلاد وصادر أملاكهم والرهبان ، ورد البابا على هذا باعلان الحرمان البابوى على المملكة الانجليزية وشعبها وانضم إلى جانب ملك فرنسا فى حربه مع انجلترا . ودامت الخصومة إلى سنة ١٢١٣ حين اضطر حنا إلى طلب التوبة من البابا ووافق على تعيين لانجتون وأقسم على الولاء والاخلاص والتبعية للبابا مع التعهد بدفع إعانة مالية سنوية .

كيفما كان الأمر ، فان طبقات الشعب من بارونات ورجال الدين وأهل المدن اتفقت كلمتهم فى خريف سنة ١٢١٤ أى بعد هزيمة حنا فى القارة على المطالبة بتنظيم ما لهم وما عليهم قبله وضرورة وضع قانون يخضع له العلمانيون كما يخضع

الإكليركيون للقانون الـكنسى ، وفى ربيع سنة ١٢١٥ رفعت الثورة عقيرتها ضد حنا واحتل الثوار مدينة لندن وتقابل معهم الملك حنا فى مراعى نهر التيمز فى مـكان إسمه Runnymede رنميد بالقرب من وندسور حيث أجبروه على قبول شروطهم والتوقيع على العهد الأعظم magna Carta يوم ١٥ يونيو سنة ١٢١٥ وتتـكون الماجنا كارتا من ٦٣ مادة ، تنقسم من الناحية الموضوعية إلى مجموعات أربع : الأولى وتتـكون من مادة واحدة ، حددت العلاقات بين الـكنيسة والدولة ، وفيها أقر حنا لرجال الدين امتيازاتهم كاملة . وتناولت المجموعة الثانية وتتكون من خمسة عشر فصلا — العلاقات الإقطاعية بين الملك وأتباعه ، فشرحت مالهم من حقوق وما عليهم من التزامات . وبحثت المجموعة الثالثة — وتتكون من خمسة وثلاثين فصلا — الإجراءات الحـكومية الملـكية التى تتبع فى حالة الفصل فى القضايا المدنية بين الملك ورعاياه . وأقرت المجموعة الرابعة حقوق البارونات كاملة ، وأشارت إلى تعيين لجنة من خمس وعشرين باروناً لمراقبة تنفيذ مواد الوثيقة ، ونسخت الماجنا كارتا باللاتينية وبدأت بالعبارة التالية « بسم الله . من حنا ملك انجلترا وسيد ايرلندا ودوق نورمنديا وأ كويتين وكونت أنجو إلى رؤساء الأساقفة والقسس والرهبان والإيرلات والبارونات ورجال القضاء وحراس الغابات والأشراف ونظار الزراعة والخدم وإلى جميع نوابه ورجاله الملـكيين يبعث تحياته . . » (١) ويلى ذلك الأسباب التى أدت إلى تحرير الوثيقة ثم أسماء كبار الأساقفة والنبلاء ومن يهمه الأمر ، وإليك — على سبيل المثال — أهم ما جاء فى بعض نصوص العهد الأعظم :

١ — نصت المـادة ١٢ منه على « الا يجمع الملك إعانات أو بدل خدمات حربية — بالاضافة إلى الأموال الاقطاعية المقررة — إلا بموافقة المجلس العام المـكون من كبار رجال الدين والبارونات وكبار الاقطاعيين » وهذا المجلس هو الذى كان أسلافه يدعونه للانعقاد وهو الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم البرلمان .

٢ — ورد فى المادة ٣٩ « أن الرجل الحر لا يقبض عليه ولا يجرد من

---

(١) Ellis, v. II, p. 41. النسخة الأصلى للماجنا كارتا بالمتحف البريطانى بلندن .

ممتلكاته ولا يهدر دمه ولا ينفى ولا يؤذى ، إلا بناء على حكم صادر من أسويائه على مقتضى قوانين البلاد » فهى تدل على ضمانات الحرية الفردية وعلى استخدام نظام المحلفين فى القضاء . وصارت هذه المادة فيما بعد أساس حرية الفرد فى المجتمع الانجلو أمريكى ، ويمكن القول إن حوالى نصف سكان انجلترا تحرر فى سنة ١٢١٥ وفق هذه المادة (١) .

٣ — ونصت المادة الحادية والستين على تعيين خمسة وعشرين منهم لمراقبة تنفيذ الشروط التى تعهد الملك بمراعاتها وإلزامه بتلك الشروط ولو انتهى الأمر إلى استخدام القوة ضده ، ومن هذه المادة الطويلة التى أختتم بها هذا العهد الأعظم ما نصه على لسان الملك « وإذا لم نقم بتصحيح ما عساه يقع من مخالفة ، أو إذا لم يقم قاضى القضاة فى حالة غيابنا خارج المملكة .. فمن حق البارونات الخمسة والعشرين أو جميع الناس بالمملكة كذلك ، أن يحجروا وأن يضيقوا علينا بكل الوسائل الممكنة ، وذلك بمصادرة جميع قصورنا وأراضينا وسائر ممتلكاتنا ، حتى يتم تصحيح ما وقع من مخالفة تصحيحاً يرضى عنه البارونات ولا يدخل فى ذلك إلحاق الأذى بشخصنا أو بشخص المملكة أو أولادنا (٢) .

وتنحصر الأهمية التاريخية للعهد الأعظم فى أنه ، أول إحتجاج قومى فى التاريخ الإنجليزى ضد حكومة فاسدة ، وأنه بمقتضى هذه الوثيقة الإقطاعية أصبح ملوك إنجلترا لأول مرة فى تاريخهم ملوكا مقيدين Limited monarchs ، تحددت على الأقل سلطتهم بالنسبة للأشراف ورجال الدين . على أن الحرية التى أشارت إليها الوثيقة لم تكن على معناها فى العصر الحاضر ، بل كانت الحرية التى قاموا لحمايتها هى حرية الإمتيازات الإقطاعية والكنيسة والبلدية ، ولم تقرر كل الحقوق للفرد ما لم يعرف إلا فى القرن التاسع عشر . وملاحظة أخرى على الماجنا كارتا هى أنها أجازت للملك حق الحصول على إعانة مالية — دون موافقة مجلس البارونات — فى حالات ثلاث هى : حفلة اعتماد فروسية الأبن الأكبر ، وحفلة

---

(١) Painter p. 269.

(٢) فيشر ج ٢ ص ٢٩٧

زواج كبرى بنات الملك ، وافتداء الملك فى حالة أسره . وزاول خلفاء حنا هذا الحق وصار قاعدة دستورية فيما بعد ، حين أعطى البرلمان حق الإشراف على الميزانية وتقرير الضرائب (١) . وأهمية أخرى فى الوثيقة هى أن إطاعة الدستور الإنجليزى على الصورة التى تمخض عنها العهد الأعظم ظلت ماثلة فى العقل الإنجليزى جيلا بعد جيل .

وقبل أن يجف المداد الذى كتبت به الماجنا كارتا نقض الملك حنا شروطها وتنكر لمبادئها ، واستبد بالبارونات فهرب أغلبهم إلى فرنسا لدعوة ملكها إلى تقبل التاج الإنجليزى ، فلبى الدعوه وقاد جيوشه إلى انجلترا حيث نشبت حرب أهلية مهلكة مات خلالها حنا سنة ١٢١٦ م ونصب البارونات من حزبه أبنه هنرى الثالث والبسوه التاج : وفى السنوات العشر الأولى من حكمه وهى سنوات الوصاية عليه قبل بلوغه سن الرشد ، تناول أوصياؤه وليم مارشال وهيوبرت دى برى Hubert Burgh الماجنا كارتا بالتنقيح والتعديل ثلاث مرات . وحكم الأوصياء البلاد حكماً رشيداً ، وحموها من التدخل الفرنسى والبابوى بطرد الجيوش الفرنسية من لندن وضواحيها والأجزاء الجنوبية ، وأعاد الأوصياء القلاع التى فقدتها المكليه فى أيام الحرب الأهلية إلى سيادة الدولة ، وهدموا ما لم يرد إليها ونمت سلطة المجلس الأعظم فى عهدهما نمواً كبيرا .

ولم يكد الملك هنرى الثالث ( ١٢١٦ — ١٢٧٢ م ) يتقلد أزمه الحكم حتى دل على جهل كبير بمواد العهد الأعظم فنقضها وثبتها كارها أكثر من مرة ، ومهد السبيل إلى الخطوة الثانية نحو التوسع فى أسس الحكم بالبلاد لأن الشعب كره سياسته الخارجية الفاشلة ونقضه المتواصل للوعود . فلما كانت البابوية فى صراع مع فردريك الثانى أمبراطور ألمانيا وعدت هنرى الثالث بتتويج أبنه الصغير أدموند ملكا على جزيرة صقلية التابعة لألمانيا ، وأخيه رتشارد أمبراطوراً على ألمانيا مقابل مساعدة هنرى الثالث للبابوية فى هذا الصراع ، وفى تحقيق مآربها السياسية والدينية فى أوربا وانجلترا ، ودأب هنرى الثالث على تحقيق تلك السياسة

(١) Painter, p. 268.

بكل الوسائل لحشد البلاط الملكى بالأجانب الخاطرين من أبناء سافوا بإيطاليا وبواتوا بفرنسا ، ممن يتمتعون بسمعة سيئة وأغدق عليهم الأموال فى غير حساب .
وتحت تأثير هؤلاء الأجانب عمل الملك على استنزاف أموال رجال الدين ومطالبة الإقطاعيين أكثر مما عليهم من واجبات نحو الملكية ، فثارت عليه الطبقتان بزعامة سيمون دى منتفورت Simon de Montfort إيرل ليستر LeiCester وهو الأجنبى الفرنسى أحد أصدقاء هنرى الثالث الأجانب والمتزوج من أخته ، وصاحب المثل الإصلاحية فى الحكومة والكنيسة معاً . يدل عليهما حركة الرهبان Friars التى عاصرته وأثرت فى إنجلترا تأثيراً لا ينكر ، أجبر الثائرون الملك على دعوة المجلس الأعظم إلى اجتماع عاجل فى اكسفورد سنة ١٢٥٨ حيث دارت المناقشة حول مطالب الملك من البارونات ورجال الدين ، ووجد الملك نفسه أسيراً بين المجتمعين المسلحين الذين فرضوا عليه قبول ذلك النوع من الحكم فيما يسمى شروط اكسفورد Provisions of Oxford فى التاريخ الدستورى الإنجليزى ، وتنص على موافقة الملك على قيام حكومة (١) مؤلفة من حزب البارونات ، مهمتها فحص حالة المملكة لمعرفة مساوىء الحكم وطرق علاجها وأن يقدم موظفو الدولة حسابا سنويا عن إداراتهم ، وأن ينتخب حكام الولايات سنويا وأن يجدد نواب الملك فى الإقاليم سنويا كذلك حتى لا تسوء أعمالهم بطول إقامتهم ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان ثلاث مرات فى السنة ( أكتوبر — فبراير — يونية ) .

أقسم هنرى الثالث على احترام هذه الشروط وزاول المجلس الأعظم اجتماعاته الدورية حسب ما جاء فى هذه الشروط ، وكان ممثلو الإقاليم يجتمعون من وقت لآخر بأعضاء هذا المجلس ، ويناقشون فيما بينهم سياسية هنرى الثالث الفاشلة فى الداخل والخارج ، مما ساعد أعضاء المجلس على تدعيم سلطته حتى غلبت على سلطة الملك ، فحاول التنكر لوعوده معتمداً على مساعدة البابا له فى إحلاله من

---

(١) عبارة عن لجنة من ١٥ عضو مختارين من أعضاء البرلمان لمراقبة تصرفات الملك ولتكون واسطة بينه وبين المجلس .

تهم أقسمه مكرها من أجل مصالح البابوية . وأيده فريق من البارونات العارضين لشروط اكسفورد ، غير أن طوائف رجال الدين وطلاب جامعة اكسفورد وأهل المدن الحرة ومنها لندن وطبقة المتوسطين من رجال الإقاليم قاموا بحركة لحماية البلاد من الحكم الاستبدادى مهما كان مصدره . وسرعان ماتطورت الحركة من نزاع بين الملك والمعارضين إلى حرب أهليه ولا سيما بعد أن تدخل ملك فرنسا بين المتنازعين وحكم بأبطال شروط اكسفورد . وقاد سيمون الأمة الإنجليزية فى هذه الحرب ضد الملك هنرى الثالث وولى عهده الأمير أدوارد وهزم جيشهما عند موقع شمالى بلدة لويس Lewes سنة ١٢٦٤ بمقاطعة وسكس وأسر الملك وولى عهده .

على أن هذا الانتصار الرائع لم يؤد خلع الملك ، بل اقتصر على جعل سيمون الحاكم الفعلى للبلاد والزام الملك أمام الأمة مجتمعة فى البولمان بحكم البلاد وفقاً لما ينصح به مجلس من البارونات . ولذلك عقد سيمون بوصفه رئيساً للحكومة وللحزب المنتصر برلماناً فى وستمنستر فى شهر يناير سنة ١٢٦٥ استدعى لحضورة نائبين من كل إقليم وكل مدينة ، وذلك بالاضافة إلى الذين استدعاهم من رجال الدين والبارونات . ولاشك أن هذا البرلمان يعتبر من الناحية الدستورية بداية عصر جديد لأن البرلمانات السابقة كانت قاصرة على البارونات ورجال الدين ، أما برلمان سيمون فوسع النيابة عن الامة كلها وفى قاعة واحدة . وشهد الأمير ادوارد ذلك البرلمان الشامل لطبقات الأمة وأقسم مكرها كما أقسم أبوه من قبل أمام حزب الدستوريين أن يحترم الصلح الذى أعقب الهزيمة الملكية . وارتسمت فى عقل الأمير الواعى صور ماتنطوى عليه الجماعات البرلمانية من معنى وقوة ، مما كان له أكبر الأثر فى التطور البرلمانى بإنجلترا أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . وهناك من يرى أن سيمون استغل حادثه انتصاره على الملك وولى عهده لاثارة الأعجاب العام بحزبه ، وأنه أول من أدرك أن الموقف العام لحكومة حزبيه يتطلب منه دعوة ممثلين لجميع طبقات الأمة كى يتحدث معهم فى قاعة واحدة ويستنير برأيهم فى حل الازمة ، فأقدم على خطوة جديدة هى

أقرب إلى الدعاية منها إلى الاصلاح ، ويرى آخرى أن بعض الاعضاء من البارونات الذين أخذوا جانب الملك رفضوا حضور اجتماع برلمان سيمون فاستبدل بهم ممثلى الإقاليم والمدن (١) .

وكيفما كان السبب فى تمثيل جميع طبقات الشعب الانجليزى فى برلمان ، سيمون فإن البلاد لم تكن مهيأة بعد لقبول هذا التغيير الفجائى فى نظامها البرلمانى ، كما أن البارونات لم يكونوا جميعا على استعداد لتقبل فكرة تمثيل كافة الشعب معهم وفى قاعة واحدة ، لذا انشق بعضهم على حكومة سيمون وانضم إلى حزب الملك الذى أعلن الثورة على سيمون وأنضم الامير ادوارد — بعد فراره من الأسرار إلى الثائرين ، ولم يجد سيمون وقتا كافياً لحشد قواته ومواجهة الثائرين فسقط فى أيديهم . وقتل فى معركة إيفشام Evesham أغسطس سنة ١٢٦٦م على يد الأمير إدوارد ، وصار سيمون معبود الأمة الانجليزية من بعد أن أستشهد فى مصالحها ، وبمقتله استرد هنرى الثالث حريته ومارس حقوقه فى العرش كاملة وأعلن ذلك فى صراحة تامة وحزم أكيد ، فألغى شروط أكسفورد إلا أنه وعد باحترام ما أقسم عليه طائعا مختاراً بما فى ذلك مواد العهد الاعظم وقبلت البلاد الوضع الجديد وسادها السلام وغادرها ولى العهد إدوارد فى حملة صليبية إلى الشرق وظل هناك حتى وصلته أخبار وفاة والده ١٢٧٢ م (٢) .

وحين اعتلى أدوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) عرش انجلترا بدت الاعمال التى قام بها سيمون لتأسيس الحكم البرلمان كأنما ذهبت مع الريح . غير أن الملك الشاب الواعى أثبت عكس ذلك فتلقف إصلاحات سيمون وأعادها سيرتها الأولى وتقدم بالحكم النيابى خطوات واسعة فى كثير من الفطنة والروية والاطمئنان اعترافا منه بإفضال سيمون الذى ظلت ذكراه فى عقول الانجليز مثالا للبطولة والاستشهاد الخالص فى سبيل الحرية .

ويرجع اهتمام إدوارد بتدعيم الحكم النيابى إلى الرغبة فى تخفيف أعباء الحرب

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٢٩٩ - Trevelyan, p. 178 - Ellis v. II, p. 75

(٢) Grant, p. 367.

المهلكة التى دارت بينه وبين فرنسا واسكتلندا ، وإلى إحساس عملى فى نفسه بفائدة السير على نمط قومى فى معالجة المسائل القومية بواسطة نواب الأمة . لاحظ ادوارد أن إتساع التجارة الإنجليزية والتبادل التجارى مع البلاد المجاورة ، وإمتداد السياسة العامة إلى شئون مختلف الطبقات ، وازدياد المطالبة بتوفير وسائل العدل والأمن والإدارة بين الناس ، جعل موارد الدخل الإقطاعى غير كافية البتة لأبواب الصرف ، أو بمعنى آخر أن الإيراد الذى تجمعه الحكومة من الإعانة وغيرها من الضرائب الإقطاعية لم يعد كافياً فى عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزى من تجارة النبيذ أو الصوف يزيد عن جميع مايدخل خزانة البارون أو سيده الايرل من الإيجارات الإقطاعية .

الخلاصة أن حاجة الملك إدوارد الأول إلى إيراد قومى أرشدته إلى أهمية طوائف التجار ، كما أرشدته إلى ضرورة الحد من ضخامة المساحات الزراعية التى فى حوزة الكنيسة . وهذه الحاجة هى التى ألجأته إلى دعوة المجلس الأعظم الذى غدا أسمه « البرلمان » وأصلها من الكلمة الفرنسية Parler ومعناها الكلام والمناقشة وتبادل الآراء ، وأول هذه البرلمانات التى عقدها إدوارد الأول على صورة قومية ما يعرف باسم البرلمان النموذجى The Model Parliament الذى إنعقد فى ويستمنستر بلندن سنة ١٢٩٥ وحضره كبار رجال الدين والإيرلات والبارونات والقضاة بدعوة خاصة لكل واحد منهم باسمه ، كما حضره من كل إقليم إثنان وعن كل مدينة وكل بلد إثنان ، وينتخبهما المواطنون بناء على دعوة عامة يقوم بتبليغها نواب الملك فى تلك الجهات ، ويضاف إلى أؤلئك جميعاً عدد من الممثلين لصغار رجال الدين الذين جرت العادة بدعوتهم ضمن الدعوة الموجة لرئيسى أساقفة كانتبرى ويورك . وهذا هو الأصل فى إنقسام البرلمان فيما بعد فى القرن الرابع عشر إلى مجلسين « عموم ولوردات » . وخاطب إدوارد أعضاء البرلمان بعبارة استعارها من الإمبراطور جستنيان نصها « ما يمس الجميع يجب أن يكون بموافقة الجميع » (١) .

---

(١) Woodward, p. 5.. وراجع كذلك Carl p- 389 - 381

أما قاعدة العمل فى برلمان إدوراد الأول فهى أن يجتمع الأعضاء جميعاً فى قاعة واحدة حيث يقف أعضاء العموم إلى الخلف مستمعين فقط ، على حين يناقش الملك مع بقية الأعضاء ما يعرضه من إقتراحات قد أعدها من قبل ، وناقشها مع مجلس وزرائه ليحصل على الموافقة عليها ، لأن معظم أعمال البرلمان على عهد ادوارد الأول ليس التشريع بل الموافقة على ما يطلب الملك من الإعتمادات المالية والنظر فى العرائض المرفوعة إليه . فما كان منها بحاجة إلى مشورة القانونيين أحيل إلى الأعضاء من القضاة ، كما أحيلت العرائض الخاصة بالمال إلى موظفى المالية ، أى أن إجتماع البرلمان هيأ الوسيلة لتصفية شئون المملكة مثل فحص الشكاوى المحلية وفض المنازعات القروية ، وتأدية الضرائب المتأخرة ، وإزالة الأحقاد بين العائلات الكبيرة ، واستقبال السفراء الأجانب وتحرير المعاهدات مع الدول ، وفحص الكثير من الدعاوى القضائية . ذلك لأن البرلمان لم يخرج عن كونه المجلس الملكى القديم فى صورة جديدة والمجلس الملكى هو المحكمة النهائية العليا فى المملكة (١) .

وفى اجتماع برلمان ١٢٩٧ دلت مواقف الشعب من مطالب الملك ادوارد الأول كما دلت مواقفه من مطالب الشعب على عظم احترام القانون والعرف الدستورى ، إذ وجد ادوارد نفسه قبالة رفض رجال الدين تأدية ضريبة من الضرائب حتى توافق البابويه ، وقبالة احتجاج البلاد ضد قسوة الجباه ، فضلا عن إقتناع بعض البارونات البارزين عن الخدمة الحربية خارج انجلترا . وحينئذ أدرك الملك أن لحقوقه الملكية حدوداً إذا تعداها تعرض للخطر ، واضطر إلى تعديل موقفه بإزاء تلك المسائل ، كما اضطر إلى التصديق على بعض العهود التى سبق له منحها للمدن ، والموافقة على اصلاح الإدارة الحكومية والاقرار بأنه لايستطيع رفع المكوس المعينة على التاجر أو زيادة الاعانات والهبات الإقطاعية إلا برضا البرلمان مجتمعاً فى مجلسية ، وصار حقاً ما قيل « لقد صنع البرلمان انجلتر

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ — Painter p. 274 — Rayner, p. 118
Ellis V. II, p. 75.

ولم تكن انجلترا صانعة برلمانها » (١) .

ومن الناحية التشريعية يشبه المؤرخون الملك ادوارد الأول عند الإنجليز بالامبراطور جستنيان عند البيزنطيين ، لأن عهد ادوارد أمتلأ بنشاط تشريعى لم تشهد انجلترا مثله فى تاريخها الا مرتين . احداها فى عهد الملك هنرى الثامن ( ١٥٠٩ — ١٥٤٧ ) والأخرى فى عصر كرمول والكومنولث ( ١٦٤٩ — ١٦٥٣ ) أى قبل صدور قانون الاصلاح النيابى المشهور سنة ١٨٣٢ م وهو القانون الذى فتح أبواب التشريعات النيابية على وسعها فى القرن التاسع عشر ، وأهم تشريعات ادوارد الأول قانون جلوسستر The Statute of gloucester الذى أصدره سنة ١٢٧٨ وجعله قاصراً على النبلاء الإقطاعيين ومحاسبتهم عن مصادر ملكيتهم للاراضى ، وعن أسباب عقد محاكمهم المحلية دون رقابة مندوبى الملك القضائيين وهى الرقابة التى أنشئت عقب وفات هنرى الثانى . وبمقتضى هذا القانون نظم ادوارد الجولات التفتيشية مما أدى إلى احترام هيبة القانون وتقوية مركز التاج واضعاف قوة الإقطاع .

وأصدر ادوارد كذلك قانون الشهر الاقطاعى de Donis Conditionalibus الذى يعتبر أساس القواعد المتبعة فى تنظيم انتقال الأراضى فى القانون الأنجليزى الحالى ، وأكد إدوارد فى هذا القانون توريث أرض المالك غير مجزأة من الأبن الأكبر إلى الأبن الأكبر . وفى سنة ١٢٨٥ أصدر قانون المواريث الحشرية act of mortmain الذى حرم الكنيسة من أراضيها لأنه نص على حرمانها من أمتلاك أرض فى المستقبل الا بموافقة من الملك ، وليس معنى ذلك انه اراد معاداة الكنيسة وإنما لاحظ انها معفاة من الهبات aids والضرائب الاقطاعية كضريبة البدل وهى أهم مصادر المال لخزينة التاج ، فلا معنى لزيادة أملاك الكنيسة سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل كما انه عين الأفراد الذين لهم حق التقاضى أمام المحاكم الكنسية من رعاياه . ثم قانون الاقطاع Qula Emptores الصادر فى سنة ١٢٩٠ والذى منع تجزئة الاقطاع إلى إقطاعات صغيرة بمعنى أن الشارى لقطعة

---

(١) Trevelyan, p. 193.

أرض يصير تابعاً لسيد البائع ( أى الملك ) لا للبائع نفسه He became a vassal of the Seller, S Lord not of the Seller وبذا قلل ادوارد من خطر الاقطاعات الكبرى (١) .

ونشبت الحرب بين ادوارد الأول وفرنسا بسبب إزدياد الوعى القومى فى الأخيرة ورغبة الفرنسيين فى طرد الانجليز من نورمنديا ، فقام النزاع من وقت لآخر بين الانجليز والنورمانيين فى فرنسا براً وبحراً لأتفه الأسباب ، وطلب فيلب الرابع ملك فرنسا ادوارد الأول إلى حضرته بوصفه أحد اتباعه فرفض إدوارد واخذ يستعد للحرب ، غير أن مشاكله الداخلية ومشاريع توحيد الجزيرة دفعته إلى عقد صلح مع ملك فرنسا سنة ١٢٩٩ والزواج من أخته . وبذلك تفرغت انجلترا فى عهد ادوارد الأول إلى القيام بخطوتين هامتين فى سبيل توحيد بريطانيا كلها فى مملكة واحدة . الأولى خطاها إدوارد نحو ويلز وكان موفقاً فيها . أما الثانية فكانت مع اسكتلندا واصابه الفشل والخيبة . إذا لمعروف أن الغال امتنعت على جميع من سبقه من ملوك النورمان فاكتفوا بتعيين امراء الاطراف Marcher lords فى هيرفورد وشيشير وغيرها لمراقبة حركات امراء الغال المعتصمين بالجبال . وفى عهد هنرى الأول نجح لوردات النورمان فى امتلاك الأراضى الواطئة فى جنوب ويلز وكذلك أودية الانهار الغنية الجارية فى الاتجاه الغربى من انجلترا إلى ويلز ، وفى خلال الحرب الاهلية التى نشبت بين هنرى الثالث وحزب سيمون ساعد الغاليون سيمون مساعدة فعالة ، حفظها لهم ادوارد الأول حين أعتلى العرش بعد أبيه فجعل اخضاع الغال واسكتلندا أهم ركن من أركان سياسته الخارجية ، ولذلك أصبح توحيد الجزيرة البريطانية تحت التاج الانجليزى موضع عناية متصلة منه حتى فتحها سنة ١٢٨٣ بعد أن قاد من الجنوب والشرق سلسلة من الحملات الحربية التى اعتادت الحروب فى الجبال ، ودافع الغاليون دفاعا مجيدا تحت قيادة ملكهم ليولين Llewelyn الذى استشهد فى القتال عن مملكته وحز الانجليز رأسه وبعثوه إلى لندن حيث علق على باب البرج ، وتقدم أخوه للدفاع عن المملكة

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٣٠٠ Rayner, p. 114 — Grant, p. 379

فسلمه أنصاره لادوارد وشنقوه بأمره . ومن ثم دخلت ويلز فى حوزة الانجليز وأسس منها أدوارد أمارة إنجليزية تـكون أقطاعاً لابنه الأكبر وولى عهده ، وكان هذا الإبن أول من حمل لقب أمير الغال prince of wales بعد أن قسم الغال كله إلى مقاطعات على نسق القاطعات الإنجليزية وحصن ، وديانه بسلسلة من المعاقل والحصون الإقطاعية مثل كنارفون Caernar Von وكونواى Conway .

ورغم احتفاظ القبائل السكلتية بصفاتهم الحربية الاجتماعية كالغضب والانتقام والخبث ، ورغم قيامهم بالثورات من حين لآخر فإنهم خضعوا للتاج الإنجليزى وتزوجوا من الانجليز والتحق نبلاؤهم بجامعة اكسفورد ولندن وغيرهما . وحارب الرماء الغاليون والمزارعون الإنجليز جنباً إلى جنب ضد الفرنسيين فى القرن الرابع عشر . وإلى الرماة الغاليين — وهم الذين اخترعوا القوس الطويل(١) يرجع معظم الفضل فى تحقيق الفوز لملوك انجلترا فى فرنسا على النحو الآتى فى حرب المائة عام . واختلفت المشكلة الاسكتلندية عن مشكلة الغال فى ناحية هامة وهى أن جميع سكان نورثمبريا الإنجليزية ومملـكة اسكتلندا عامة من الأنجلو سكسونيين والنورمانيين . وتملك النبلاء من الأنجلو نورمانيين معظم الأراضى على جانب التلال الفاصلة جغرافياً بين انجلترا واسكتلندا . وعلم بعض ملوك اسكتلندا ومنهم دافيد ( داود ) الأول رعاياه القانون الأنجلونرمانى ومظاهر الحضارة المنتشرة بين أهل المبلاد الواقعة جنوبى تلال شفيون فى نورثمبريا . والمسافر بين مدينتى يورك وأدنبره لا يلاحظ بين أهل المدينتين فروقا فى اللهجة أو المظهر أو السلوك أو فروقا فى فن العمارة الحربى والدينى . وهذا التشابه بين انجلترا واسكتلندا جعل اتحادهما السياسى أمراً طبيعياً بل ولازماً .

وسبق القول(٢) أن أحد ملوك اسكتلندا اعترف للملك هنرى الثانى بالسيادة على بلاده ، غير أن ولده رتشارد قلب الأسد تنازل عن تلك السيادة لحاجته إلى المال

---

(١) يمتاز القوس الطويل long bow عن القوس العادى Arbaléte بأنه أسرع بثلاث مرات ، ولذا أدخل إدوار الأول استعماله فى الجيش الانجليزى وصارت القسى الطويلة Archeric عنصراً رئيسيا فى هذا الجيش منذ ذلك اليوم — راجع الجيوش ص ٨٤ .

(٢) راجع ص ٨٨ .

فى حملته الصليبية ، وظل الاتصال قائماً بين المملكتين حتى سنة ١٢٩٠ ، حين توفيت مارجريت آخر سلالة البيت المالك فى اسكتلندا ، وادعى العرش إثنا عشر نبيلا من نبلاء الاسكتلنديين واحتكموا إلى ادوارد الأول فأسرع إلى اقتناص الفرصة للتدخل ، وحكم بأحقية حنا باليول فى تولية العرش الاسكتلندى وتوج باليول بعد أن حلف يمين الاخلاص والتبعية الاقطاعية لادوارد . غير أنهما اختلفا وأعلن باليول العصيان والثورة على أدوارد فقاد إدوارد حملة طردت باليول من اسكتلندا واحتلت البلاد وجعلتها ولاية انجليزية سنة ١٢٩٦ ، وظلت اسكتلندا على شيء من الولاء للتاج الانجليزى بضع سنوات قام الاسكتلنديون فى أثنائها بثورات بقيادة قائد موهوب وثائر غيور هو وليم والاس الذى هزمه أدوارد سنة ١٢٩٦ فى وقعة فالكرك Falkirk وفر بعدها ثم عاد بعد سنوات وقاد ثورة أخرى سنة ١٢٠٥ على أن إدوارد استطاع أن يخمد الثورة بقسوة بالغة وأن يشنق زعيمها . وسرعان ماوجد الثائرون بين صفوفهم زعيما آخر أشد مراسا وألمع جاذبية هو روبرت بروس الذى طرد جيوش إدوارد وأعلن نفسه ملكا على اسكتلندا ، وسار أدوارد على رأس جيش لمحاربته ولكنه أصيب بمرض شديد وهو فى الطريق ومات فى كارليل سنة ١٣٠٧ ونقلت جثته إلى ويستمنستر . وفى وسط هذه الحوادث كان مولد الأمة الاسكتلندية التى صارت حقيقة ذات أهمية كبيرة فى تاريخ انجلترا والأمبراطورية البريطانية . ولا تزال ذكرى وليم والاس زعيم حرب العصابات ضد الانجليز وذكرى روبرت بروس ملك اسكتلندا (١٢٦٤ — ١٣٢٩) ماثلة فى أذهان الاسكتلنديين حتى العصر الحاضر ، لأنهما ولاشك صاحبا الفضل فى بناء استقلال اسكتلندا .

ويذكر الانجليز لأدوارد الأول فضل إصلاح الجيش الانجليزى إصلاحاً كبيراً عما كان عليه فى عهد أسلافه ، لأنه جعل غالبيته من الفرق المأجورة الآتية من القارة بمعنى أنه انتهى من تحـــويل جيش الاقطاع إلى جيش مأجور ، فالأجور تسمح بأن تكون الفرق تحت يده تماماً ، كما تحيل هذه الفرق الاقطاعية إلى جيش انجليزى منظم . وجنود أدوارد الأول هم اتباع مأجورون ولكنهم ليسوا مرتزقة بالمعنى الصحيح ، وليس المال هو وحده الذى يربطهم بالملك . فالحق أن الماجنا كارتا كان يقضى بابعاد المرتزقة ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد منهم فى الجزيرة أحد . وحول أدوارد الأول مشاه الانجليز الذين كانوا يجندون من بين تابعى

الأفصال Arriéres Vassaux إلى اصطناع الرمح الطويل long—bow المأخوذ عن أهل الغال الجنوبيين(١).

وتولى أدوارد الثانى الحكم بعد أبيه ( ١٣٠٧ — ١٣٢٧ ) والحرب لاتزال جارية مع الاسكتلنديين الذين تقدموا بقيادة ملكهم روبرت بروس جنوباً نحو الحدود الفاصلة بين البلدين وفى معركة بانوكبرن Bannock burn ١٣١٤م أضاع أدوارد الثانى ما صرفه أبوه من جهد فى سبيل البلدين ، وبقيت اسكتلندا نتيجة لتلك المعركة مستقلة إلى مابعد ذلك بثلاثة قرون ، وظلت فقيرة منعزلة عن دائرة المدنية فى فترة الاستقلال هذه . وفى السنة التالية لمعركة بانوكبرن أى سنة ١٣١٥ غزا ادوارد بروس شقيق روبرت ملك اسكتلندا جزيرة إيرلندا لمضايقة الانجليز هناك . ولحقه أخوه روبرت بحملة ثانية سنة ١٣١٦ ونكب الأثنان الجزيرة بحرب وحشية قاسية أوقفت تقدمها البطىء الهادىء الذى بدأته منذ الفتح الانجليزى أيام هنرى الثانى(٢) واقتصر النفوذ الانجليزى على إقليم ضيق بشرقى إيرلندا .

ولم يكن أدوارد الثانى أحسن توفيقاً فى سياسته الداخلية عنها فى سياسته الخارجية ، إذ أناب عنه صديقه الفرنسى جافيستون Gaveston فى إدارة شئون المملكة ، فثار عليه البارونات الانجليز وانقسموا إلى أحزاب قامت الحروب بينهم ، استعانت فيها الملكة إيزابلا ابنة ملك فرنسا بفرقة من المحاربين الفرنسيين فزادوا الحال سوءاً وحل الخراب والدمار بالبلاد وانتشرت المجاعات ، ولم ينقذ البلاد إلا قتل الملك سنة ١٣٢٧ وهو يتنقل من قلعة إلى أخرى أمام أعدائه فى جنوب غرب ويلز بعد أن عزل ملكه .

---

(١) تاريخ الجيوش ص ٨٦ — ٨٧

(٢) Grant, p. 381 — Painter, p. 275 — Raynner, pp. 115-121

فيشر ج ٢ ص ٣٠٦و٣٢٩ — راوس ص ٥٢ زيدان ص ٥٤ — ٥٨

# الفصل الخامس

## عينات من الحضارة الإنجليزية

### فى القرن الثانى عشر والثالث عشر

---

مقارنة بين نظام الحكم فى كل من انجلترا وفرنسا — قيام النهضة العلمية نشأة الجامعات — جامعة سالرنو — جامة بولونيا — نقابة الطلاب — جامعة باريس — نقابة المعلمين — جامعة اكسفورد — جامعة كمبردج — معنى الجامعة — نشأة الديرية — أصلها — أنواعها — أثرها فى المجتمع الإنجليزى .

لم تكن انجلترا الدولة الأوربية الوحيدة التى عرفت قيام النظم البرلمانية فيها فى أواخر القرن الثالث عشر ، بل انعقدت البرلمانات وقتذاك بفرنسا وأسبانيا وألمانيا والمجر وغيرها حتى قيل إن برلمانات فردريك الثانى . وهى المجالس العامة التى جمعت نواب النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ـ سبقت التطورات البرلمانية التى حدثت فيما بعد بانجلترا . غير ان ثمة فارقا ملحوظا كان بين المملكتين الالمانية والانجليزية ، اللتين امتازتا بأبدع ما فى الإمكان من انواع الحكم فى القرن الثالث عشر الميلادى ، و ذلك الفارق هو أن قوة الملكية فى انجلترا استندت إلى جيش من الإنجليز ، على حين اعتمد فردريك على جيش من المرتزقة المأجورة من المسلمين والالمان[1]. وفرق آخر أمتازت به انجلترا عن تلك الدول وهو تطورها الناجح إلى الحكم البرلمانى .

والفضل فى ذلك راجع إلى مر القرون وإلى الظروف التى أحاطت بانجلترا نفسها ، إذا قورنت بجارتها فرنسا مثلا . وأول هذه الظروف أن الملكية فى كل منهما كانت أهم أداة انشائية فى الدلة ، ولكن امتازت الملكية الانجليزية منذ قيامها بعد الفتح بالقوة والتمسك ولم تقو الأيام على فصم عراها ، حتى إذا حلت الفوضى الإقطاعية والحروب الأهلية بأرجائها فى عهد ملوكها الضعاف لم تلبث أن عادت إلى سجيتها من التماسك . أما الملكية الفرنسية فنشأت كاقطاعية صغيرة بين أواسط نهرى السين واللوار ، تكافح وجهاً لوجه إزاء إقطاعيات ضخمة عليها أمراء جبابرة استطاعوا أن يشنوا الحروب ضد ملوك فرنسا من أجل الاستقلال بشئونهم رغم تبعيتهم للتاج الفرنسى . ونتج عن هذا أن الحركات التى هبت فى سبيل الحرية بانجلترا جاءت وليدة تضافر الشعب والنبلاء من بداية القرن الثالث عشر ضد الملكية ، أو بمعنى آخر قامت حول مركز الدولة لا حول إقليم محلى يريد الاستقلال الضيق كما حدث فى فرنسا ، حيث تحالفت الملكية عادة مع الشعب ضد النبلاء الثائرين الراغبين فى الاستقلال استقلالا محلياً ، ولذلك نظر الفرنسيون إلى ملكهم على أنه عنوان النظام والعدالة وملاذ الضعفاء والفقراء من بطش المسيئين من الأمراء الأقوياء

وفى كلا البلدين نمت نظم برلمانية فى القرن الثالث عشر من نواة مركزية هى مجلس الملك ، وكان السبب فى وجود هذه النظم فى كلا البلدين شدة حاجة الملوك المال وسهولة تصريف شئون الدولة فى مجلس مركزى جامع ، وضرورة مساعدة

---

(١) فيشر : ج ١ ص ٢٥٦ .

للملكية فى ساعات الحرج . غير أن المجالس النيابية الإنجليزية التى انعقدت فى هذا القرن صار أسمها البرلمانات منذ عهد هنرى الثالث اختلفت فى تكوينها ومهمتها ودورات انعقادها عن المجالس الفرنسية . جمعت البرلمات الانجليزية بين فرسان الأقاليم ونواب المدن وممثلى صغار رجال الدين إلى جانب البارونات ورجال الكنيسة . لافرق بين هؤلاء وأولئك إلا بصيغة الدعوة الموجهة إليهم لحضور تلك المجالس وانقسم البرلمان الانجليزى فيما بعد إلى مجلس العموم واللوردات ، وصار مصدر قوته أن معظم أعضائه أتوا من طبقة اجتماعية متوسطة قديمة الخبرة بالشئون العامة والإقاليم المختلفة . امتزجوا مع النبلاء ونواب المدن وتعاونوا معا فى العمل للصالح العام . وأعطى البرلمان الانجليزى منذ البداية حق الموافقة على الضرائب واتسع هذا الحق مع الزمن فشمل الرقابة على السلطات الاستبدادية والحكم المطلق وكل شىء فى الدولة من تشريع ومعاهدات ... إلخ .

أما المجالس الفرنسية فتكونت بادىء ذى بدء من طبقتين متباينتين وهما طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين . وحتى عصر فيلب الرابع ( ١٢٨٥ — ١٣١٤ ) اقتصر مجلس الأمه على كبار الأشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة ، فلما شجر الخلاف بين فيلب والبابا أراد التأكد من وقوف الأمة فى جانبه ، فدعا المجلس للانعقاد ١٣٠١ ، وطلب إلى كل مدينة أن ترسل لحضوره مندوبين أو ثلاثة « ليسمعوا مايقول الملك ويوافقوا عليه وينفذوا مايأمرهم به » فقرر المجلس موافقته على خطة الملك . ثم عقده فيليب عدة مرات على هذه الصورة . فأصبح يعرف بمجلس طبقات الأمة Etats Gèneraux ، « الأشراف والكنيسه والشعب المسمى الطبقة الثالثة » ولم يكن لأعضاء المجلس صلة بأعمال الحكم الإقليمى ، كما لم يكن له صفة الانسجام والاختلاط ، لانعدام طبقة الإقليميين المتوسطين به ولتميز طبقة على أخرى ، ولذا لم تصبح المجالس الفرنسية عاملا من عوامل الرقابه على سلطات الملوك ، أو عاملا من عوامل بناء الدولة ، ولم تجتمع إلا نادراً وفى غير معياد . وإذا اجتمعت اتخذ أعضاؤها مواقفهم فى المناقشة والاقتراع على قاعدة الطبقات ، ولا أدل على ذلك من أن عدد المجالس الفرنسية التى دعيت للاجتماع بين سنتى ١٣٠٠ و ١٧٨٩ م لاتزيد إلا قليلا عن عدد البرلمانات التى انعقدت بانجلترا فى عهد ملك واحد هو إدوارد

الثالث ( ١٣٢٧ — ١٣٧٧ ) وساعد الإكثار من دعوه البرلمانات الإنجليزية إلى الانعقاد لمشاورتها فى مختلف المسائل القومية ، ساعد بلا ريب على تربية البلاد تربية سياسية سليمة .

وشهدت انجلترا قيام القوانين الدستورية منذ عهد إدوارد الأول . وعن طريق البرلمان شرع قانون الأرضى الذى أدى إلى أزدياد عدد الاقطاعيين الذين تنتمى إقطاعاتهم إلى الملك مباشرة . وأدى ذلك إلى التقليل من شأن أصحاب البارونيات الكبرى وانفتح الطريق أمام صغار الأعيان وهو مالم يحدث بفرنسا التى عجزت عن أن تكون بها طبقة متوسطة من الاقطاعيين الذين يستطيعون الاضطلاع بالمسئوليات العامة فى الأقاليم ، أى أن فرنسا لم تجد من المحلفين والقضاة والموظفين المحليين ، كما وجدت انجلترا مثلا فى تدبير شئون الأقاليم . بل اعتمدت فرنسا فى تدبير هذه الشئون على طبقة الموظفين المحترفين مثل الصنجيل Senechal .

ولم يوجد فى فرنسا مايصح أن يسمى القانون العام ، فالوحدة القانونية التى نعمت بها انجلترا بفضل أصلاحات هنرى الثانى القضائية لم تحدث فى فرنسا إلا زمن نابليون ، مع أن برلمان باريس فى القرن الثالث عشر الميلادى لم يكن مجلساً سياسياً نيابياً كما يبدو من مدلول لفظة ، بل كانت هيئة من رجال القضاء الذين صارت مراكزهم فيما بعد قابلة للشراء أو الهبة عن طريق الإرث ، غير أن الدور الذى قامت به تلك الهيئة من الناحية التشريعية لم يشبه ما قام به رجال القانون العام بانجلترا من مناصرة البرلمانية ضد الملك ، ثم أن نظام المحاكم العلنية الذى ظل قائماً فى انجلترا حتى العصر الحاضر لم يلق تشجيعاً فى فرنسا . بل حل محله نظام المحاكم السرية الذى لايضمن للمتهمين شيئاً من الحماية فى مرحلة الاتهام . كما أن محاكم التفتيش البابويه التى نشأت فى فرنسا لم تستطع الوصول إلى انجلترا عبر المانش .

يضاف إلى ذلك أخيراً أن العامل الجغرافى قام بدور كبير فى أوجه الخلاف السابقة بين تاريخ البلدين ، فانجلترا بلاد صغيرة المساحة وهى جزيرة يحميها البحر من جهاتها الأربع ، وليس ضروريا أن يكون لها جيش نظامى ثابت ترصد

له الأموال الباهظة ، وليس ثمة صعوبة فى حكمه حكماً مركزياً ميسراً بعكس فرنسا وأسبانيا وألمانيا فإن مساحتها الواسعة ومواصلاتها العتيقة ، فضلا عن ظروفها الإقطاعية فى العصور الوسطى جعلت قيام الحكومة المركزية بها أمراً صعباً . لذلك كله سارت انجلترا وفرنسا فى طريقين متشابهين أحياناً ومختلفين أحياناً أخرى فى تطورهما السياسى (١) .

* * *

كان من نتائج الحروب الصليبية واحتكاك الغربيين بالشرقيين أن نقل الأولون كثيراً من حضارة الأخيرين فأثرت فى ميادين التجارة والسياسة تأثيراً عميقاً ، وكان تأثيرها فى الحياة الفكرية أكثر عمقاً فى نتائجه . ومن ثم أخذ التعطش للمعرفة — وهو أحد الميول الغريزية فى الإنسان — فى الظهور مرة أخرى بغرب أوربا منذ القرن الحادى عشر الميلادى . وساعد على رواء ظمأ المتعطشين فى العلم استقرار الأحوال السياسية العامة فى أوربا ، وتأمين التنقل بين البلاد ، وسفر طلاب العلم إلى مراكز إذاعة الثقافة العربية فى طليطلة وقرطبة وصقلية وجنوب إيطاليا ، والحاجة الملحة لدراسة القانون والطب والمنطق واللاهوت ، وظهور طائفة ممتازة من المدرسين فى هذه العلوم جذبت نحوها الطلاب من أقاصى البلاد مهما كلفهم السفر من مشقة وعناء ، وتعضيد بعض الهيئات والأفراد لطلاب العلم وتنظيم دراسات دنيوية لهم ، كما كان للنشاط الفكرى لبعض رجال الدين أثر كبير فى تنظيم المدارس التابعة للكاتدرائيات وتحويلها إلى جامعات . وأهم من ذلك كله غيرة الطلاب واهتمامهم بالعلم وبأنفسهم ، وتكوين نقابة منهم تشرف على تنظيم أوقات الدرس وتدفع رواتب الأساتذة وتختارهم وتحصل الموارد المالية للنقابة من الأعضاء والهيئات . إلخ .

ارتفعت نسبة العارفين للقراءة والكتابة فى أوربا ارتفاعاً ملموساً بعد النهضة الكارولنجية . وظل التعليم فى القارة حتى القرن الحادى عشر قاصراً على المدارس التابعة للكاتدرائيات والأديرة ، وأشهرها مدرسة الوثائق School of

---

(١) راجع راوس ص ٤٩ — فيشر ج ٢ ص ٢٨٩ — Pirenne, p. 431
Grant : pp. 369, 378.

Charters الذائعة الصيت فى القرن الحادى عشر والثانى عشر بفضل القائمين على التدريس بها ، ومن بينهم وليم كونشس Conches المتوفى سنة ١١٥٤ ومربى الملك هنرى الثانى ورائده . كان منهج الدرس فى المدارس الكنيسية قائماً على دراسة العلوم الأدبية والنظرية ، وبعد القرن الثانى عشر اقتصرت وظيفتها على تعليم الطلبة العلوم الدينية وحياة الرهبنة . ومن ثم نشأت الجامعات وانتقلت إليها سياسة توجيه التعليم العالى (١) .

وتعتبر جامعة سالرنو فى إيطاليا أقدم الجامعات الأوربية لأن أصلها يرجع إلى العصور القديمة ، واقتصرت شهرتها فى العصور الوسطى على دراسة الطب من مؤلفات بقراط وجالينوس ، مضافاً إليه ما جد من تجارب طبية فى مؤلفات أبى يعقوب اسحق بن سليمان الإسرائيلى الأندلسى المتوفى ٩٢٣ م . على أن جامعة سالرنو لم يكن لها تأثيرها الملحوظ فى قيام ونمو الجامعات الإنجليزية . وحدث فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن زاد الاهتمام بدراسة القانون الرومانى وشرحه ، لأن الشريعة الرومانية كان لها من قوة التأثير فى السياسة والمجتمع مالم يكن لغيرها كالطب مثلا من العوامل الفكرية فى تلك العصور لسببين : أولهما امتداد أصول الشريعة الرومانية إلى القانون الكنسى ، وثانيهما كونها زاخرة بطائفة من المبادىء الاستبدادية الأتوقراطية التى تحيط المنصب الأمبراطورى عادة فى روما القديمة ، ورغب المشتغلون بالقانون فى العصر الوسيط فى إحياء تلك المبادىء لتدعيم سلطة الأمبراطورية الألمانية فى خصامها مع البابوية ، ووجد ملوك أوربا مبررات الحكم المطلق فى القوانين الرومانية القديمة .

وصارت كلية الحقوق بجامعة بولونيا أشهر الكليات الأوربية لدراسة القانون فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، بفضل اثنين من أشهر مدرسى القانون بها ، هما إرنيريوس Irnerius أستاذ القانون الرومانى ، وجراتيان Gratian أستاذ القانون الكنسى . وفى هذه الجامعة قامت نقابة من الطلاب Universitas Scholarium الأثرياء على شئون الإدارة ، فهى التى تختار الأساتذة

---

(١) Frederick B. Artz : The Mind of the Middle Ages New York 1953, p. 307.

وتدفع رواتبهم ما استطاعت وتتوقف عن دفعها إذا لم تستطع ، حتى بات الأساتذة أحياناً كثيرة على قول الدكتور راشدال « فى حال أذل من الذلة »(١) ذلك أن هذه النقابة فرضت غرامة على الأستاذ إذا تأخر عن محاضرته دقيقة واحدة ، أو تجاوز الوقت المحدد للانصراف ، أو عبر نصاً صعباً ، أو فشل فى إنهاء ماشرطت الجامعة تدريساً من النصوص القانونية فى الوقت المحدد لتلك النصوص . وتكونت لجنة من الطلاب اسمها لجنة تحرير الأساتذة هى التى تراقب سلوك الأستاذ ، وتحيط المديرين علماً بكل مخالفاته ، فإذا أراد الأستاذ أن يتزوج سمحت له اللجنة فى شيء من التلطف أن يتغيب يوماً واحداً ، لا شهراً كاملا كالمعتاد ، وظلت جامعة بولونيا خاضعة لنقابة الطلبة حتى أنقذتها السلطة المحلية منها ، وأنشأت كراسى الأساتذة واختارتهم وأجرت عليهم الرواتب . وما لبث أولئك الأساتذة أن احتكروا التعليم المدنى تمام الاحتكار . غير أن الفقه الرومانى لم يستطع أن يبلغ من الأثر فى انجلترا ما بلغه فى غيرها من سائر غرب أوربا . ففى انجلترا لم يتلق القانونيون علومهم فى الجامعة حيث توفرت دراسة القانونين المدنى والكنسى بل تلقوها فى مدارس مهنية اسمها دور الحقوق inns of court التى نشأت لأول مرة فى لندن على عهد الأدورديين فى القرن الرابع عشر الميلادى . ولهذا السبب جنح القانون العام فى إنجلترا نحو الحرية لا نحو الاستبداد(٢) .

أما جامعة باريس التى صارت نموذجاً لسائر الجامعات بشمال غرب أوربا فاختلفت فى طباعها ونظامها تمام الإختلاف عن جامعة بولونيا . ففى جامعة باريس سادت دراسة اللاهوت لا القانون ، وبدأت الإدارة فى يد نقابة من المعلمين لا الطلاب Universitas magistrorum . وإذا نشأت تلك النقابة من المدرسة الكاندرائية بباريس ، وعاشت فى ظل الكاتدرائية نفسها — أى كاتدرائية نوتردام — فإنها بقيت موضع الريبة مدة طويلة ، واعتبرتها الهيئات الكنسية المحلية هيئة غير مشروعة تريد القضاء على سلطات الأسقف ووكيله ورجال أسقفيته . وترجع شهرة المدرسة الكاندرائية بباريس إلى أحد مدرسيها وهو

(١) فيشر ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) فيشر ج ١ ص ٢١٠ — Curtis : op. cit., p. 46

وليم شامبو Champeaux تلميذ بطرس أبيلارد صاحب الحركة الجدلية الحرة والثورة الفكرية الجامحة التى مكنت لباريس أن تصبح مركزاً للتفكير الحر والبحث العلمى . وغدا أبيلارد منافساً لأستاذه ومعلمه وليم وجذبت شهرته الطلاب من جميع أنحاء أوربا . كان مبدأ أبيلارد فى التعليم مناقشة ما يعرضه على تلاميذه من الحقائق حتى الدينية منها مناقشة عقلية بحتة ، فما وافق العقل قبله وما خالفه رفضه بغض النظر عما جاء فى كتب الدين . وبظهور أبيلارد ظهرت حركة تحكيم العقل واستعمال الأسئلة للوصول إلى الحقيقة واتباع قواعد منطق أرسطو . وأثارت طريقته هذه سخط رجال الدين وانبرى لمعارضته القديس برنارد الذى كان يعتقد صحة الكتابات الدينية دون مناقشة ، ومازال أبيلارد يعانى هذه المعارضة حتى مات سنة ١١٤٢ .

وصار من المتفق عليه أن البابا أو الأمبراطور — لا غير — هو الذى يمنح أجازة التدريس العام Jusubique bocendi وهى الأجازة التى أضحت سمة المنظمة التعليمية أو الجامعة . وتبع ذلك أن حل عصر الهبات والأوقاف محل عصر التقشف الرسولى . وأسس روبرت دى سربون — إمام لويس التاسع ملك فرنسا الكلية الأولى من الكليات الستين التى تأسست فى العصور الوسطى لإيواء الطلاب الجامعيين فى باريس . وعاش دانتى عيشة الطلاب بين المحاضرات وحجراتها فى كلية من تلك الكليات . ويستطيع زائر باريس فى العصر الحاضر أن يدخل كنيسة القديس بوليان الفقير وهى الكنيسة الصغيرة الممتعة التى اتخذها الرعيل الأول من المتخرجين فى الآداب من جامعة باريس مكاناً لاجتماعهم . أما الكلية التى بناها روبرت دى سربون فلم يبق منها إلا اسمها يطلقه الباريسيون على أبنية حديثة هى جامعة باريس الحالية ، التى لم يبق من قديم كلياتها الستين التى أنشئت فى العصور الوسطى سوى الذكرى .

ومن جامعة باريس تفرعت جامعة اكسفورد ١١٦٨ م ولم ينهض الدليل التاريخى التام على الحالة التى أدت إلى تكوينها . على أنه يجب استبعاد الأسطورة القديمة القائلة بأن الملك الفريد العظيم هو الذى أسسها فى القرن التاسع الميلادى

لأن مدينة أكسفورد نفسها لم يعرف شيء عنها حتى مضى قرن بعد وفاة ألفريد ، ولم يسمع عن أى مدرسة من أى نوع فيها حتى بداية القرن الثانى عشر (١) .

كما أن الرأى القائل بأنها امتداد طبيعى لأسقفية القديس فريدزويد Frideswide لم يلق تأييداً .

وأقصى ما نعلم لا يعدو أن طائفة من المعلمين والطلاب الإنجليز رحلوا عن باريس عام ١١٦٧ / ١١٦٨ م بناء على أمر أصدره إليهم هنرى الثانى ملك انجلترا بسبب نزاع مع لويس السابع ملك فرنسا من ناحية ، ومع القديس توماس بيكت كبير أساقفة كانتبرى من ناحية أخرى ، وأن نقابة من الأساتذة الإنجليز — على غرار نقابة باريس — قامت سنة ١١٨٥ فى أكسفورد(٢) . وإذا كان من الجلى أن قيام نقابة الأساتذة فى مدينة من المدن بغرب أوربا دليل على قيام المنظمة التعليمية Studium generale التى هى الجامعة ، فليس لدينا دليل مباشر على أن المعلمين والطلاب الذين أعيدوا إلى إنجلترا من باريس استقروا فى أكسفورد بالذات ، على أنه من المحتمل أن ذلك هو ما حدث ، وأن المطابقة الدقيقة الملحوظة بين نظام الجامعتين فى أكسفورد وباريس ترجع لذلك السبب . ففى أكسفورد نشأت الجامعة تحت إشراف وكيل الأسقف مثلما حدث فى باريس ، وفى أكسفورد قامت الجامعة على نظام الأروقة الأربعة والعمداء الأربعة مثل باريس وأروقتها الأربعة وهى : رواق الفرنسيين ورواق الشماليين ورواق البيكارديين Picards ورواق الإنجليز .

غير أن الأخير تحول إلى رواق الألمان بعد انقطاع العلاقات السياسية والثقافية بين إنجلترا وفرنسا ، غداة اندلاع حرب المائة عام . أما أكسفورد فانقسم الطلبة فيها — عند قيامها — إلى قسمين ( رواقين ) : رواق الشماليين وينضوى تحته الاسكتلنديون . ورواق الجنوبيين وينضوى تحته الإيرلنديون وطلبة ويلز . بل نشأت فى أكسفورد على مر الأيام كليات معدة للسكنى والدراسة على نمط كليات باريس

---

(١) Hastings Rashdall : The Medieval Universities - Camb - Med. Hist. V. VI, p. 585.

(٢) Ibid. p. 587.

حتى أن زائر اكسفورد فى العصر الحاضر يستطيع أن يرى الكلية الأولى من كليات جامعة اكسفورد التى أسسها والترميرتون Merton college ١٢٦٦ م على نمط كلية روبرت دى سربون فى باريس المنشأة سنة ١٢٥٢ لإيواء الطلاب الجامعيين ، وحذا حذو مرتون غيره من الخيرين من هذا التاريخ فصاعداً حتى بلغت كليات اكسفورد اليوم إحدى وثلاثين ، آخرها كلية القديس آن المنشأة سنة ١٩٥٢ ، وكلها للبنين فيما عدا أربعة للبنات اللاتى سمح لهن بالالتحاق فى الجامعة منذ ١٩٢٠ م ولا تزال أبنية الكليات قديمها وحديثها قائمة شامخة فى اكسفورد لتشهد بما انطبعت عليه العصور الوسطى فى انجلترا من السخاء والتقوى . يضاف إلى ذلك أن جامعتى باريس واكسفورد اشتهرتا دون غيرهما من الجامعات الأوربية الأخرى بعلو الكعب فى الفلسفة المدرسية ، واجتذبت كل منهما إليها الطلاب من أنحاء أوربا (١) .

ومهما كان الاختلاف حول نشأة جامعة اكسفورد ، فالمعروف أنه كان يوجد بالمدينة مدارس فى مستهل القرن الثانى عشر وجذبت ثلاثة من العلماء المشهورين ، أولهم ذكراً تيوبولدس Theebaldus الذى هاجر من نورمانديا إلى اكسفورد حوالى سنة ١١١٠ وحاضر فى الأدب اللاتينى على عدد من الطلبة يتراوح بين الستين والمائة ، ولحق به حوالى سنة ١١٣٣ م . روبرت بلاس Robert Pullus وحاضر فى علم اللاهوت ، كما أن فاكاريوس Vacarius المشرع اللومبردى الشهير حاضر فى اكسفورد ، غير أنه من المشكوك فيه تاريخ محاضراته وهل حاضر قبل ١١٦٧ أو بعدها ، وخلاصة القول أن أولئك الثلاثة وردت الإشارة إليهم تنبىء بأنهم حاضروا فى اكسفورد فى أوقات متفرقة ، وإننا نشك فى وجود مدارس باكسفورد قبل سنة ١١٧٠ وأنها (أى المدارس) ساوت فى الشهرة مدارس لنكولن وسالسبورى وهرفورد ، والمعروف كذلك أن الأديب والرحالة الويلزى جيرالد الكابرنسى Giraldus Cambrensis زار اكسفورد حوالى ١١٨٥ م ودرس كتابة الخطط الإيرلندية Topographia

(١) فيشر ج ١ ص ٢١٤ — Curtis - p. 59 ومابعدها .
Rashdall, p. 586 — Ibid p. 58.

Hibernica لجمع من الطلبة والمدرسين فى تلك المدينة ، فضلا عن قيام مؤسسة علمية جامعية Studium generale فى اكسفورد حوالى ١١٨٥ م (١) . أما لماذا اختيرت اكسفورد لتكون مقراً لأولى الجامعات الانجليزية ؟ فسؤال تصعب الإجابة عليه حقاً ، لأن مدينة اكسفورد لم تكن عريقة القدم كمدن انجلترا الكبرى مثل يورك وكانتربرى ، وربما كان الأجدر بواحدة منها أن تستحوز على هذا الشرف ، لا سيما وأنها جميعاً مراكز لكتدرائيات هامة . والسبب الوحيد الذى استطاع أن يتلمسه الأستاذ راشدال لقيام الجامعة الإنجليزية الأولى فى اكسفورد هو ما امتازت به من موقع جعلها ملتقى لعدة طرق هامة ، كما أكسبها أهمية تجارية . هذا بينما يظن غيره أن تفضيل هنرى الثانى ملك انجلترا لاكسفورد كمكان مختار لإقامته ، كان له أثر فى قيام أول جامعة إنجليزية فيها(٢) .

وإذا أردنا أن نتصور بوجه عام حياة الطلبة والمعلمين الذين تمخضت عنهم الجامعات فى انجلترا ، فعلينا ألا ندخل فى حسابنا مجموعة الأبنية الرائعة ، والكليات والمكتبات وحجرات المحاضرات والمعامل وغيرها من المظاهر المعمارية التى تضفى على الجامعة الحديثة صفة الاستقرار والثبات . وإذا كان التعليم وقتذاك بالمشافهة وكانت اللاتينية اللغة المشتركة بين المتعلمين ، فيجلس الطلبة على الأرض حول أستاذهم ، ويأخذ هذا فى تفسير الكتاب جملة جملة بينما الطلبة يستمعون ويأخذون مذكرات أحياناً ، كما لا يزال متبعاً فى جامعة الأزهر . ومتى أتم الطالب مرة فى تلقى العلم امتحنه أساتذته ، فإذا نجح أعطى درجة تخول له التدريس . ولم يمنع هذا من لا يريدون الاشتغال بالتعليم من التطلع إلى الحصول على الدرجات العلمية من الجامعات ، بل صارت الدرجات شرفا يصبو إليه محبو العلم ، واقتصرت مواد الدراسة فى الغالب على المواد السبع الحرة The Seven Liberal Arts وهى اللغة بفروعها المختلفة من قواعد وبلاغة ومنطق والمواد الأدبية ، وعلم الجبر ، وعلم الفلك، والموسيقى ، ثم أربع مواد طبيعية. وهى المواد التى ظلت تدرس من القرن السادس حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى الفترة المعروفة تاريخياً بعصر مدرسة الوثائق(٢) .

---

(١) سعيد عاشور : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى طبعة ١٩٥٦ ص ١٨٨

(٢) Artz : op. cit., p. 308.

وكيفما كان الأمر فإن كتب أرسطو فى المنطق والطبيعة وماوراءها والأخلاق وغيرها مما وصل عن طريق العرب إلى أوربا احتلت المكان الأول بين كتب الدراسة وكان هم الأستاذ منصرفاً إلى ثلاثة أمور مهمة . أولها فهم الترجمة اللاتينية الركيكة التى كانت بيده ، وثانيها تعليق علماء العرب عليها ، وثالثها التوفيق بين ما كتبه أرسطو وبين ماجاء فى الإنجيل . وبلغ الإعجاب بأرسطو أن لقبه الناس وقتذاك بالمعلم الأول أو الفيلسوف الأوحد ، ورفعوا كتبه إلى مستوى الإنجيل والقانون الرومانى .

وتشير سجلات المحاكم وكتابة الطلبة أنفسهم إلى مسلكهم المعيب فى حياتهم اليومية ، فتصف بعضهم بالسفاهة والعربدة والقيام بحركات وألعاب هزلية تصورهم فى صورة الأبطال . وهى أشبه بألعاب الهزليين فى الأسواق والطرقات العامة : وتصف البعض الآخر بالطاعة للقانون واحترامه المجتمع . ويحمل الطالب الجامعى فى يده مفكرة يدون فيها خلاصة ما سمع وما قرأ من كلمات ومصطلحات لاتينية . وتكشف الخطابات المتبادلة بين الطلبة وآبائهم عن مستواهم العلمى والاجتماعى والمالى ؛ وكلها تدور حول طلب النقود وتعذر الحصول على سكن صحى . والغالبية الكبرى منهم فقراء يسكنون غرفاً فوق سطوح المنازل أو أسفلها . الأمر الذى أوحى إلى روبرت دى سربون بفكرة إنشاء دار بباريس سنة ١٢٥٢ وإيقافها سكناً لستة عشر طالباً علمانياً من المتازين فى دراسة فلسفة اللاهوت ، وصار هذا الحدث نقطة تحول كبير فى تاريخ الجامعات ، لأنه كان بداية السربون الشهيرة أقدم الكليات الجامعية ، كما كان أصل فكرة إنشاء المساكن الجامعية فى الغرب وانتشرت الفكرة طولا وعرضاً فى أوربا ولاقت قبولا عظيما ولا سيما فى انجلترا (١) .

وإذا كان الطالب الإنجليزى — فى القرن الثانى عشر والثالث عشر — أشبه شىء بالجندى الصليبى ، كلاهما حاج على سفر ، يحمل ماخف حمله فحسب وكلاهما ساع فى طلب العلم من منابعه ولو طال السفر والسعى . ولم يوجد من الرواتب والأرزاق

(١) Carl : op. cit., p. 270.

الجارية ما يربط أحداً إلى بلد دون غيره من البلاد ، أخذ المعلمون والطلاب فى التنقل من مدينة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر ، تارة فرادى وتارة فئة قليلة العدد ، وتارة فئة كثيرة شاملة لقوم من المعلمين والطلاب من بنى جلدتهم جميعاً ، تنفيذاً لأمر ملكى يصدر إليهم كما حدث فى تكوين جامعة اكسفورد السابقة الذكر ، أو إعلانا باحتجاج أو سخط على حيف نزل بهم ، كما حدث فى تكوين جامعة كمبردج سنة ١٢٠٩ م التى سلخت من اكسفورد عقب نزاع وقع بين طلبة اكسفورد وأهل تلك المدينة الذين أعدموا ثلاثة وقتل اثنين من الطلبة شنقاً أثناء ثورة نشبت بينهم وبين موظفى الكنائس فى عهد الملك حنا ، وأدت تلك الفعلة الشنيعة إلى تشتيت ثلاثة آلاف طالب وأستاذ ، ذهب بعضهم إلى مدينة كامبردج حيث وضعوا نواة لجامعتها الشهيرة، على حين ذهب البعض الآخر إلى ريدنج Reading واحتجت الكنيسة لدى الملك حنا على سلوك أهل أكسفورد ، وحملته على فرض عقوبة مالية سنوية عليهم يدفعونها للجامعة ، وقررت الكنيسة وضع الطلبة المشاغبين تحت إشراف أسقف كنيسة نتكولن ، فكان هذا بداية تدخل السلطة الدينية فى الشئون الجامعية بأكسفورد (١) .

وتعددت الهجرات العلمية من أكسفورد إلى مدن أخرى على مر السنين ، منها هجرة سنة ١٢٦١ إلى نورثمبتون وأخرى إلى سالسبوى سنة ١٢٣٨ ورابعة إلى استامفورد ١٣٣٤ ، ويبدو أن الأخيرة تركت فراغا علمياً ملموساً فى جامعة أكسفورد ، الأمر الذى جعلها تحرم — حتى سنة ١٨٢٧ — على طلبتها منحهم أجازتهم العلمية إلا إذا أقسموا بألا يحاضروا فى جامعة ستامفورد . على أن قيام جامعة فى مدينة انجليزية نتيجة هجرة علمية من مدينة إلى أخرى أدى إلى تردد ولترمرتون كثيراً قبل البت فى بناء كليته بأكسفورد (٢) . إما أسطورة إسناد تأسيس جامعة كمبردج إلى الأمير الأسبانى كانتابر Cantaber ٥٣١ م فهى مجرد محاولة لجعل تاريخ قيامها أقدم من أسطورة تأسيس الملك الفرد لجامعة أكسفورد ولئن اختلف المؤرخون حول وجود مدارس بمدينة كمبردج قبل سنة ١٢٠٩ فمن

---

(١) Rashdall, p. 588.

(٢) حاشية ١ ص ٩٥ من Curtis

المؤكد قيام جامعة منظمة بها حوالى ١٢٣١ م وكما حدث فى أ كسفورد قامت الجامعة فى كمبردج على نظام الأروقة والعمداء ونمت بها كليات معدة للسكنى والدراسة أيضاً . وكثيراً مانشأ الخلاف بين الشماليين والجنوبيين فى تلك الأروقة وتسبب عنه هجرة بعضهم إلى جهات أخرى وتأسيسهم الجامعات ، ومن أمثلة ذلك الخلاف ما وقع ١٢٦١ م واشترك فيه أهل كمبردج واشتعلت بسببه النيران فى المنازل واحترقت المخطوطات .

ويمكن القول أخيراً أن كلة جامعة تعنى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نقابة من الطلبة Universitas Schol arium أشبه بنقابات التجار والطرزية والجزارين وغيرها من النقابات الحديثة ، تشرف على شئون الطلبة ومصالحهم ثم تطورت وتكونت نقابات من المدرسين Universitas magistrorum واستنبط كل منها مجموعة من القواعد واللوائح لتنظيم شئونها ، ومن هذه النقابات نشأت فكرة الجامعة التى جعلها بعض كتاب العصور الوسطى فى مرتبة البابوية والإمبراطورية من حيث الأهمية ، وهى نتاج المنافسة الفكرية فى العصور الوسطى من غير شك . والاصطلاح العادى فى العصر الوسيط للجامعة هو Studium generale وتطلق كلمة Studium على أى مدرسة أو مكان للتدريس والتعليم ، أما عبارة Studium generale فتطلق على المكان المخصص لجنسيات مختلفة من الطلبة جاءوا من جميع أنحاء العالم(١) .

والحاصل أن الجامعات الإنجليزية كغيرها من الجامعات الأوربية نشأت طواعية لحركة تلقائية تحت حماية الكنيسة وفى ظل إرشادها ، تلبية لمسيس حاجة المجتمع إلى أطباء ومحامين ومثقفين من رجال الدين . ولذا جاء الطلبة إلى مختلف الجامعات من الطبقة الوسطى وماليها من الطبقات فى المجتمع ، ورأى الفقير الطموح طريقاً مفتوحاً لمواهبه العقلية ، كما رأى الأمير أن تطور العصر يحتم عليه معرفة القراءة والكتابة ، وآية ذلك ندرة من يعرف القراءة والكتابة باللاتينية من ملوك انجلترا قبل ١١٠٠ م ، على حين أن ملوكها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عرفوا

---

(١) فيشر ج ١ ص ٢١٤ — زيدان ص ٣٤ — Curtis, p. 57

القراءة بها على الأقل ، وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عرفوا القراءة والكتابة معاً باللاتينية والإنجليزية والفرنسية (١) .

* * *

وناحية أخرى من نواحى الحياة الفكرية بانجلترا فى العصور الوسطى وهى الديرية وهيئاتها فى تلك العصور، والديرية أو الرهبنة فكرة فلسفية قديمة ، عرفها الإنسان قبل المسيحية ، رجاء الانعزال عن العالم فى عيشة طاهرة هادئة . ابتدأت الرهبنة فى الشرق ونشأت فى الصحارى المصرية أولا بدعوة من أول راهب مصرى تسمع عنه هو القديس بولس الطيبى ، أحد أبناء الصعيد ، ولعله كغيره من معاصريه لجأ إلى الصحراء فراراً من اضطهاد الإمبراطور ديكيوس Decius ( ٢٤٩ — ٢٥١ ) (٢) . وجاء بعده القديس أنطونيوس المصرى ( ٢٥١ — ٢٥٦ ) الذى حج إلى بيت المقدس وباع أملاكه وتصدق بثمنها ولجأ إلى الصحراء فاقتدى به آخرون ، وتكونت حوله جماعة صغيرة من الرهبان ، عاشوا تحت سقف واحد ، فنشأت من ثم الأديرة وفق نظم خاصة فى فجر القرن الرابع فى مصر ، ومنها انتقلت إلى الشرق والغرب ويعتبر باخوم منشىء الرهبنة الجماعية وهى النظام الشائع فى الغرب . والحق أن الفضل فى تنظيم الرهبنة يرجع إلى عبقرية باخوم ، فقد كان للقواعد التى وضعها تأثير بالغ فى نمو أنظمة الرهبنة فى المسيحية الغربية وغيرها(٣) .

على أن الرهبنة الفردية احتفظت بمكانتها إلى جانب الجماعية فى صور مختلفة ، منها رهبنة الأعمدة ، وأول رهبان الأعمدة هو القديس سمعان العمودى الذى عاش طيلة الثلاثين عاماً الأخيرة من عمره فوق عمود يرتفع عن الأرض عشرين متراً ، والعمود قائم إلى اليوم فى مكان يعرف باسم قلعة سمعان بين أنطاكيه وحلب(٤) .

---

(١) Ariz, p. 306.

(٢) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى : تأليف بل وتعريب عواد وعبد اللطيف ص ٢١٦ .

(٣) تكوين مصر : محمد شفيق غربال — طبعة ١٩٥٧ ص ٧٤ .

(٤) بل ص ٢٢١ .

وفى القرن السادس ظهر القديس بندكت (٤٨٠ — ٥٤٣) الذى وضع للأديرة نظاماً خاصاً مكنها من الاستقرار والنمو ، تعهد بموجبه الراهب أن يعيش فقيراً أعذب ، يكد ويكدح فى الكنيسة والدير والحقل ، وأن يتعلم ويعلم ، وأن يعيش مع من فى الدير على هيئة مجتمع ، وألا يخضع الدير إلا للبابا شخصياً ، وألا فرق بين رومانى ومتبربر وعبد وحر داخل الدير .

ثم تطرق الفساد إلى نظام الأديرة ومن فيها ، وأشار القرآن الكريم إليه فى الأخبار عن سيدنا عيسى عليه السلام وأنصاره بقوله « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون »(١) وبلغ فسقهم القمة فى القرن العاشر ، ولزم الأمر إصلاح الديرية من جديد . وتتابعت الهيآت الديرية فى غرب أوربا بعضها تلو البعض تبغى الإصلاح ما استطاعت ، فظهرت شارترو بعد كلونى ، وجاءت سيتو بعد شارترو ، ثم حلت بريمونتريه Prémontré محل سيتو وكلها بفرنسا (٢) .

وفى بداية القرن الثالث عشر ظهرت حركة رهبنة أخرى على يد القديس فرنسيس الإيطالى النشأة والمنسوب إلى بلدة أسيسى Assissi وأسس جماعة الإخوان الفرنسسكان Franciscans . كان أبوه بائع قماش متجول فى أسواق فرنسا ومنها اشتق اسم الجماعة . كره الإبن حرفة أبيه والتحق بالجندية واشترك فى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة والتى كانت وجهتها مصر ، فنزلت دمياط واستولت عليها فى صيف سنة ١٢١٨ ولكنها عجزت عن الاحتفاظ بها ، فأسفر الصليبيون الأخ فرنسيس الأسيسى — وكان من المؤمنين بفكرة إقرار السلام بين الشرق والغرب عن طريق المفاوضات — إلى معسكر السلطان الكامل أيوب بفارسكور وعرض عليه شروط الصليبيين فى الجلاء عن دمياط(٣) . ثم عاد فرنسيس إلى

---

(١) سورة الحديد آية ٢٧

(٢) فيشر ج ١ ص ٢١٦

(٣) Steven Runciman : a History of the Crusades V. III, p. 150.

أوربا وأسر فى حرب أهلية وأصيب بمرض أثناء أسره ، بدل كثيراً من طباعه وأخلاقه ولما عاد فرنسيس إلى الحياة الحرة تقشف فى مأكله وملبسه ، وكرس حياته لمعالجة المجزومين وخدمة الضعفاء والمساكين والدعوة إلى إصلاح وترميم بيوت الله فالتف حوله المتطوعون ، وانتشرت طريقته وعرف وصحبه بالرهبان الصغار The friers minor . ووضع لهم من إنشائه أغنية لم يستخدم فيها لغة العبادة ، بل اللغة الإيطالية الدارجة . حمد الله فيها وشكره على نعمائه ، وصارت أغنيته قطعة من الأدب الرائع السلس ، ودلت على مبلغ تأثير الحركة الفرنسسكانية فى الأدب والدين والفن ، وهو مالم تؤثره الكنيسة بأديرتها وكاتدرائياتها . يخضع الأخوان الفرنسسكان لسلطان البابا المباشر ، ويقوم نظامها على درجات ثلاث الرهبان والراهبات والعلمانيين ، ويوضح لكل منها حقوقها وواجباتها نحو المجتمع ونحو بعضها البعض (١) .

عاصر حركة الفرنسسكان حركة أخرى منسوبة إلى القديس دومنيك الأسبانى النشأة ومؤسس جماعة الإخوان الدومنيكان St. Dominic . أطلق دومنيك على أتباعه وأتباع فرنسيس لقب الرهبان الشحاذين Mendi Cants ، ويختلفون عن سابقيهم بأنهم لم يقضوا حياتهم فى الأديرة ، وإنما جابوا الآفاق وأرسلوا البعثات الأجنبية إلى كل الأقطار ، واختلطوا بصنوف الناس ، داعين إلى السلام والمحبة والخير تشبهاً بالسيد المسيح . وكان لجماعة الدومنيكان نشاط واضح فى جنوب فرنسا حيث كرسوا حياتهم لمقاومة حركة الالحاد التى دعت إليها طائفة الألبيجنس(٢) Albigensians المنسوبة إلى مدينة albi بمقاطعة تولوز حيث فشلت البابوية فى الحد من نشاط أولئك المتشككين لانتشار تعاليمهم بين العام والخاص واعتناق الأمراء لها . وأرسل البابا أنوسنت الثالث بعثة إلى ريموند السادس كونت تولوز للتفاوض فى وسائل محاربة تلك الحركة الهدامة ، غير أن رئيس البعثة اغتيل فى بلاط الكونت سنة ١٢٠٨ م وتأزمت العلاقات بينه وبين البابا ، ودعا الأخير أهل شمال فرنسا لمحاربة أهل جنوبها فى حرب مقدسة اشترك

---

(١) Carl, p. 348.

(٢) Trevelyan, p. 186.

فيها فيلب أغسطس ملك فرنسا والأمير سيمون دى منتفورت الذى منح أمارة تولوز مكافأة له على شجاعته وخدماته للكنيسة . ولم يخمد الحركة الإلحادية أخيراً سوى مجهودات جماعة الدومنيكان التى أخرجت طائفة ممتازة من الوعاظ والمدرسين عالجت كثيراً من مشاكل الدين التى عجزت الكنيسة عن حلها(١) .

وكيفما كان أمر الحركة الديرية فى القارة فانها انتشرت فى انجلترا من الجنوب إلى الشمال انتشاراً سريعاً على الطريقة البندكتية منذ قدوم البعثة الأوجسطينية فى أوائل القرن السابع الميلادى وغمرت الجزيرة موجة من الحماس الدينى الكبير فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن الثانى عشر على أثر استقرار الأوضاع السياسية ، وتمخضت عن تلك الموجة نشأة عدة أنظمة دينية جديدة ومنها ، الأوجسطينية والبندكتية والكلونية والسسترشيانية والريفولكسية Reivaulx وتختلف كل منها فى أنماطها وتعاليمها عن الأخرى ، وتخدم أغراضاً متنوعة فى الحياة الدينية بوجه خاص والاجتماعية بوجه عام ودلت الإحصاءات على وجود ٤٨ منزل بندكتى و ٣٦ راهباً و ١٢ راهبة بانجلترا حتى ١٠٦٦ م وارتفع هذا العدد سنة ١١٥٤ م إلى ٢٤٥ منزل للرهبان و ٧٢ للراهبات موزعة بين ستة أنظمة دينية ، وفى سنة ١١٤٢ م كان للطريقة الريفولكسية بانجلترا ٦٥٠ راهباً على حين لايزيد عدد الرهبان البندكتيين فى كنيسة كانتبرى وحدها على ١٥٠ راهباً(٢) .

ولاشك أن الحركة الديرية ساهمت بنصيب وافر فى تنمية النواحى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع الإنجليزى ، وإذا كان الدير فى كثير من الأحيان مركزاً لأعمال التبشير بالمسيحية فى بلاد وثنية ، ومصرفاً لايداع الأموال ، ومنزلا لراحة أصحاب الأسفار ، ومالكا للأراضى المفتقرة إلى الإصلاح والزراعة ، ومقراً للتعليم والتوفر على العلم ، ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التى تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشئونها وحاجاتها الكثيرة ، وملتقى الأخبار السيارة وسجلها ، ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها . وتدين انجلترا بكثير إلى الديريين السسترشيين Cistersians وغيرهم الذين ألفوا حولياتها التاريخية فى اللغة اللاتينية ،وأهل الأديرة

---

(١) Carl, p. 346 - p. 350.

(٢) Painter, pp. 140-143.

هم الذين دونوا أخبار القرون الواقعة بين الغزوات الجرمانية وقيام الجامعات فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، حين كانت مكتبة الدير Scriptorium دون غيرها آمن الأمكنة للدرس ، بل لم تعجز الأديرة الإنجليزية عن أن تنجب مؤرخاً بمعنى الكلمة بين حين وحين مثل ديرجارو وديرسانت ألبانز بانجلترا ، حتى إذا طلع القرن الثالث عشر الميلادى انتقل التأليف فى التاريخ من أولئك الديريين وأديرتهم إلى العلمانيين الذى أخذوا يضعون فى لغاتهم القومية ما يرون بأعينهم من الأشياء ويسمعون ما يسمعون بآذانهم عن الناس مثل جوانفيل الفرنسى وفرواسار الفلمنكى فى تاريخ انجلترا وفرنسا(١) . وتوجد إلى اليوم أطلال الأديرة السسترشيانية الكبرى فى وديان يوركشير وعلى ضفاف نهر السيفر ونهر الواى Wye تنطق بما قدمه رهبانها للمجتمع الإنجليزى من خدمات جليلة ولا سيما فى الزراعة ، إذ بدلوا حياة الناس من الفقر إلى الغنى وحولوا أراضيهم الجدبة إلى مراعى خصبة لتربية أجود أنواع الغنم وإنشاء تجارة واسعة من أصوافها (٢) .

ثم تطورت المدنية الأوربية إلى المرحلة الحاضرة ، ومال البروتستنت المحدثون وكذلك الملحدون ميلا شديداً إلى اعتبار الرهبنة جبناً وهروباً من مواجهة الحياة ومسئولياتها(٣) . وسرعان ما تغيرت أوضاع الأديرة فى المجتمع الأوربى بوجه عام تمام التغيير وانحصر نشاطها فى الأعمال الإنسانية مثل خدمة المرضى ومواساة الفقراء وتعليم الصغار مبادىء القراءة والكتابة والدين . وحسب الرهبنة — سواء أخذت عن اليهودية أو الوثنية المصرية — أنها أهم نظام استحدثته مصر فى الديانة المسيحية وقدمته إلى دول غرب أوربا بالإضافة إلى ما قدمته من أنماط فنية دقيقة ترجع إلى العصر القبطى المسيحى ، إذ ذكر أحد المؤرخين فى الدليل الذى وضعه عن أقدم الآثار المسيحية والبيزنطية فى المتحف البريطانى بلندن أنه عثر على آنية برونزية من طراز قبطى فى مقابر انجليزية سكسونية (٤) .

---

(١) فيشر ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٩

(٢) راوس ص ٥٧ — Painter, p. 144

(٣) بل مصر من الاسكندرية ص ٢١٦

(٤) غربال ص ٧٣

# الفصل السادس

## انجلترا وحرب المائة عام

## ١٣٣٨ - ١٤٨٥

تعريفها — أسبابها — بلاد الفلاندز السبب المباشر — ١٣٤٦ سنة العجائب — انتصار الإنجليز فى الجولة الأولى — أثر تجارة الأصواف فى الاقتصاد والسياسية — الموت الأسود ١٣٤٨/١٣٤٩ وأثره الاجتماعى — انتصارات الأمير الأسود فى بواتييه وغيرها ١٣٥٦ — ثورة الفلاحين الفرنسيين ( الجاكبرى ) سنة ١٣٥٨ — معاهدة كاليه سنة ١٣٦٤ — إصلاحات شارل الخامس ملك فرنسا — إصلاحات إدوارد الثالث ملك انجلترا — حنا ويكلف — شوسر — نهضة الأدب الإنجليزى — انجلترا وفرنسا بعد وفاة ملكيهما — ثورة الفلاحين الإنجليز سنة ١٣٨١ وأثرها فى الأدب والسياسة — رتشارد الثانى والحريات الدستورية — هنرى الخامس ملك انجلترا يوحدها مع فرنسا فى تاج مشترك ١٤٢١ — جان دارك وتحرير فرنسا من الإنجليز ١٤٢٩ — الدور الأخير من حرب المائة عام ونهضة فرنسا فى عهد شارل السابع — نتائج حرب المائة عام — إنجلترا وحرب الوردتين ( ١٥٣٥ — ١٤٨٥ ) .

يعتبر المؤرخون عام ١٠٦٦ وعام ١٩١٤ من الأعوام الهامة الفاصلة فى تاريخ العلاقات الفرنسية الإنجليزية ، لأنه على الرغم من السلام السائد لفترات كثيرة بين البلدين خلال تلك الثمانية قرون ونصف المحصورة بين هذين العامين ، وعلى الرغم من التحالف القائم بين البلدين بمقتضى معاهدات عديدة خلال تلك القرون فإن فرص قيام جيوش الدولتين بحرب مشتركة ضد عدو لهما جنباً إلى جنب قليلة للغاية بل أن الطابع العدائى بينهما كان هو البارز والغالب . وأحسن فترة لدراسة الجانب العدائى بينهما هى الفترة الواقعة بين عامى ١٣٣٨ و ١٤٥٣ والتى اصطلح المؤرخون على تسميتها بحرب المائة عام ، لأن القتال فيها سار على فنون وأساليب ومعدات حربية من طابع عتيق وسيط ، وامتص النزاع فيه جزءاً كبيراً من موارد الدولتين البشرية والمادية ، مما كان له أبعد الأثر فى السياسة العامة لغرب أوربا ، ولهذا صار الإلمام بحرب المائة عام أمراً ضرورياً ، إذ بدونه لايفهم التاريخ السياسى والإجتماعى والإقتصادى لغرب أوربا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فضلا عن أن حرب المائة عام تكون حطاما هاما فى تاريخ الأنظمة العسكرية(١) .

وحرب المائة عام عدة حروب متقطعة . تخللها فترات طويلة قامت بين مملكتى انجلترا وفرنسا ، واستغرقت مائة عام من ١٣٣٨ إلى ١٤٥٣ م أو مايزيد قليلا وتنقسم حروب المائة سنة إلى قسمين : يشمل أولهما تقريباً عهد الملك إدوارد الثالث وابنه المعروف بالأمير الأسود Black prince وأعقب ذلك سلام تخللته طائفة من المتاعب والقلاقل الداخلية بانجلترا مدة حكم الملكين رتشارد الثانى وهنرى الرابع . ثم بدأ القسم الثانى من تلك الحروب العدوانية بأرض فرنسا على يد الملك الشاب الفاتح هنرى الخامس ، وظلت أعواماً حتى خمد أوارها فى وسط عهد ولده التقى الوديع هنرى السادس .

ظهرت بوادر النزاع بين انجلترا وفرنسا على أثر انقراض أسرة هيوكابت — الأسرة المالكة فى فرنسا — سنة ١٣٢٨ بموت شارل الرابع بن فيلب الرابع المشهور بفليب الجميل ( ١٣٢٢ — ١٣٢٨ ) دون وارث ذكر ، وبادعاء إدوارد الثالث

---

(١) Painter, p. 323

ملك إنجلترا حق تتويج نفسه ملكا على فرنسا لأن والدته الأميرة إزابلا ابنة فليب الرابع المعروف بفليب الجميل ، وأعلن إدوارد الثالث أنه إذا مالم يكن للأنثى حق فى عرش فرنسا بحكم القانون فالقانون لايحرمها من نقل حقها فى العرش إلى أبنائها الذكور(١) . غير أن علماء القانون الفرنسى أفتوا بعدم جواز اعتلاء عرش فرنسا لسيدة أو وريثها ، وانتخب الفرنسيون فليب السادس (١٣٢٨ — ١٣٥٠) أول ملوك أسرة فالوا Valois وابن عم فليب الرابع ملكا عليهم ، ولم ير إدوارد الثالث فى أول الأمر بدأ من الواقع والاعتراف بفليب السادس ملكا على فرنسا وسيداً له فى إقطاعيته الغسقونية بفرنسا والذهاب إلى باريس سنة ١٣٢٩ لحضور رسم تتويجه (٢) .

على أنه سرعان ماتجلى تصميم ملوك انجلترا على البقاء فى ممتلكاتهم الفرنسية مع العمل على رجوع ما قد ضاع منها ، كما تجلى عزم ملوك فرنسا أنفسهم على طرد الإنجليز من بلادهم والقيام بينهم وبين العودة إليها مهما كلفهم ذلك من حروب . وكمن تحت هذا السبب رغبة ملوك انجلترا فى السيادة على فرنسا وهى بلاد أكثر غنى وخصباً وحضارة من بلادهم ، وأكثر سكاناً إذ يبلغ عددهم ستة عشر مليوناً منهم إثنا عشر مليوناً يسكنون أرض التاج الفرنسى ، ونقطة الضعف فى تلك البلاد الفرنسية أنها منقسمة على نفسها انقسامات مختلفة ، فضلا عن كونها أول تنظيما من انجلترا التى يبلغ عدد سكانها مليونين وهم دون الفرنسيين فى معيشتهم الاجتماعية . وتغلغل الاعتقاد فى نفوس الإنجليز عامة بأن الحرب مع فرنسا ضرورة لازمة لوضع حد للاصطدامات المستمرة بين البحارة الفرنسيين والإنجليز فى موانى بحر المانش بسبب انتشار القرصنة انتشاراً مخيفاً ولا سيما بعد أن صارت عملا مشروعاً ، أقره ملوك البلدين فيما يعرف بخطابات أخذ الثأر letters of reprisal (٣) . واعتقد الإنجليز أن هذه الحروب سوف تحقق لهم غرضين حيويين : أولهما أنها

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٣١٥

(٢) Woodward p. 64

(٣) Painter, p. 325

تمكن البحرية الإنجليزية من السيطرة على جانبي هذا البحر ، وثانيهما أنها تؤكد بيع أصواف أغنامهم بأسواق المدن الفلمنكية الصناعية ، وتسهل عليهم شراء كميات النبيذ التي يريدونها من بوردو ، فضلا عن إيجاد أسواق جديدة بالقارة الأوربية لتصدير حديدهم وجلودهم إليها . وزاد في تلك الروح العامة المتحمسة للحرب ما اتصف به الإنجليز من صفات حربية جديدة بعد أن حلت النظم المستندة إلى الخدمة الحربية في جيش ملكي ثابت محل النظم الإقطاعية القديمة القائمة على العهد الإقطاعي وشروطه ، وبعد أن أصبح الجيش الإنجليزي ممثلا للأمة ، لا لطبقة من الطبقات كما هو الحال في الجيش الفرنسي الإقطاعي (١) .

ثم إن فرنسا أيدت رسمياً منذ ١٢٩٥م قضية الاستقلال الاسكتلندي ضد ادعاءات العرش الإنجليزي في هذه القضية . وبفضل هذا التأييد انتصرت اسكتلندا عسكرياً على انجلترا ، واعترف إدوارد الثالث كارها باستقلال تلك البلاد سنة ١٣٢٨ . وتحرر بذلك ملكها روبرت بروس من التبعية التي أقسم أسلافه على عهد إدوارد الأول على تقديمها لملوك انجلترا . ثم حدث أن ثار باليول ضد دافيد بروس خليفة روبرت بروس سنة ١٣٣١ ، وآزره في ثورته إدوارد الثالث وهزم جيوش دافيد الملك الشرعي في هاليدن هيل ١٣٣٣ ، وأجبره على الفرار إلى فرنسا ، حيث رحب به فيلب السادس ترحيباً حاراً ، يشبه فيما بعد ترحيب لويس الرابع عشر بجيمس استيوارت . أما باليول فتنازل عن برويك Berwick لإدوارد الثالث مقابل تأييده وحماية عرشه ، كما أعلن تبعيته لانجلترا في فبراير سنة ١٣٣٤ . وآوى إدوارد الثالث من ناحيته روبرت كونت أرتوز Artois أحد المطالبين بالعرش الفرنسي ، ومنحه لقب كونت رتشموند ، وشمله بعطفه وكرمه في بلاطه في لندن ، واختمرت في عقل إدوارد فكرة تجديد الحرب التي أكره إدوارد الأول على إيقافها فجأة سنة ١٢٩٧ م (٢) : ولا سيما بعد أن ساعدت فرنسا علنا بجنودها حزب دافيد بروس بإغارة جنودها الملحقين بالجيوش الاسكتلندية على أطراف انجلترا الشمالية وغدت كذا

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٣١٤

(٢) Pirenne, p. 426

شخصية كل من فليب السادس وإدوارد الثالث المولعتين بالفروسية والقتال من العوامل المعجلة بقيام الحرب بين المملكتين .

على أن أحداً من هذه الأسباب لم يكن سبباً مباشراً لقيام حرب المائة عام وإنما نشبت هذه الحرب نتيجة حادث وقع فى بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسى تبعية إقطاعية والرغبة فى الاستقلال عنه . ففى سنة ١٣٣٦ ألقى الكونت لويس صاحب الفلاندرز — بناء على تعليمات صدرت إليه من سيدة فليب السادس بباريس .— القبض على جميع المقيمين ببلاده أو العابرين إليها من الإنجليز ، وزج بهم فى السجون بتهمة تحريضهم أهل الفلاندرز على الثورة ضد السيادة الفرنسية وتغذيتهم بالآراء الثورية التقدمية (١) . وردت انجلترا على ذلك الإعتداء الشنيع فى السنة التالية بمنع تصدير الأصواف الإنجليزية إلى بلاد فلاندرز ومنع الأسواق الإنجليزية من استيراد الأقمشة الصوفية الفلمنكية رغبة فى شل الحركة التجارية . وسعى إدوارد فى الوقت نفسه إلى حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم إلى بلاده وأسكنهم فى إقليم نورفلك Norfolk وبدأت تظهر صناعة الأصواف فى ذلك الإقليم ، وكانت النتيجة الطبيعية لتلك المقاطعة التجارية بين انجلترا ومدن الفلاندرز أن حل الجراب الإقتصادى بالأخيرة ونسبه الأهالى إلى سياسة ملك فرنسا الخاطئة فقامت الثورات فى تلك المدن التى سادت بها روح النظم الانجليزية الديمقراطية نتيجة الروابط التجارية القديمة بين الإقليمين . وتزعم هذه الحركة الحرة يعقوب فان ارتفيلد Van artevelde صاحب التجارة الواسعة فى المنسوجات بمدينة جنت الذى فضل رخاء اقتصادياً لبلاده فى ظل تحالف حر مع إدوارد الثالث ملك انجلترا ، على خراب اقتصادى فى ظل تبعية إقطاعية لفيليب ملك فرنسا ، وبفضل تحالفه مع انجلترا نجح فى طرد الكونت لويس والسيادة الفرنسية عن بلاده وأقنع الملك إدوارد الثالث بوجوب المطالبة بالتاج الفرنسى ، بعد أن عقد معه معاهدة لعودة تصدير الأصواف الإنجليزية إلى جنت(٢) وأعطت هذه المعاهدة إدوارد الثالث قاعدة

---

(١) حقائق الأخبار عن دول البحار لإسماعيل سرهنك حـ ٣ ص ١٠٩

(٢) فيشر حـ ٢ص ٣١٨ — Trevelyan p. 224

حربية فى شمال بحر المانش من ناحيته القارية لشن الغارات منها على طول الساحل الفرنسى . وقامت الدلائل على قرب اندلاع الحرب بين انجلترا وفرنسا فأرسل البابا من عاصمته افينون رسولا إلى إدوارد ليفاوضه فى الصلح مع فرنسا ، وتظاهر إدوارد بقبول الفكرة حتى يستفيد من الزمن فى الاستعداد للحرب ، فاتصل بأمراء شمال غرب أوربا الناقمين على الملكية الفرنسية وأسرع إلى دعوة برلمان انجلترا ليحصل منه على موافقته فى إعلان الحرب .

وبذا نشبت حرب المائة سنة بين انجلترا وفرنسا وقاد إدوارد أسطولا كبيراً يتكون من ثلثمائة وستين سفينة حربية ، يحمل اثنى عشر ألف مقاتل ، وقيل مائتى ألف ، ثلثا عددهم من الرماه ، ولما وصل إلى بلاد الفلاندرز أرسلت فرنسا اسطولا مكوناً من أربعمائة سفينة حربية يحمل ستين الفاً من المقاتلين الإقطاعيين لمنع إدوارد من النزول إلى البر ، ودارت المعركة الحربية بين الأسطولين يوم ٢٣ يونية سنة ١٣٤٠ عند سلويز sluys شرقى أوستند الحالية حيث انتصر الإنجليز انتصاراً مبيناً بفضل المساعدات التى تلقاها إدوارد من يعقوب فان والفلمنكيين ومن كونت ارتواز وغيره من الأمراء القاريين المناصرين للقضية الفلمنكية ، فضلا عن أن إدوارد قاد المعركة بمهارة أخجلت الفرنسيين إذ جعل أقوى سفينة فى الامام وزودها بحاملى السهام فى كل جانب منها ، فجعل بين كل فرقتين من حاملى السهام فرقة من حاملى الأسلحة الأخرى(١) .

كانت سلويز أول وقائع حرب المائة سنة الكبرى ، طلب بعدها الفرنسيون الصلح فعقدت بينهم وبين الإنجليز هدنة اسبليشن Esplechin ومدتها عام تجددت لمرات عديدة فى السنوات القادمة ، وانحصرت أهمية سلويز فى أنها جعلت الإنجليز وتجارتهم سادة بحر المانش مدى ثلاثين عاما ، وأمنت طرق الاتصال بينهم وبين أحلافهم من المدن الفلمنكية مثل بروج وغنت وايبرس ، كما أنها أول نصر بحرى فى التاريخ الإنجليز كله ، ومن ثم صارت السيادة على بحر المانش ركناً أساسياً للسياسة البحرية فى انجلترا .

---

(١) حقائق الأخبار ج ٣ ص ١١٠ Ellis and Fisher, p. 127 — Pirénne, p. 428

على أن مشروع مهاجمة فرنسا من الشمال باء بالفشل بسبب اغتيال فان فيلد سنة ١٣٤٥ وهو أكبر مؤيدى المشروع والمتحمسين له على أثر قيام ثورة الغزالين فى مدينت غنت ، وبسبب تفكك عرى وحدة الأمراء المؤيدين له فى بلاد الفلاندرز ولذلك اتجه إدوارد إلى إشعال الحرب فى جهة أخرى بفرنسا وهى دوقية بريتانى ، حيث تنافس عليها منذ ١٣٤١ شارل بلو Charles Blois الذى أيده ووقف إلى جانبه ملك فرنسا لأنه ابن أخيه ، وحنا منتفورت زعيم القسم الذى تسوده اللغة السكلتية والسكان السكلتيين من الدوقية أى القسم الكاره للنفوذ الفرنسى وعدوانه الجائر وأيد ملك انجلترا حنا منتفورت ووقف إلى جانبه . قامت الحرب أولا بين المتنافسين على الدوقية سنة ١٣٤١ وتدخل ملك فرنسا لمصلحة شارل وأسر حنا منتفورت وأرسله إلى باريس وقادت زوجته الأميرة جان الجيوش ضد فرنسا واستعانت بإدوارد الثالث فحضر لنجدتها ، غير أنه عقد صلحا مع فرنسا لمدة ثلاث سنوات .

وفى سنة ١٣٤٥ تحركت جيوش إدوارد من ثلاث جهات هى نورمانديا وبريتانى وأقطانيا كأنها حركات تجمعية غرضها وسط فرنسا ، وتوغلت فى الداخل حتى اقتربت من باريس ثم عادت وتقهقرت إلى بلاد الفلاندرز وهناك قابلت الفرنسيين فى كريسى Crecy وبواتييه واجنكورت فى عام ١٣٤٦ السنة المشهورة بسنة العجائب Annus Mirabilis فى التاريخ الإنجليزى لأن كتائب الرماة من فرق المشاة الإنجليزية أحرزت النصر على فرسان الجيوش الفرنسية الإقطاعية فى تلك المعامع الثلاث السابقة بأرض فرنسا . وفقد الفرنسيون فى كريسى وحدها ثلاثين ألفاً منهم ألف ومائتين من الفرسان وأحد عشر أميراً . وتقدم الانجليز لمحاصرة مدينة كالية وصبر أهلها على الحصار سنة كاملة ، ورفع عنها حين تقدم خمسة من أهل المدينة بقمصانهم وفى أعناقهم الحبال وبأيديهم مفاتيح المدينة حسب طلب إدوارد وسلموا أنفسهم له فى سبيل انقاذ المدينة من الحصار ، كما سحقت كتائب الرماه الإنجليزية الجيوش الأسكتلندية عند نيفلز كروس Nevil's Cross فى يور كشير الحاليه وأسر دافيد بروس زعيم الحزب الاسكتلندى الموالى للفرنسيين ، وظهر اختراع

المدافع لأول مرة على نطاق واسع فى عام العجائب واستعمله الإنجليزى فى وقعة كريسى فكان له أسوأ الأثر فى نفوس الفرنسيين .

ورغم النصر الذى أحرزه الإنجليز فى كل مكان فإن الحرب أعيتهم كما أعيت خصومهم تماما ورغب الجانبان فى عقد الصلح وتوسط فيه البابا كليمنت السادس ، فضلا عن أن نذر انتشار وباء الموت الأسود قد لاحت فى أفق كل من الدولتين وفى سبتمبر سنة ١٣٤٧ عقد الصلح بين الطرفين لمدة سنة . ومع هذا لم تجن انجلترا من هذه التوفيقات الحربية المتراصة فائدة ذات قيمة كبيرة ما عدا كاليه التى أضحت مدينة انجليزية منذ سنة ١٣٤٧ وترسل ممثلين عنها إلى البرلمان الإنجليزى بلندن ، وصارت ملتقى جميع الطرق الإنجليزية القاصدة شمال فرنسا ، ومركزاً كبيراً للاتجار مع بلاد الفلندرز ، وظلت كذلك حتى عهد الملكة مارى التيودوريه فى القرن السادس عشر الميلادى أى سنة ١٥٥٨ حين استردها الفرنسيون نهائياً من انجلترا (١).

* * *

وكيفما كان الأمر فإن انجلترا كسبت الجولة الأولى فى حرب المائة عام بفضل ارتكازها على أسس اجتماعية وسياسية عامة تهدف للصالح العام ، فتعاون التاج مع البرلمان تعاوناً صادقاً وأدرك أعضاء البرلمان أن شرف الأمة مرتبط بهم وشرفهم وكرامتهم من كرامة ملكهم ، وحارب الرماه من الفلاحين والمزارعين جنباً إلى جنب مع طبقة الفرسان من النبلاء ورجال الدين يغمرهم شعور الكرامة القومية ، وغدا النزاع مع فرنسا نزاعا مع شعبهم ، وما داموا قد بدأوا حربا لا ناقة لهم فيها ولا جمل سوى أن يكون غرضها أن يمنح ملكهم تاج فرنسا وأن الكرامة والوجب يتطلبان منهم الاستمرار فى مؤازرة ملكهم حتى النهاية ، ولا يلقون سلاحهم إلا مكرهين تحت ضغط الضعف والاعياء (٢) . وكسبت انجلترا النصر

---

(١) Oman, p. 41

(٢) Pirene, p. 421

كذلك فى تلك الجولة بفضل تكوين جيوشها المتحاربة وفن قيادتها فى ميادين القتال ، حيث تفوقت جماعات الرماة والرجالة المكونة من الفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى بأقواسها الطويلة المصنوعة فى بلاد الغال والتى يبلغ طول الواحدة منها سته أقدام ، وتقذف النشابه إلى مسافة مائتى خطوة بمعدل عشر واثنى عشرة نشابه (arrows) فى الدقيقة الواحدة مقابل نشابتين لحامل القوس القديمة (١) تفوقت هذه الجماعات الإنجليزية على طبقة الفرسان الفرنسيين الإقطاعيين ذوى الدروع الثقيلة والزرد المانع والنظام القليل ، ولذلك ركن الفرنسيون فى تاكتيكهم إلى الأساليب الفابيوسية المنسوبة للقائد الرومانى المعروف بذلك الاسم Fabius فاجتنبوا الدخول مع الانجليز فى معارك فاصلة مما حمل الانجليز على التدمير والتخريب فى المدن والمزارع الفرنسية (٢) . وما يحتاج إلى تفسير هنا هو لماذا خسرت فرنسا هذه الجولة من تلك الحرب رغم ماهىء لها من مقومات النصر ، فهى تقف موقف المدافع عن نفسها فى أرضها ، وسكانها يبلغون ثلاثة أضعاف سكان إنجلترا ، وبلادها أكثر غنى من إنجلترا ، ولايزال تحتفظ بقوات كبيرة محاربة ، وخطوط تموين جيوشها قصيرة ومؤمنة ، الظاهر أن هناك أسبابا أخرى أفقدتها النصر منها طبيعة نظم الحكم الفرنسية التى سادت فرنسا من عهد فيلب أغسطس ( ١١٨٠ — ١٢٢٣ ) حتى عهد فيلب الطيب ( ١٣٥٠ — ١٣٦٤ ) ومنها تركز جميع السلطات فى يد الملك ، وعدم وجود قوى سياسية مستقلة بجانب الملك تشد أزره كما هو الحال فى إنجلترا ، ومنها انتشار الفوضى والرشا والفساد فى أنحاء المملكة الفرنسية (٣) .

ومهما كان الفرق بين القوتين المتحاربتين فى التكوين والنظم والقيادة فإن إنجلترا استطاعت بفضل سيطرتها على تجارة الصوف الخام ، وتعاملها مع مدن الأراضى المنخفضة — أهم سوق للصوف الإنجليزى — أن تمد جيوشها بالأموال اللازمة التى تطلبتها حرب المائة سنة . وكما كانت تجارة الأصواف عاملا هاماً فى الاقتصاد

---

(١) Painter, p. 329

(٢) Trevelyan, p. 826

(٣) Pirenne, p. 422

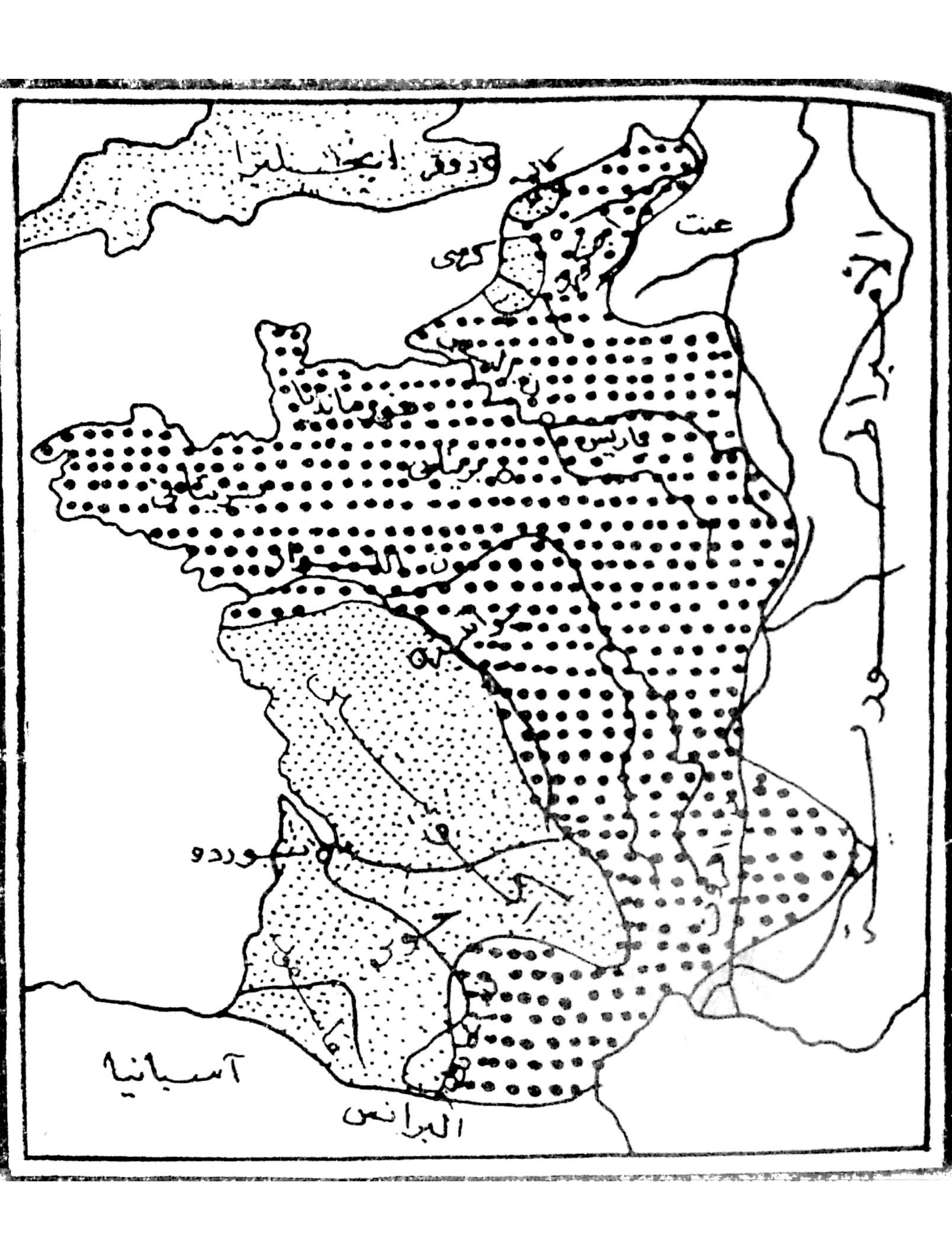
فإنها كانت كذلك فى السياسة ، لأن فرض الضرائب على الصوف الخام المصدر إلى الخارج صار محل نضال بين الحكومة والبرلمان ، وانتهى بإقرار حق البرلمان فى الاشراف عليها ، وهذا الاشراف هو الأصل والأساس لما صار إليه البرلمان من أهمية ومقام فى نظم الحكم بانجلترا . ومثال ذلك أن البرلمان منح إدوارد الثالث حق شراء عشرين ألف بالة من الصوف الخام من المنتجين البريطانيين بواقع ثلاثين جنيهاً إنجليزياً للبالة الواحدة ، وأن يصدرها إلى الأسواق الأوربية لحسابه الخاص وأن يستحوذ على أرباحها ، وفرض البرلمان على مصدرى الأصواف من المواطنين رسوما قدرها أربعين شلناً عن البالة الواحدة ومن المصدرين الأجانب ستين شلنا . وفرض كذلك على البارونات والفرسان ضريبة $\frac{1}{5}$ من دخلهم ، وعلى سكان المدن ورجال الدين عشر دخلهم . ووضعت حصيلة هذه الضرائب كلها تحت تصرف الملك لتمويل جيوشه . وبعد عام من غزو أدوارد لفرنسا احتاج إلى المال فاستدان ثلاثين ألفاً من الجنيهات ، وكتب إلى البرلمان فى طلب المال فدبر له ثلثمائة ألف جنيه ، ولكنها لم تكف ملكا مسرفا كادوارد الثالث ، فرهن تاج الدولة لرئيس أساقفة تريير Trier مقابل ستين ألفاً من الجنيهات الفلورنسية ، ورغم هذا فإنه عاد إلى انجلترا فى ربيع ١٣٤٠ ليحصل على تصديق من البرلمان بجمع $\frac{1}{9}$ الخراف و $\frac{1}{9}$ صوف الغنم و $\frac{1}{9}$ جرزة الصوف وذلك لمدة عامين قادمين (١) .

وكذلك أثرت تجارة الاصواف فى المجتمع الإنجليزى ، ففى وديان يوركشير على ضفاف نهرى السفن والواى Wye قام رهبان الأديرة السسترشيانية على تربية الأغنام وأنشأوا من أصوافها تجارة واسعة ، ومن أموالها أقيمت الكنائس البديعة والدور الفخمة ومع مرور الزمن صار معظم تربية الأغنام من أجل الصوف بيد صغار المنتجين ، فكبر عدد الطبقة الوسطى وزاد ثراؤها ، وأصبحت قادرة على الانسجام الاجتماعى مع بقية طبقات المجتمع وهو مالم يحدث فى فرنسا مثلا (٢) . وفى السنة التالية لعام العجائب شهدت أوربا كارثة اجتماعية عامة اجتاحت كل دولها ، وحصدت من الناس أكثر مما أفنته مائة سنة من الحروب فى العصور

---

(١) Oman. The Hundred years—London, p. 26,28

(٢) راجع راوس ، ، ص



كرسى
عنت
باريس
بوردو
آسبانيا
البرانس

الوسطى إذا أمتد الموت الأسود وهو طاعون دملى من أحد مواطنه بالشرق الأقصى — ولعلها الهند — عبر طرق التجارة الدولية فى تلك العصور إلى أوربا بعد أن وصل إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط .

ولقد وصف المؤرخ المصرى المشهور المقريزى هذا الطاعون وصفاً مسهباً . وقال إنه عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً . وأصاب جميع أجناس بنى آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر ، وأول ابتدائه شمال البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الثلجا ، وحملته الريح إلى بقية البلاد ، فمر باسطمبول وإنطاكيه وبغداد وجميع بلاد الشام . وابتدأ فى أرض مصر فى خريف سنة ٧٤٨هـ وانتشر فى الإقليم بأسره واشتد فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٧ م) فمات بالقاهرة والفسطاط ما بين عشرة الاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس كل يوم . ويدفن فى الحفرة الواحدة الثلاثون والاربعون . وكانت علامات الموت به أن يبصق الانسان دماً ثم يصيح ، ويموت أما مظاهره فى دمشق فكان يخرج خلف أذن الانسان خراج صغير فيخر صريعاً . ثم صار يخرج بالانسان غدة شبه الخراج تحت إبطه فلا يلبث ويموت سريعاً . ويشير المقريزى إلى انتقال العدوى به من الشرق إلى أوربا بقوله « وعم الوباء بلاد الفرنج وابتدأ فى الدواب ثم الأطفال والشباب » واشتد بالناس حتى عجزوا عن حصر الأموات (١). وصادف انتشار هذا الوباء فى الشام وجود الرحالة العربى المغربى ابن بطوطه فوصفه بقوله « شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ٧٤٩ هـ . وأمر نائب السلطان منادياً ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام متوسلين إلى الله أن يرفعه عنهم (٢) .

ومهما يكن مصدر هذا الوباء فانه انتقل من آسيا الصغرى إلى إيطاليا وأسبانيا ، ثم زحف إلى فرنسا عن طريق مرسيليا ودخل انجلترا من عام ١٣٤٨ إلى عام ١٣٤٩ عن طريق مقاطعة دور ستشر ، ثم تحول شرقاً فاجتاز ألمانيا وبلاد

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ قسم ٣ من ص ٧٧٢ إلى ٧٨٧

(٢) رحلة ابن بطوطه جـ ١ ص ٧٩

شبه جزيرة أسكندناوة ومنها اشتعل فى بولندا والنمسا وروسيا وعكف ذلك الطاعون على اختيار الشباب والأقوياء دون غيرهم من الناس وأخذهم أخذاً سريعاً بعض الأحيان إشفاقاً بهم ، وبسببه اضطرت انجلترا وفرنسا إلى الكف عن القتال لكثرة الوفيات التى اختلف المؤرخون فى أرقامها ، إذ قدرت الأموات فى انجلترا وحدها بما لا يقل عن ربع سكانها البالغ عددهم حينذاك أربعة ملايين تقريبا ، وذكر بعض المؤرخين أن انجلترا فقدت نصف سكانها وإن مدينة لندن دفنت خمسين ألف جثة فى مقبرتها الجديدة المقامة على ثلاثة عشر فدانا وإن اثنين من رؤساء أساقفة كانترى ذهبا ضحية هذا الوباء ، كما مانت بسببه الأميرة جوانا ابنة الملك وإن خسارة طبقة رجال الدين كانت أفدح من طبقات المجتمع الأخرى (١) .

ومن النتائج الاجتماعية التى نجمت عن هذه الكارثة البشرية الطامة حدوث سلسلة من التغيرات فى انجلترا ففى الاديرة اضمحل النشاط الأدبى ، وفسد النظام الديرى ، وفى المقاطعات التى أباد الوباء معظم أهلها أقفرت كنائس الأبرشيات من القسس والمصلين كذلك ، وفى المدارس حلت الإنجليزية محل الفرنسية وقام على التعليم طبقة جديدة من المعلمين ، وفى العمارة وهندسة البناء غلب الطراز المتعامد على الطراز القوطى القديم ، لبساطة التعامد وسهولة إشكاله وملاءمته لطاقات المعماريين ، لأنهم غدوا فئة قليلة بعد الطاعون حتى اضطروا إلى التنقل بين البلاد . وتأثر الفن القوطى عموماً بالموت الأسود فنما وقام على النظرة العميقة الحزينه التى تصورت عذاب النار فى قربها من الموت الأسود ، ولذلك استعمل الزجاج الملون فى الكاتدرائيات ورمزا للون الأخضر إلى النعيم للصالحين والأحمر إلى الجحيم الذى ينتظر المخطئين .

وفى مزارع انجلترا قلت الأيدى العاملة بسبب الطاعون وطالب الفلاح بأجر أحسن أكثر إغراء من الخدمة فى الأرض ثمناً لعرق جبينة ، فعجز اللوردات أصحاب الضياع عن فلاحة أراضيهم إلا بتأجير الفلاحين من مختلف الجهات الخارجة عن حيازتهم الاقطاعية ، فتضاعفت القيم العمالية بانجلترا مرة واحدة ، وخافت الطبقة

(١) راجع Muir : The Mamluke of Egypt, p. 94, — Oman. p. 42

الحاكمة فى إنجلترا وفرنسا من هذه الحركة الجديدة وماسوف يترتب عليها من نتائج ثورية . فسنت فرنسا قوانين حرمت على الفلاحين وسائر العمال أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم وقرر البرلمان الانجليزى فى يونيو ١٣٤٩ عودة الفلاحين وأرباب الحرف إلى أجورهم القديمة التى كانوا يتقاضونها فى سنة ١٣٤٦ كما حرم عليهم الانتقال من جهة إلى أخرى وأصدر البرلمان سنة ١٣٥٠ ومابعدها عدة قوانين فى هذا المعنى . غيرأن التشريعات التى سنتها برلمانات انجلترا عجزت عن إيقاف حركة الفلاحين الذين أخذوا يخرجون عن صمتهم القديم ويطالبون بتحطيم نظام فلاحة الأرض القائم على دعائم النظم الإقطاعية ، وساعدهم فى حركتهم ارتفاع أسعار الحاجيات وكثرة الضرائب الفردية ، وماطرأ على المجتمع من تطور نحو إبدال الخدمة والسخرة فى الأرض بنظام المؤاجرة نقداً وازدياد التعامل بالنقد واستمرت حركة تحرير الفلاحين بانجلترا فى النمو من ذلك التاريخ حتى أشرفت على التمام فى القرن الخامس عشر (١) .

وكيفما كانت نتائج هذا الطاعون فإن كارثته لم تكبح شيئاً من طيش الارستقراطيتين الفرنسية والانجليزية أو تخفف من حدة المنافسة بينهما ، فلم تلبث الحرب أن نشبت بين الدولتين فى صورة وحشية قاسية على حساب الفلاحين الفرنسيين البؤساء ، حين عاون البرلمان الانجليزى مليكه فى تكوين ثلاثة جيوش ، أحدها فى جوينى والآخر فى بريتانى والثالث فى نورمنديا ، وقاد أولها وبتألف من ثمانين ألف مقاتل الأمير الأسود وهو إدوارد بن إدوارد الثالث ملك إنجلترا ، ودخل الأراضى الفرنسية عن طريق بوردو فأحرق ونهب وخرب وقتل وسبى كل مامرت به جنوده فى القرى الفرنسية الواقعة حول بوردو . وزحف حتى تحصن فى بواتييه حيث هاجمه حنا الثانى المشهور بالطيب Le bon ملك فرنسا ومعه أولاده الأربعة و ٢٦ دوقا وكونتا و ١٤٠ أميراً من الأمراء الملتزمين ويتراوح جنده بين خمسين ألفاً وثلاثين ألفاً ، ودارت معركة موبرتوايس Maupertuis قرب بواتييه ١٩ سبتمبر سنة ١٣٥٦ التى قضى فيها الأمير الأسود على مجد فرنسا الحربى التليد ، وأسر

(١) راجع فبشر ج٢ ص ٣١٨ — ٣٢٢ Oman, p. 42-Ellis and Fisher VII, p. 99

ملكيها حنا الطيب وابنه الصغير فيلب وأبيد جيشه كله ، عدا فرقة واحدة فرت إلى باريس ومعها ابنه شارل الذى تقلد الحكم نيابة عن أبيه الأسور .

ثم إن جيشاً إنجليزياً بقيادة الملك إدوارد الثالث تقدم نحو أسوار ريمس وباريس ، وزحف الجيش الثالث من بوردو شرقاً وأشعل النار فى حرائش الزيتون وبساتين الكروم فى أقاليم لنجدوك أى أقاليم فرنسا الوسطى وحدائقها ومزارعها . وعجل شارل ولى العهد بعقد هدنة مع الإنجليز سنة ١٣٥٧ لمدة سنتين حتى يتمكن من جمع شتات الأمة الفرنسية وتضميد جراحها ، وصارت هزيمة فرنسا فى بواتييه سنة ١٣٥٦ أولى النكبات الكبرى التى واجهتها الملكية الفرنسية حتى منتصف القرن الخامس عشر . وقد زار فرنسا بترارك بعد أربع سنوات أو خمس من تلك الواقعة ووصف الخراب والدمار الذى حل بفرنسا ، وصور ألوان المذلة التى ذاقتها الأمة الفرنسية على يد الجيوش الإنجليزية وصفاً غاية فى البؤس والألم (١) . إذ أخذ المسرحون من جند المملكتين يؤلفون عصابات تنهب البلاد ، وعجزت الحكومة الفرنسية عن ضبط الأمن وعن إعداد جيش منتظم يدفع المغيرين عن البلاد .

وتعددت المشاكل الداخلية والخارجية لولى العهد شارل بن الملك الأسور وأراد الاستعانة فى معالجتها بمجلس طبقات الأمة فدعاه إلى الانعقاد فى مارس سنة ١٣٥٧ وعرض عليه حاجته إلى المال لدفع الفدية المقررة لإطلاق سراح والده ، وإلى تكوين جيوش إقطاعية لإخراج الإنجليز وانتهز إتين مارسيل Etienne Marcil حاكم باريس ورئيس تجارها وأحد أعضاء البرجوازية المفوهين الفرصة ليكيل التهم ضد الحكومة الملكية الفاسدة ، وأن يوجه المجلس توجيهاً ثورياً ضدها ، وأن يطالب بإصلاح عاجل لنظم الحكم ، وأن يحمل المجلس على إصدار قرار شامل La Grande ordonnance أشبه بالماجنا كارتا و شروط اكسفورد فى انجلترا فى القرن الثالث عشر. عالج البيان نظام الحكم الفرنسى فى إحدى وستين مادة أهم ما جاء فيها أن تحكم فرنسا حكومة نيابية مسئولة ، وأن يتمتع مجلس طبقات الأمة

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٣٢٣ — Pirenne, p. 429

بكافة السلطات التى يتمتع بها برلمان انجلترا من حيث إقرار الضرائب ومراقبة تصرفات الحكومة ، وأن يجتمع هذا المجلس فى مواقيت معينة سنوياً ، وأن ينشأ جيش وطنى عن طريق التجنيد الإجبارى تكون أولى مهماته طرد الإنجليز من فرنسا .

والبيان فى مجموعة يبين مدى تطور نظم الحكم الإنجليزية فى الأمة الفرنسية واتخاذهم من الانجليز قدوة حسنة لهم فى تطورهم السياسى والاجتماعى مع تجاهلهم ما بين الأمتين من فوارق جغرافية ، وجنسية لأن فرنسا لم تكن مهيأة من الناحية القومية لقبول هذه النظم التقدمية لعدم استكمال وحدتها بعد ، وعدم استعداد أمراء الإقطاع للتنازل عن بعض امتيازاتهم وحقوقهم الإقطاعية ، قاد مارسيل ولوكوك Le coq أسقف ليون الثوار فى باريس نوفمبر سنة ١٣٥٧ وهجموا على سجنها وأخرجوا من به ، ومنهم أحد المطالبين بالعرش الفرنسى وهو شارل ملك نافار ، وهو الدساس الخائن الداهية الذى عكف على خدمة الانجليز بعد أن أخذ على نفسه عهداً سرياً مكتوبا أن يعتلى العرش الفرنسى على قاعدة التبعية لملك انجلترا . وكادت تنجح ثورة باريس الشعبية هذه فى عزل ولى العهد وتولية شارل هذا المعروف بشارل القبيح Mauvais إذ قاد مرسيل الثوار المسلحين واقتحم القصر على شارل ولى العهد ، وقتل اثنين من رجاله فى فبراير سنة ١٣٥٧ وأجبره على إعلان موافقته على قرار الجمعية الصادر فى سنة ١٣٥٧ .

على أن ولى العهد تنكر لهذه القرارات بعد نجاحه فى الهرب من باريس فى مارس من تلك السنة وأعداده جيشاً قادراً على استرداد عاصمته . وهكذا وقعت فرنسا فى حرب أهلية بين ولى العهد وبين أنصار مارسيل الذى تحالف ومع وليم كارل Karle زعيم ثورة الجاكيرى ، وهى الثورة التى أشعلها الفلاحون الفرنسيون فى نهاية مايو سنة ١٣٥٧ والتى أقصفت بكل صفات العنف والوحشية شان ثورات البؤساء البائسين ، أقاموها فى وجه النبلاء الذين باعوا فرنسا للانجليز قادهم كارل بعد أن دربهم تدريباً عسكرياً مسلحاً إلى تخريب وتدمير وقتل كل من يعترض سبيلهم ، وبانضمامهم إلى ثورة باريس الشعبية صارت العاصمة مهددة بخطر كبير فى الداخل والخارج ، حيث وقف الجند الانجلير يرقبون الفرصة المناسبة للاستيلاء

عليها . ومع أن الثورة التي أسماها النبلاء من باب السخرية بالفلاحين الهلافيت jacques Bonhommes أخمدت في سهولة ويسر بفضل خيانة شارل السيء ملك نافار لها وقبضه على كارل وقتله خوفاً من ازدياد نفوذ تلك الطبقة . كما أن البرجوازية قتلت زعيمها مارسيل في ٣١ يوليو سنة ١٣٥٨ بتدبير من أعدائه ولإستنجاده بالجنود الإنجليز فاغتاله أحد أنصاره كما حدث لفان ارتفيلد من قبل ، ومع هذا كله فإن فرنسا لم تجن من وراء تلك الثورة شيئاً سوى أنها وسعت الهوة الاجتماعية بين الطبقات وجعلت البلاد جثة هامدة بسبب الحروب وأعقابها(١) .

وما أشبه تلك الحروب الأهلية الفرنسية بتلك التي قامت في إنجلترا على عهد الملك حنا من أجل الوحدة السياسية والقومية ، وما أشبه حال فرنسا اليوم بما كانت عليه حين احتلها الإنجليز بعد وقعة بوفين Bouvines سنة ١٢١٤ م ويرجع ، فشل الثورة الشعبية في فرنسا إلى أن قادتها كانوا من البرجوازية أصحاب الصناعة والتجارة وهؤلاء على خلاف كبير مع طبقة النبلاء التي لم يوجد من بين أعضائها سيمون دى منتفورت آخر ، أما مؤيدو الثورة من طبقة النبلاء فكانوا مدفوعين بميول شخصية وأطماع ، كشف عنها تخليهم عن الحركة وخيانتهم لقادتها (٢) .

وعلى الرغم من فشل ثورة الفلاحين الهلافيت فإنها تعتبر بداية الطريق في ثورات الفلاحين العديدة ، تلك الثورات التي اتصفت بالعنف والتي قامت في مختلف دول أوربا في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى ( أي ١٤ و ١٥ ) لأسباب منها عدم الرضى بحياة البؤس التي يرسفون في قيودها ، والرغبة في التخلص من القيود الإقطاعية ، وتضميد الجراح والآلام التي لحقت بهم من حروب الإقطاع ونزوات الفروسية ، وصرامة قوانين الأجور ، وكثرة مطالب السادة الإقطاعيين . وتحركت هذه العوامل في نفوس الفلاحين حين رددها المستغلون من أصحاب

---

(١) Malet et isaac, pp. 57-64 grant, p. 386

(٢) Pirenne, op. cit., pp. 430-433.

التيارات السياسية والقومية والدينية ، ودفعوهم دفعاً إلى التمرد والعصيان ولقد وجد الفلاحون فى ثوراتهم دائما الأحلاف من كل القوى ومن جميع الطبقات ، ففى بلاد الفلاندرز وإيطاليا تحالف الفلاحون مع سكان المدن فى الثورة ضد نبلاء الريف . وفى ورتمبرج وبادن بألمانيا تحالفوا مع النبلاء ضد سكان المدن . وفى بوهيميا والدانمرك تحالف الفلاحون مع الوطنيين فى ثورتهم القومية ضد طبقة السادة الإقطاعيين من الأجانب . أما فى إقطانيا بفرنسا فتحالفوا مع العرش ضد الكنيسة والنبلاء . وتحالف الفلاحون أحياناً مع العمال الصناعيين وفقراء القسس ضد البرجوازية والهرطقة الدينية كما حدث فى ثورة الفلاحين الإنجليز سنة ١٣٨١ والتى سنعود إلى ذكرها بالتفصيل بعد قليل (١) .

وهنا يعترض القارىء سؤال ، وهو هل شهد الشرق فى هذين القرنين ( الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ) ثورات اجتماعية مماثلة لتلك التى قامت فى أوروبا ؟ نعم لقد اجتاحت الثورات الاجتماعية الشرق عامة ومصر وسوريا خاصة لوقوعهما تحت حكم سلاطين المماليك وقتذاك . وتقوم قواعد حكمهم على أسس إقطاعية بغيضة ، شبيهة بتلك النظم السائدة فى أوربا إن لم تكن أقبح منها لكون المماليك يكونون طبقة اجتماعية أجنبية دخيلة على المجتمع المصرى السورى . منحت هذه الطبقة الحاكمة الحرية الاجتماعية لرعاياها فى حدود ضيقة ، كأن يتظاهر سكان المدن ويتصايحون ضد أمير ماجن ظالم ، أو ضد قاض خارج على حدود الدين الإسلامى ، أو ضد ضرائب ثقيلة أفق رجال الشرع بمنافاتها للدين ، أو ضد غلاء مصطنع . يتجمع العامة فى ميدان القلعة مقر السلطان الجالس على العرش ويطالبون بعزل الوالى أو القاضى أو رفع الضرائب فيستجيب السلطان لرغباتهم مادامت لا تمس نظام الحكم أو تبغى سلبه من المماليك وإعطائه للعرب . أما الثورات السياسية فكانت من حق طوائف أمراء المماليك وحدهم دون غيرهم . وشهدت المدن الكبرى مثل القاهرة ودمشق وحلب والإسكندرية ودمياط صوراً عديدة لهذه الثورات اتصفت بالحروب

---

(١) Eileen Power Peasant Life and Rural Conditions C. Med Hist. V. VII, p. 737.

الأهلية بين الأحزاب المملوكية ، وتنتهز طبقة العوام الفرصة فتتحالف مع فريق ضد آخر تنفيساً لها عما تلاقيه من كبت وظلم ، وتعبيراً عما تشعر به من حقد وكراهية لتلك الطوائف . ويكون هذا التنفيس فى صورة الانقضاض على بيوت الأمراء المنهزمين ورجمها بالطوب والحجارة ونهبها وحرقها. ومهما يكن من أمر ثورات العامة العرب فإن الوعى الاجتماعى فى الشرق لم يصل إلى مستواه فى الغرب ، ولم يحرز النجاح الذى أحرزه فى الغرب بصفة عامة وفى انجلترا بصفة خاصة . ولعل سبب ذلك مرجعه إلى فقدان الزعامة الوطنية والقيادة الرشيدة من ناحية وإلى الإرهاب الذى جرفته الهجرات المغولية المتتالية إلى منطقة الشرق الأدنى من ناحية أخرى فشلت نشاطه وأكسبته الجمود والقل(١) .

وكيفما كان الأمر من ثورات الفلاحين فإن شارل ولى عهد فرنسا دخل مدينة باريس ، ودعم سلطته بها ، وحكمها حكماً استبداديا ، وما دامت باريس فى أيدى الفرنسيين فلن تكون فرنسا طعمة سائغة للانجليز الذين عقد معهم ولى العهد صلح بريتانى pretigny ٨ مايو سنة ١٣٦٠ بعد أن أدركوا أن عدم اشتباك الفرنسيين معهم فى معارك فاصلة أرهقهم وأن الحكمة تقتضى عقد الصلح معهم ، ومن شروطه أن يدفع ملك فرنسا فدية كبيرة على ستة أقساط قدرها ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، وأن يحتفظ إدوارد بأربعين أميراً فرنسياً من بينهم إثنان من أبناء ملك فرنسا رهائن حتى تدفع الفدية ، وأن تأخذ فرنسا نورمنديا وتحتفظ إنجلترا بأقطانيا وكاليه وبونتيو ، أى ما يساوى ربع المملكة الفرنسية تقريباً ، وإن يتنازل ادوارد الثالث عن كل ادعاء له فى العرش الفرنسى . وبذا عادت إنجلترا سيرتها الأولى فى القارة كما كانت فى بداية عهد البلانتاجنت ، وصارت قوة تحسب فرنسا حسابها . غير أنه من الناحية العملية أصبح من المحال أن تحتفظ انجلترا بتلك الممتلكات الفرنسية ، وإلا كان من المستطاع أيضاً أن تحتفظ فرنسا أيضاً بمقاطعة كنت فى انجلترا إذا أتيحت لها فرصة احتلالها مثلا . وغادر الملك حنا الطيب — بعد أن دفع القسط الأول من الفدية وتعهد بدفع الأقساط الباقية — لندن إلى كاليه حيث وقع نهائياً معاهدة الصلح التى عرفت بمعاهدة كاليه . ثم عجز عن الوفاء

(١) صور مظالم فى عصر المماليك للدكتور نظير حسان سعداوى ص ١١٠ ومابعدها .

بالفدية ، فعاد إلى الأسر بإنجلترا وفاء للشرف ، وظل بها إلى أن مات فى يناير سنة ١٣٦٤ (١) .

لا ريب أن معاهدة كاليه نالت من عزة فرنسا ، لكنها أتاحت لها بضع سنوات تستعيد أنفاسها بفضل ملكها الجديد شارل الخامس ( ١٣٦٤ — ١٣٨٠ ) وهو يختلف تمام الاختلاف عن أبيه المسرف المتلاف لإلمامه بشئون الحكم الصالح فاستحق أن يوصف بالملك الرشيد Le Sage roi ، ذلك أنه شهد من تسلط الغوغاء فى الأيام السود التى تلت كارثة بواتييه ما جعله يمقت أى نوع من أنواع الحكومة الشعبية ، ولذا ترسمت سياسته لإنهاض فرنسا طريقاً غير مجلس طبقات الأمة الذى لم ينعقد مدة حكمه كله سوى مرة واحدة . وسر نجاح شارل أنه أعد الوسائل التى تكفل له الفوز على الانجليز وهى ، أسطول ينازع انجلترا سيادة البحار فى غرب أوربا وجيش يلحق الخسائر بالجيش الانجليزى دون أن يشتبك معه فى المدافع ، وأمة تؤازر الملكية بما فيها من عائد الولاء والأمل . ويعتبر شارل أول ملك فرنسى عمل على تحبيب الفرنسيين فى ركوب البحار حين دأب على زيارة الموانى وأحواض السفن ، وحض أعيان المملكة على القيام بذلك نيابة عنه ، ليحصل منهم على الأموال اللازمة لبناء السفن ، ثم منح الامتيازات للمدن ، وأغدق الألقاب لأغنيائها ، واقتصد فى مصاريف الحكم والإدارة ، وبذا أرضى الشعب جميعاً .

يضاف إلى ذلك أن البلاد تخلصت من الوباء الأسود على أيامه ومن جماعات الجنود المسرحين Les Campagnies المفسدة للحرث والنسل وهم من جنسيات وطبقات مختلفة من إنجلترا وألمانيا وأسبانيا وغسقونيا وبريتانى والأراضى المنخفضة ، خليط من نبلاء وبرجوازية وفلاحين وقطاع طرق . كونوا فرقا حربية للسطو على المدن والمزارع فى جميع أنحاء فرنسا فنشروا الرعب والذعر بين المواطنين وتعقبهم الملك الشاب بالقوة حيناً وبالحيلة أحياناً أخرى ، فأغرى بعضهم بمقاتلة الانجليز والبعض الآخر بالذهاب إلى أسبانيا للاندماج فى الحرب الأهلية الناشبة بين

---

(١) إسماعيل سرهنك ج٣ ص ١٤. Malet et Issac, pp. 64-66 — Painter, p. 42.

القطلانيين ، فلقوا فيها حتفهم بعيدين عن فرنسا ، غير أن بقايا هذه العصابات ظلت وبالا على فرنسا أكثر من قرن ، وقاست البلاد منها الشيء الكثير ، وتكونت أوليات هذه العصابات حول رؤساء من الانجليز جاءوا إلى فرنسا يقاتلون إلى جانب جيش أدوارد الثالث النظامى ، يضاف إليهم عصابات شارل السي ملك نافار ، ثم تشتتت تلك العصابات بعد معاهدة بريتنى ١٣٦٠ .

ولم يرجع إدوارد الثالث إلى انجلترا إلا بجيشه النظامى . وبقى الآخرون فى فرنسا وانضم إليهم قطاع الطرق ، وانتشروا فى البلاد يسلبون ويسبون الفتيات والغلمان ، يصطحبون الباعة الجائلين ليعيدوا بيع المنقولات التى يأخذونها من الفلاحين وإليهم ، كما يصطحبون القساوسة للتراتيل الدينية والصلاة على الموتى (١) ولم تحل مشكلة العصابات فى فرنسا إلا حين أسند شارل الخامس قيادة جيشه إلى برتران دى جوسكلان Bertrand Du Guesclin الذى حذق الأساليب الفابيوسية (٢) فى الحروب فأخضع لسلطان الملكية الفرنسية شارل ملك نافار وحنادى منتفورت وشارل بلوا المتنافسين على دوقية بريتانى ، وبذلك أبعد النفوذ الانجليزى من إقليم أكويتين وطارد برتراند الجنود المسرحين إلى حدود أسبانيا .

وفى سنة ١٣٦٧ م أزوج شارل الخامس أخاه فيليب الجسور دوق برغنديا الأميرة مرجريت بنت لويس الثالث كونت فلاندرز المخطوبة لإدموند الإبن الرابع لإدوارد الثالث ، وقضت تلك الزيجة على التحالف القائم بين انجلترا والفلاندرز وحلت المشكلة الفلمنكية التى شغلت العرش الفرنسى لسنوات طويلة منذ أيام فيليب أغسطس ، وأصبح فيليب الجسور سيداً على برجنديا وفلندرز وفرانش كومتى Comte حتى إذا عاد الفريقان الإنجليزى والفرنسى إلى النضال سنة ١٣٦٩ لم تعد كفة انجلترا هى الراجحة كل الرجحان ، وبدأت الحرب على أثر الثورة التى قامت فى جوين Guyinne بغسقانيا ضد الأمير الأسود الذى يحكمها نيابة عن والده ،

---

(١) تاريخ الجيوش ص ٦٠ — ٩٩٩

(٢) راجع هذا التاكتيك الفرنسى الجديد فى Mobet et saac, p. 76

فاشتط فى جمع الضرائب من الأهالى وعاملهم بالقسوة وتظلم باروناتهم إلى برلمان باريس وملكها ، فطالب الأمير الأسود بالحضور إلى بلاطه لاستجوابه فلم يحضر لمرضه ، فتحرك جوسكلان بقواته الفرنسية دفعة واحدة على الأقاليم الجنوبية . وأرسل إدوارد الثالث الشيخ الهرم حملة سنة ١٢٧٣ بقيادة ولده الثالث حنا أمير غنت ، نزلت فى كاليه وتوغلت فى وسط فرنسا حتى وصلت بوردو متعبة ، دون أن تشتبك القوات الفرنسية معها فى معركة فاصلة ، بل اعتمد قادتها جسكلان ، ولويس دوق أنجو وحاكم لانجدوك وشقيق الملك ، ولويس دوق بربون وأحد كبار اورادت فرنسا على وسائل المفاجئات والكمائن وتقطيع أوصال الحملة الإنجليزية والاستيلاء على الحاميات عن طريق الحيل ورشوة الحراس بإرسال المال والعاهرات الجميلات إليهم ، وكان دوق بربون أبرع هؤلاء جميعاً فى استخدام الحيل والسياسة لإسقاط القلاع الانجليزية فى يده (١) .

وهكذا استطاع جوسكلان وصحبه بأساليبهم الموفقة أن يجلى جيوش انجلترا — فى غيبة ملكها العجوز وولده الأمير الأسود المريض — عن جميع ممتلكاتها فى فرنسا — عدا بايون وبوردو وكاليه — فى الحملات التى قاموا عليها بين ١٣٦٩ و ١٣٧٥ . كما استطاع الأسطول الفرنسى بقيادة أمير البحر جان دى فين Jean de Vinne أن يغير على طول الساحل الانجليزى ، وأن يلقى مراسيه فى نهر التيمز بمساعدة أسطول أسبانيا حليفة فرنسا وقتذاك .

حدث كل ذلك أثناء مرض الأمير الأسود وبعد وفاته سنة ١٣٧٥ ، وكذلك وفاة والده إدوارد الثالث فى السنة التالية ، وهو الملك الذى لم تشغله حروبه عن الإصلاحات الداخلية ، ففى عهده اعتاد البرلمان الاجتماع للموافقة على إمداد الملكية بالأموال اللازمة لمواصلة الحرب مع فرنسا . وصار البرلمان منذ أيامه مجلسين منفصلين ، فغدا البارونات والأساقفة فى مجلس اللوردات ، وممثلو المدن وفرسان المقاطعات فى مجلس العموم ، وكل من المجلسين صاحب حق مقرر فى إدارة شئون البلاد ، ولايزالون كذلك إلى اليوم . وأصدر إدوارد الثالث أكثر

---

(١) راجع تفاصيل ذلك فى Painter, pp. 344-346

من قانون لإصلاح الكنيسة الإنجليزية ، فألغى إرسال الأموال إلى البابوية ، وحرم نظر القضايا أمام المحاكم البابوية كما حرم وصول أوامر بابوية (١) إلى إنجلترا .

وفى عهد إدوارد الثالث قام حنا ويكلف ( ١٣٢٠ — ١٣٨٤ ) Wyclif بحملته على امتيازات الكنيسة وإعفاءاتها وترف رجال الدين وثرائهم . وجمعهم بين المناصب الحكومية والكنسية . اشتغل ويكلف بالقضايا العامة السياسية والدينية منذ عام ١٣٧٤ حين مثل الكنيسة الإنجليزية فى اجتماع عقد فى مدينة بروج Bruges حضره ممثلو البابا لتنظيم العلاقة بين الكنيسة الرومانية والانجليزية ، وهاجم ويكلف ادعاء البابوية فى الكنيسة العالمية وادعاء البابا أنه ظل الله فى أرضه والوسيط بين السيد المسيح والرجل المسيحى . واشتد ويكلف فى مهاجمة العقيدة الكاثوليكية وقدا أتهم بالهرطقة ، وقدم للمحاكمة أكثر من مرة أمام المحاكم الكنسية ، ودافعت عنه جامعة أكسفورد التى نشأ بها طالباً وعاش فيها أستاذاً محاضراً وعميداً لإحدى كلياتها . رسم ويكلف بدعايته العلمانية خطة السير التى انتهجتها بعدئذ حركة الإصلاح الدينى بغرب أوربا بفضل تلاميذه الذين تحمسوا لآرائه ونقلوها عنه إلى القارة وعرفوا بجماعة اللولاردية Lollards الذين اتخذوا الوعظ والدعوة إلى مجادلة الكنيسة فى أصول الدين هدفهم الأسمى . وصارت اللولاردية اسم الحركة الإصلاحية الدينية فى انجلترا فى القرن الرابع عشر ، كما صارت مبادئها أصلا من أصول الإصلاح الدينى الكبير فى انجلترا فى القرن السادس عشر . ولما أحالته جامعة أكسفورد إلى المعاش عاد إلى منزله فى الريف بمقاطعة ليستر ، عاكفاً على مهاجمة الكنيسة ورجالها هادياً إلى الدين الصحيح . ومات ويكلف ١٣٨٤ وفى ١٤٢٨ أخرج فلمنج أسقف لنكولن عظامه وأحرقها وألقى بها فى اليم .

ترجم ويكلف الإنجيل من اللاتينية إلى الانجليزية ، وهى أول ترجمة له بتلك اللغة التى عادت فى عصره إلى مقامها الأول بعد ما لبثت قرونا وهى لا تتعدى الانجليز ،

---

(١) راجع Oman, p. 33, 75

(٢) راوس ص ٦٤ Trevelyan, p. 250 - Carter & Mears, pp. 235-237

إذ اندمج السادة النورمان الفرنسيون فى أهل البلاد ، وزال ما بينهما من اختلاف فى لغة التخاطب ، وأزال اتصالها الطويل بالدانيين ثم بالفرنسيين عنها قواعد الصرف القديمة ، وجعلها نظيمة مرنة سهلة التناول ، فبقيت اللغة فى جوهرها وتركيبها انجليزية ، على حين ظلت فى مفرداتها اختا للغات المتفرعة عن اللاتينية لكثرة ما دخل عليها من الفرنسية ومن اللاتينية من قبل . ولهذا بدت اللغة الإنجليزية مرآة لما حدث بانجلترا على عهد إدوارد الثالث من سهولة النماذج بين العناصر التى حلت بها ، ودليلا على ما انتهى إليه ذلك النماذج من خصب وإثمار ، على أن الانجليزية الكاملة لم تظهر إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى حين جعلها ادوارد الثالث لغة البلاد الرسمية بدلا من الفرنسية ، وهى الانجليزية التى تداولها أهل المقاطعات الشرقية الوسطى East midlands ولندن وجامعتى اكسفورد وكمبردج . وألقى إدوارد الثالث خطاب عرشه فى برلمان ١٣٦٢ باللغة الإنجليزية لأول مرة ، وعمم استعمالها فى الدواوين والمحاكم بعد أن كانت القوانين والعرائض تكتب باللاتينية أحياناً وبخليط من الانجليزية والفرنسية أحياناً أخرى (١) .

وبلغت الانجليزية ربيع زمانها ذلك العصر أيضاً بفضل أشعار جيوفرى شوسر ( ١٣٤٠ — ١٤٠٠ ) Chaucer أول سلسلة الفحول من شعراء الانجليزية وأبو الشعر الإنجليز . أمضى شوسر شبابه خادماً لأحد أبناء الملك إدوارد الثالث ثم التحق بخدمة الملك نفسه وصحبه فى بعض معاركه بفرنسا . أسفره إدوارد الثالث إلى إيطاليا والفلندرز فى مهمات سياسية ، فدرس وتذوق الآداب الإيطالية ولما عاد كتب بالانجليزية ، وبفضله استمع الانجليز إلى صليل دانتى وبترارك وبوكاشيو والآداب الايطالية بدلا من الاستماع إلى النماذج الفرنسية وجرسها اللفظى ، أنشأ شوسر أغنيات كانتربرى الشهيرة "Canterbury Tales" التى بدأها سنة ١٣٨٧ وصور فيها رحلة ثلاثين رجلا وامرأة إلى زيارة قبر القديس بيكت فى كانتربرى فى فصل الشتاء الرهيب ، وتمثل الجماعة طبقات المجتمع الانجليزى فى العصر الوسيط ، إذ اشترك فيها الطبيب والمحامى والكاتب والطحان والراهب والفلاح

---

(١) راوس ص ٦٤ — Woodward, p. 69 - Ellis & Fisher V. II, p. 119

والبحار وعامل النسيج ، كما صور فيها حياة رجل الدين وسيطرة إدوارد الثالث على الكنيسة وثورة الفلاحين البؤساء ، فأشعاره صورة ناطقة لحياة المجتمع الانجليزى فى القرن الرابع عشر (١) .

## الدور الثانى من حرب المائة عام

وأعقب وفاة شارل الخامس ملك فرنسا ١٣٨٠ عهد تعرض فيه كيان الأمة الفرنسية للخطر مرة أخرى ، بسبب التنافس الشديد والحزبية البغيضة بين أبناء البيت المالك والتابعين لهم من النبلاء ، كان خليفة شارل الخامس طفلا ناقص العقل أبلها هو شارل السادس ( ١٣٨٠ — ١٤٢٢ م ) لم يكد يصل إلى سن البلوغ ويتحرر من الوصاية القائمة عليه حتى انقلب إلى حال من الجنون الشديد جعلت شئون الحكم فى فرنسا مجالا للتنازع بين لويس دوق أورليان أصغر إخوة الملك وحنا المقدام The fearless دوق برجنديا وابن عمه فيليب الجسور the bold ، تأثر الأول بروح النهضة الأوربية الجديدة عن طريق زوجته الإيطالية بنت كونت أرماناك ؛ بينما تأثر الثانى بالمبادىء السياسية والاقتصادية عن طريق زوجته الفلمنكية ( الهولندية ) ، وحبذ الأول سياسة العمل الجدى ضد انجلترا عدوة فرنسا على حين أدرك الثانى أن الاحتفاظ بود انجلترا والترابط الاقتصادى معها أعظم أهمية من صداقة فرنسا .

وكانت النتيجة الطبيعية لوقوف هذين الزعيمين على طرفى نقيض كلما ظهرت مشكلة من المشاكل على مسرح السياسة الفرنسية أن اغتيل أولهما وهو لويس دوق أوليان ، وهو فى طريق عودته إلى منزله فى إحدى ليالى باريس الساهرة سنة ١٤٠٧ على يد أنصار الحزب البرجندى بحجة إنقاذ فرنسا من جناية كبرى دبرها الدوق المقتول . وسرعان ما حالفت طوائف الطلاب بجامعة باريس ونقابة الجزارين وهب السكل ومن ورائهم دوق برجنديا وحاصروا الباستيل وحاولوا

---

(١) Carter & Mears, pp. 226-229

القبض على أفراد الأسرة المالكة . وأصبح حنا دوق برغنديا لبضع سنين صاحب الأمر والنهى فى باريس وبعض المدن الكبرى حتى أدبرت عنه الأمور فى سنة ١٤١٢ إلى الحزب الأورليانى أو الأرمنياكى كما سمى وقتذاك . وما أشبه هذا الموقف فى سنة ١٤٠٧ من مدينة باريس بعد مقتل دوق أورليان بموقفها ١٣٥٨ حين قضت حوادث الارهاب والخيانة على الاصلاحات الدستورية التى شرعها مجلس طبقات الأمة مدة أسر الملك حنا الطيب ، وهو نفس الموقف الذى وقفته باريس فى كثير من تفاصيل حوادث الثورة الفرنسية فى القرن التاسع عشر الميلادى (١) .

ولم تكن انجلترا أحسن حالا من فرنسا منذ وفاة ملكها إدوارد الثالث ١٣٧٧ ، إذ اعتلى العرش بعده رتشارد الثانى ( ١٣٧٧ — ١٣٩٩ ) بن الأمير الأسود ، وهو صبى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره فامتلأت البلاد فى عهده بالقلق الشديد والحزبية البغيضة ، والهرطقة الدينية التى أذاعها تعاليم ويكلف وجماعة اللولاردية ، تلك التعاليم التى تحدت نظم البابوية والكنيسة معاً ، وأيقظت وعى الطبقات الكادحة وأوقفتهم على مساوىء النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى انجلترا ، ففتح ملايين الفلاحين أعينهم على أسباب ماهم فيه من بؤس وشقاء وحرمان ، وقاموا بثورتهم المشهورة سنة ١٣٨١ التى انتشرت بأرجاء إنجلترا ، وأحدثت هزات اجتماعية خطيرة كادت تعصف بعرش رتشارد الثانى وحكومته ، وترجع أسباب هذه الثورة إلى النتائج الاجتماعية والاقتصادية التى خلفها وراءه الموت الأسود عامى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ ، فنقص عدد سكان انجلترا بمقدار الثلث ، وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً مخيفاً . وقلت تبعاً لذلك الأيدى العاملة وبارت الأراضى الزراعية ، فطالب العمال الزراعيون برفع أجورهم وتحطيم القواعد الاقطاعية الاقتصادية ومنحهم الحرية الشخصية ، حرية الانتقال من مزرعة إلى أخرى .

وأدركت الطبقات الاقطاعية خطرا انتشار الوعى الجماعى بين العمال الزراعيين ، فعملت البرلمان على إصدار قانون بتحديد أسعار الحاجيات ، وآخر بعودة أجور

---

(١) فيشر ج ٢ ص ٣٢٨ — Painter, pp. 347-348

العمال الزراعيين إلى ما كانت عليه وفق قانون العمال Statute of labourers الصادر سنة ١٣٤٧ ، وإرجاع ماللاشراف من حقوق إقطاعية قبل الفلاحين كحق منعهم من التنقل من مزرعة إلى أخرى . ورضخ الفلاحون على مضض لتلك القوانين الرجعية لانشغال البلاد فى حربها الطويلة مع فرنسا . تلك الحرب التى كلفت خزانة إنجلترا أموالا طائلة ، وتلمس البرلمان الإنجليزى كافة الوسائل فى جمعها وتحصيلها ، ثم أرتأت الطبقات الإقطاعية إنها وحدها تتحمل عبء الضرائب دون مشاركة الفلاحين بنصيبهم فيها ، فتقدم سير رويرت هيلز Hales بمشروع قانون إلى البرلمان بفرض ضريبة الرأس — Poll — tax على من تجاوز الخامسة عشر من جميع المواطنين ، وتتراوح قيمتها ما بين الشلن والثلاثة جنيهات بالعملة الإنجليزية ، وأقر البرلمان الضريبة سنة ١٣٨١ وجمعتها الحكومة فى سهولة ويسر أول الأمر ، غير أن المقتدرين تحايلوا على التخلص منها ، فوقع عبئها الأكبر على الطبقات الفقيرة . ولاحظ محصلوها نقصاً كبيراً فى عدد سكان انجلترا عنه منذ آخر ضريبة لسنوات قليلة مضت ، فأرسلت الحكومة لجاناً للدراسة والفحص ، واعتدى الفلاحون فى مقاطعة إيست إنجلند على أعضاء تلك اللجان وذبحوهم (١) .

وقيل إن الشرارة الأولى للثورة اندلعت فى بلدة درانفورد بمقاطعة كنت حين ذبح حراث أحد محصلى ضريبة الرأس لأنه أهان ابنته (٢) . وامتدت الثورة من تلك المقاطعة إلى سائر الولايات الشرقية حيث وجد جماعة اللولاردية فرصتهم الذهبية ، فألهبو شعور الفلاحين وبصروهم بحقيقة أمرهم ، وأن بيت الداء ليس الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية فقط ، بل فساد رجال الدين وتلاعبهم به وتحريفهم تعاليم السيد المسيح بما يتفق وإشباع أطماعهم وشهواتهم عن طريق امتصاص دماء الفلاحين . وهنا وقف الفلاحون على حقيقة وضعهم فى المجتمع ، وأنهم ضحية الكنيسة والاقطاع معاً . وهذا هو الفرق الجوهرى بين ثورتى الجاكيرى بفرنسا سنة ١٣٥٧ والفلاحين بانجلترا سنة ١٣٨١ . فالأولى سببها الفقر ، أما الثانية

---

(١) Painter, p. 265

(٢) Oman, p. 86

فسببها الفقر كذلك مع الاحساس به وبالظلم الواقع عليهم ، وأن لا سبيل للخلاص منه إلا بالثورة على الكنيسة والمجتمع معاً (١) . وقد لا يتفق هذا القول مع رأى المؤرخ فروا سار Froissart الذى يرجع ثورة الفلاحين الإنجليز سنة ١٣٨١ إلى حالة اليسر والرخاء التى سادت عامة الشعب الانجليزى وقتذاك (٢) .

وقاد ثورة انجلترا مصلحون دينيون إلى جانب المصلحين السياسيين . فكان من أبرز قادتها جنا بول John Ball أحد فقراء القسس ومن معتنق تعاليم ويكلف وإن كان من المشكوك فيه أنه ويكلفى ، طاف بول الغابات والقرى والمزارع داعياً الفلاحين والجياع إلى الثورة فى وجه المجتمع ، ثم اتخذ لندن أخيراً مقراً له حيث نظم مع قادة الأقاليم وسائل التمرد وميعاد إعلان الثورة . وضع بول شعاراً للثورة وهو عبارة عن بيت واحد من الشعر ونصه بالانجليزية (٣) :

When A dam delved, and Eve Span
Who Was then the gentleman ?

وارتفعت أصوات الثوار متحدية النظام الاجتماعى القائم مرددة هذا الشعر الجميل ، وأجمل منه الترجمة العربية لأستاذى دكتور زيادة ونصها (٤) :

إذا ما آدم زرع الأراضى وعاشت أمنا حواء تغزل
فمن ذا يا ترى رب الديار ؟

وصار شعار ثورة الفلاحين الإنجليز مشهوراً فى الأدب الانجليزى فى العصور الوسطى ويجرى على ألسنة الانجليز حتى العصر الحاضر ، واعتبره المؤرخ فرواسار من أمتع ما قيل فى الأدب الكلاسيكى Alocus classicus عن تاريخ الحركة

---

(١) Ellis & Fisher V. II, p. 99 — pirenne, p. 439

(٢) Elleen power : op. cit., p. 738

(٣) Oman, p. 80

(٤) فيشر ج ٢ ص ٣٢٣

الديموقراطية ، صورفيه بول البؤس الذى يعيش تحته الفلاحون الكادحون والسعادة والرفاهية التى يحياها النبلاء (١) .

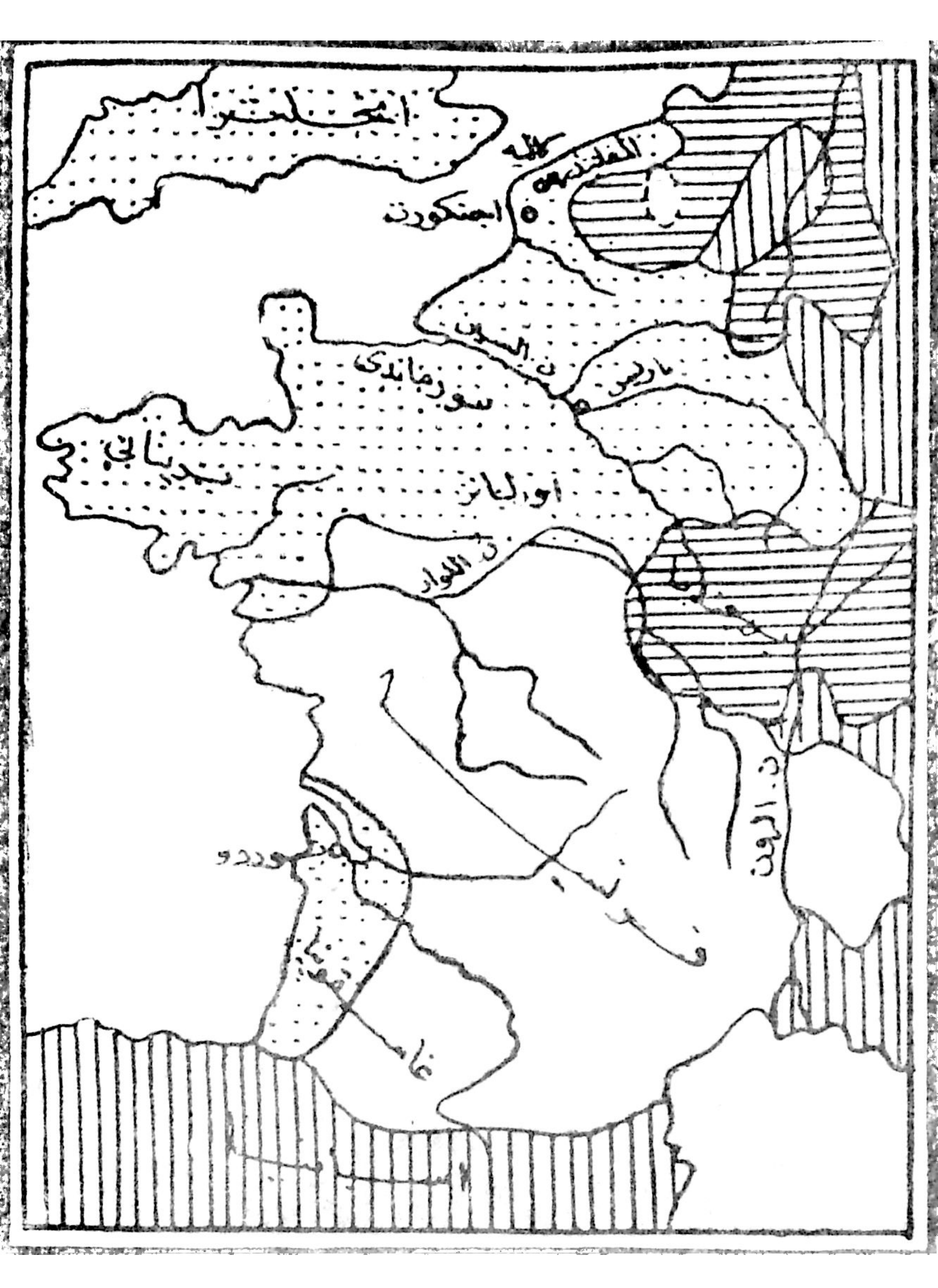
ومن قادة الثورة السياسيين وات تيلور wattaylor أحد الجنود المتقاعدين بمقاطعة كنت. أشعل الثورة هناك وحمل شررها إلى جنوب غرب الولايات الوسطى ، حيث اجتمع مائة ألف عامل وهاجموا قصور الإشراف وأحرقوها ودمروا مابها وأبادوا سجلات عبوديتهم أقتحم تيلور قلعة روتشستر Rochester واستولى على مدينة كانتبرى وأطلق سراح المسجونين بها وقتل رجال الدين هناك . وتقابل مع أفواج الثائرين بالمقاطعات الأخرى عند أسوار مدينة لندن (٢) فأسرع عمدتها ولورث wolworth إلى إغلاق أبوابها فى وجوههم ، غير أن اللندنيين من الغوغاء فتحوها لاخوانهم الفلاحين ، فانتشروا فى شوارع المدنية يقتلون وينهبون . يحرقون ويخربون مااعترض سبيلهم دخلوا الساڤوى قصر الأمير حنا صاحب مدينة غنت ونهبوه وذبحوا كثيراً من التجار الأجانب والشخصيات التى ظنوها سبب بؤسهم وفقرهم . وغدت لندن ، وحكومتها تحت رحمتهم بعد أن اقتحموا القلعة على الملك الشاب طالبين مقابلتهم هاتفين بحياة « ملك الشعب » فخرج إليهم رتشاد الثانى واجتمع بزعمائهم فى مكان اسمه ميل اند Mile end وأجاب كل مطالبهم ، وتنحصر فى إلغاء بعض الضرائب ، وتحديد إيجار الفدان بأربع بنسات ، وإن يتحرر الفلاحون من قيود الاقطاع ، وارتاح الثائرون إلى الروح التى عاملهم بها الملك ثم انصرفوا إلى حقولهم .

غير أن الحكومة سوفت قليلا فى تنفيذ ما وعدت به ، ورفعت الثورة عقيدتها من جديد ، وقاد تيلور أكثر من عشرين ألف ثائر فى شوارع لندن فطلب الملك الاجتماع بممثليهم مرة ثانية ، وبينما هم فى طريقهم إليه يوم ١٣ يونيه سنة ١٣٨١ اقتحم تيلور وبول القلعة ومعهما أربعمائه من الثائرين وقتلوا من بداخلها من رجال الحكم ، منهم سيمون رئيس الأساقفة وصانع قانون ضريبة الرأس ، وربرت هيلز وزير الخزانة ، وحنا ليج Legge كبير محصلى الضريبة ، حدث هذا والملك يَعِدُ

---

(١) راجع Elleen power, p. 739 عن نص خطبة بول فى جموع الفلاحين .

(٢) Painter p. 436.



انجلترا
كاليه
الفلاندرز
اجنكورت
ن. السين
باريس
نورماندى
بريتانى
اورليانز
ن. اللوار
بوردو
ن. الرون
فرنسا

مع رجاله مراسيم رفع الظلم عن الفلاحين (١) . وفى صباح اليوم التالى (١٤ يونيه) دعا الملك تيلور لمقابلته ومناقشته فى الأمر ، واستشعر عمدة لندن فى حديث تيلور الميل إلى الغدر بالملك فعجل بقتله ، ثم تلفت الملك حوله إلى الجماهير — بعد أن فقدوا قائدهم — وناداهم بقوله « ها أنذا مليكيكم وزعيمكم فمن يحبنى فليتبعنى (٢) » فتعجب الناس لقوله وسقط العصاه فى يده وقبضت الحكومة وأعيان لندن على زمام الموقف وأعدم حوالى ثلثمائة من الفلاحين من بينهم القس الفقير بول وجاك سترو Straw قائد الثورة فى مقاطعة اسكس . وبعد شهور من القضاء على الثورة اجتمع البرلمان بجلسية وقرر بطلان المراسيم التى أصدرها الملك لصالح الفلاحين ، بحجة أنه وقعها تحت ضغطهم فى غيبة البرلمان ورغم محاولة رتشارد الوفاء بوعوده وتخفيف ويلات الظلم عن الفلاحين فإنه نزل على إرادة البرلمان . وكل ما كان فى وسعه أن يفعله هو العفو الشامل عن جميع المسجونين من الثائرين فى يناير سنة ١٣٨٠ بمناسبة زواجه من الأميرة آن البوهيمية ابنة الإمبراطور شارل الرابع الصغرى (٣) .

وهكذا كانت ثورة الفلاحين بانجلترا سنة ١٣٨١ كثورة الجاكيرى بفرنسا سنة ١٣٥٧ إحدى صور القلق الاجتماعى المنتشر بأنحاء أوربا فى ذلك الحين ، وتتفق مع الجاكيرى فى أنها بدأت فى الأقاليم وانتقلت إلى العاصمة حيث تآمرت عليها الملكية والإقطاع حتى قضى عليها . غير أنها لم تكن وحشية كثورة الجاكيرى ، ولم يقتصر الذبح والقتل فيها على النبلاء والأغنياء كما حدث فى فرنسا ، بل امتدت إلى سائر الطبقات ، وإن كانت أكثر إيذاء بالحكوميين وكبار الشخصيات الأجنبية وجماعة الغزالين الفلمنكيين الذين جلبهم إدوارد الثالث إلى لندن وأفسح لهم مجال العمل . وترسمت الثورة الإنجليزية عموماً طريق الحرية والإصلاح وصبغت الحركة الديمقراطية فى إنجلترا بالصبغة الاجتماعية أكثر منها بالسياسية (٤) .

---

(١) Oman p. 71.

(٢) Malet & isaac p. 85

(٣) Oman p. 84

(٤) Trevelyan p. 240. - فيشر ج ٢ ص ٣٢٣ — زيدان ص ٦٤.

أما الحرب بين إنجلترا وفرنسا على عهد ملكيهما رتشارد الثانى وشارل السادس فانتقل ميدانها إلى اسكتلندا التى اتحدت مع فرنسا لمحاربة إنجلترا سنة ١٣٨٥ واستطاع رتشارد أن يدمر جيوش المملكتين فى هذا الميدان ويحرق أدنبره ودندى وغيرهما من المدن الاسكتلندية . وفى سنة ١٣٩٦ عقدت هدنة بين الطرفين لمدة عشرين عاما ، وحرص الجانبان على التمسك بشروطها رغبة منهما فى التفرغ لمشاكلهما الداخلية . وأعقب هذا الصلح زواج رتشارد من إيزابلا بنت ملك فرنسا.

على أن المشكلة التى هددت السلام الداخلى فى إنجلترا أيام رتشارد الثانى هى مشكلة الحريات الدستورية وما اعترضها من أخطار فى السنتين الأخيرتين من عهده، حين تجلى من نياته أنه يريد تعطيل الحكم البرلمانى وربما كان مرجع ذلك إلى زواج رتشارد من إيزابلا الفرنسية ، وتأثيره بما حدث فى فرنسا على عهد شارل الخامس من عدم انعقاد مجلس طبقات الأمة إلا مرة واحدة فى ذلك العهد كما تقدم ، أو ربما كان مرجعه ما استولى على رتشارد من ملل وغيظ ، مما يصيب ذوى الأمزجة المتقلبة كثيراً من الأحيان على قول فيشر(١) . وإذا عزل إدوارد الثانى ثم قتل سنة ١٣٢٧ لتفريطه فى شئون الحكم ، فلا أقل من عزل رتشارد الثانى وقتله كذلك على يد ابن عمه هنرى دوق لانكسترا ١٤٠٠ م لاستئثاره بدفة الأمور ، وجزاء إفراطه فى النيل من الحريات الدستورية ، وعرف هذا الهنرى بالرابع ( ١٣٣٩ — ١٤١٣ ) وهو أول ملوك بيت لانكستر ، رمز المحافظة الدينية والحكومة الدستورية ، فحارب اللولاردية بادخال مكاتب التفتيش فى إنجلترا وبإبطال ترجمة الإنجيل إلى العامية وأبعد عنها أهل العلم وأصحاب الحياة الهادئة ، ونتج عن سياسة الاضطهاد هذه أن اتصف عصرهم بعصر كبت الحريات الفكرية . أما البرلمان فخطا خطوات جديدة فى توطيد قدمه بالإشراف على التشريع والمال والاعتمادات الحربية وغيرها ، كما حصل أعضاؤه على الحصانة البرلمانية أى عدم القبض عليهم أو حبسهم مكافأة لهم على قرار طرده رتشارد الثانى من العرش ومنحه لهنرى الرابع . وثار فى عهد هنرى الرابع أهل ويلز بزعامة أوين جلندور ، كما ثار آل برسى فى نورثمبريا وانضم إليهم

---

(١) ج ٢ ص ٣٢٨ .

الاسكتلنديون والفلاندرز ، وأحدثوا بشمال إنجلترا من الاضطرابات ما حمل هنرى الرابع على التنكيل بهم جميعاً فى وقعة حربية حاسمة عند شروزبرى ١٤٠٣م ، وعلى تنظيم الاتصال بين لندن واسكتلندا باستخدام بريد الخيول .

غير أن سياسة المسالمة مع فرنسا لم تستمر طويلا بعد وفاة هنرى الرابع لأن ابنه هنرى الخامس ( ١٤١٣ — ١٤٢٢ ) الموصوف بالحماسة الحربية والفتوة رأى أن أحسن وسيلة للخلاص من مشاكله الداخلية هى أن يجدد الحرب مع فرنسا كى يهلك منافسيه من الأمراء ورجال الدين فيها ، فأعلن أحقيته فى عرش فرنسا استناداً إلى حق جده إدوارد الثالث ، واعتماداً على انقسام الفرنسيين إلى معسكرين متناصرين هما المعسكر البرجندى والمعسكر الأورليانى ، واتصل هنرى الخامس بكل منهما سراً وفى وقت واحد . وبرر ذهابه إلى فرنسا بأنه كان تلبية لدعوة أحد الطرفين المتناضلين فى الحرب الداخلية الناشبة بها وقتذاك ، نزل هنرى الخامس بحملته فى نورمنديا أغسطس سنة ١٤١٥ وسقطت هارفلير Harfleur الواقعة على نهر السين فى الشهر التالى . غير أن خسائره جعلته يقرر العودة إلى لندن عن طريق كاليه ، وكمن له الفرنسيون فى الطريق عند قرية أجنكورت ١٩ أكتوبر سنة ١٤١٥ حيث انتصر على الفرنسيين البالغ عددهم سبعة أضعاف عدد الإنجليز انتصاراً أعاد إلى أذهان مواطنيه انتصارات كريسى وبواتييه ، ووقف البرجنديون من هذه الوقعة وقفة المتفرج الشامت لأن الهزيمة كانت مخزية للحزب الارمنياكى . وفى سنة ١٤١٨ شهد الحزب البرغندى سقوط مدينة راون فى يد الإنجليز مشاهدة المحايد كذلك وتقدمهم إلى باريس حتى دنوا من أسوارها . ولذا أسرع شارل ولى العهد إلى دعوة حنا الجسور دوق برغنديا للاجتماع به فى مدينة مونترو فى سبتمبر سنة ١٤١٩ لإزالة ما بينهما من خلاف فى سبيل مصلحة فرنسا ، وبينما هو ذاهب إلى الاجتماع قتله تانجو دى شاستيل أحد أصدقاء شارل ولى عهد فرنسا للاخذ بثأر لويس دوق أورليان المقتول فى سنة ١٤٠٧ . ومن ثم تحالف فيليب الطيب دوق برجنديا الجديد مع هنرى الخامس ملك انجلترا وأصبح شارل ولى عهد فرنسا بغيضاً من البرجنديين وأهل باريس المسيطرين على الحكم فى فرنسا ، فأقسموا على حرمان ولى العهد من العرش وحصل هنرى الخامس فى معاهدة تروى Troyes مايو سنة ١٤٢٠ على

حق الوصاية والعرش فى عرش فرنسا وعلى أن يتزوج من كاترين بنت شارل السادس ملك فرنسا وأن يمتلك نورماندى واكويتين وأن يمنح فيلب الطيب ابن حنا المقدام دوق برجندنا كل الحقوق والامتيازات التى ادعاها فى بلاده(١) .

وهكذا فقد شارل السادس عرشه بسبب جرائمه وطيشه وسوء سلوكه وشهادة الملكة بأنه ولى عهد مزعوم . دخل هنرى الخامس باريس وأعلن نفسه ملكا لفرنسا وناط بحكمها عمه دوق بدفررد . الواقع أن هنرى الخامس صاحب مشروع توحيد انجلترا وفرنسا فى تاج مشترك ، وصاحب الأحلام والأطماع النابليونية فى الفتح والتوسع فى أوربا لم ينعم بشىء من هذه المشاريع سوى ارتقائه عرش فرنسا قبيل موته بسنة واحدة ، إذ وافته منيته وهو فى سن الخامسة والثلاثين ، ولم يستطع الإنجليز من بعده الإحتفاظ بالتاج المشترك أو إبقاء فرنسا فى قبضتهم لأن الموقف الداخلى بها تغير تغيراً تاماً ، فالملك المجنون شارل السادس أدركته منيته فى نفس السنة ، وخلفه أبنه شارل السابع زعيم الارمنياك ( الاورليانيين ) وزعيم بيت فالوا وسليل آل كابيه ملوك فرنسا الأقدمين . أعلن الطفل هنرى السادس ( ١٤٢٢ — ١٤٦١ ) ملكا فى باريس ولندن فى وقت واحد ، وناب عنه فى إدارة ملكه بفرنسا عمه حنا دوق بدفورد ، وفى إدارة ملكه فى انجلترا عمه همفرى دوق جلوسستر . وأعلن شارل السابع ( ١٤٢٢ — ١٤٦١ ) ملكا لفرنسا كذلك ومقره بورج Bourges ، وبذا تجزأت فرنسا إلى أوصال ثلاثة نوماندى ومين وجزيرة فرنسا وشامبين وباريس يحكمها دوق بدفدرد ، شامبين وما يقع شمال غرب فرنسا تحتله قوات دوق برغنديا حليف بدفورد ويبلغ القسمان ثلاثة أرباع مساحة فرنسا ، ثم ولايات اللوار والوسط ويحكمها شارل السابع .

وحاول بدفورد أن يوسع حدود مملكة ابن أخيه جنوب اللوار فضرب الحصار حول أورليان سنة ١٤٢٨ ودافع سكانها عنها دفاعا مجيداً حتى جاءتهم الإمدادات بقيادة فتاة ريفية من قرية دمرمى Domrémy الواقعة فى منطقة الإحتلال الإنجليزى على الضفة الشرقية لنهر الميز باللورين . وهذه الفتاة هى جان دارك

---

(١) paiuter, pp. 349-352 — حقائق الأخبار جـ ٣ ص ١٢٣ .

( ١٤١٢ — ١٤٣٢ ) جاءت إلى شارل السابع وأنبأته أن الوحى أمرها بفك الحصار الإنجليزى عن مدينة أورليان ، وأن تتوج بعده ولى العهد شارل ملكا بكاتدرائية مدينة ريمس على عادة ملوك فرنسا الأقدمين ، فرحب بمقدمها — بعد تردد — لويس السابع والبسها درعاً أبيضاً وأركبها جواداً أدهم وأمدها بما احتاجت إليه من جيوش وعتاد ، وخلصت الفتاة أورليان فى مايو سنة ١٤٢٩ من الحصار الإنجليزى الذى دام نيف وسبعة أشهر ، ولقبت جان دارك من ذلك الحين بفتاة أورليان ، ثم صحبت شارل إلى حفلة التتويج فى ريمس واكتملت بها أحقيته فى العرش الفرنسى وصار شال السابع فى يونية سنة ١٤٣٢ وأثارت جان دارك الحماسة فى نفوس الفرنسيين وأعتبرها الارمنياك بطلة قديسة ، وقال عنها الإنجليز والبرجنديون أنها ساحرة ، وذاع عنها هذا الإعتقاد فى جامعة باريس بين الأوساط البرجندية فلما وقعت أسيرة فى أيديهم سنة ١٤٣١ وهى تقاتلهم عند بلدة كامبتين Comptègne سلموها إلى قادة الحملة الإنجليزية ، فأعدموها — بعد عام من حبسها — حرقا بالنار علناً وسط السوق بمدينة روان بتهمة أنها ساحرة مارقة عن الدين ، وأيد اتهامهم بطرس كوشن أسقف بوفيه وغيره من أقطاب الدين فى جامعة باريس وصنائع الإنجليز.

وكيفما كان أمر جان دارك فإن لوما كبيراً يوجه إلى مليكها شارل السابع الذى لم يعمل شيئاً لإنقاذها ، إذ كان فى وسعه الاتصال بجنادوق لكسمبرج الذى أسرها وسلمها للانجليز ، طالباً منه تسليمها مقابل مبلغ من المال أو عدد من نبلاء الإنجليز الأسرى ، فضلاً عن أنه لم يقم بأية مناورة حربية لإضعاف الإنجليز فى الميدان لاجبارهم على التعجيل بطلب الصلح واستبدال الأسرى (١) .

وخلق استشهاد جان دارك بين الفرنسيين نوعاً من الوحدة لم تعرفها فرنسا من قبل ، فما لبثت إنجلترا أن فقدت جميع المزايا التى اعتمدت عليها أوائل مراحل حرب المائة عام ، فانتصارات إدوارد الثالث وابنه الأمير الأسود يرجع الفضل فيها إلى حلفائهم من طوائف الفرنسيين والبريتانيين والفلمنكيين وغيرهم ، وانتصارات

---

(١) راجع التفصيل فى Malet et isaac, pp. 120-121 - painter, pp. 354-358 حقائق الأخبار ج ٣ ص ١٢٦ .

هنرى الخامس ترجع إلى صداقة الحزب البرجندى لانجلترا ، فضلا عن صداقة الفلمنكيين ، وبقيت حامياته الانجليزية بشمال فرنسا كأنها طوائف تابعة لحزب البرجنديين لاجيوشاً أجنبية اغتصبت لملكها الوصاية والوراثة فى عرش فرنسا .
أما الآن فلم يدم هذا الأنقسام فى صفوف الأمة الفرنسية بعد استشهاد جان دارك وتفصيل ذلك أنه بعد أن احتفل دوق بدفورد بتتويج هنرى السادس فى كنيسة نوتردام بباريس وويستمنستر فى لندن تصدعت الجبهة الانجليزية البرجندية على أثر زواج أخيه همفرى دوق جلسستر من ابنه عم فليب الطيب دوق برغنديا وطمعه فى الاستيلاء على أملاكها الغنية الواسعة فى هاينوت وهولاند وزيلند ، ولم يفعل بدفورد شيئاً لإيقاف أطماع أخيه فتوترت العلاقة بينه وبين دوق برجنديا وشقيق زوجته التى توفيت سنة ١٤٣٤ ولحق بها زوجها بدفورد فى العام التالى وبذلك انحلت الرابطة بين انجلترا وبرجنديا . وسوى البرجنديون مشاكلهم مع فرنسا فى صلح اراس Arras سنة ١٤٣٥ واتحد دوقهم مع ملك فرنسا والجبهات الفرنسية كلها لاخراج الانجليز من باريس سنة ١٤٣٦ فرجعت إلى أهلها (١) .

ومنذئذ عكف شارل السابع على بناء أداة حكومية رشيدة مسترشداً فيها بالخبرات والمحن الطويلة التى مربها ، وبالكفايات القديرة التى التفت حوله من الفرنسيين أمثال جاك كير Jacques Coeur المالى والاقتصادى الكبير واخوان بورو Les frêres Jein etgaspard Bureau المهندس الخبير باستخدام المدفعية فى الحروب ، وهو السلاح الذى أخاف الانجليز وبه أرعب نابليون أنحاء أوربا فى القرن التاسع عشر . وفى سنة ١٤٣٩ أصدر شارل السابع قانون الجيش وأنشأ بمقتضاه لفرنسا جيشاً نظامياً ، يقوده ضباط معينون من قبل الملك لافرسان إقطاعيون، وخصص شارل — الانفاق على الجيش . ضريبة مليكية من ضرائب الدخل اسمها ضريبة التاى Taille أنشأ من دخلها وحدة من الفرسان والمدفعية والمشاة . وحرم على النبلاء تكوين جيش دون أمر منه ، كما حرم عليهم فرض الضرائب فى إقطاعاتهم . ولما قاموا سنة ١٤٤٠ بثورتهم المعروفة بالبراجيرى

---

(١) Painter. p 358

La praguerie أخضعها بهذا الجيش الجديد (١) . وعقد شارل السابع في نفس السنة هدنة مع انجلترا ، تزوج بمقتضاها هنرى السادس بابنة أخيه الأميرة الفرنسية مارجريت .

وبدأ الدور الأخير من حرب المائة عام بمحاولات فرنسية لاجلاء الانجليز من بلادهم ١٤٤٩ ، ودل شارل فيها على مقدرة فائقة فى تنظيم جيشه الجديد ، وعلى أن عصر البارود والمدفعية آن أوانه ، إذ سحق الانجليز فى معركة روان فى نوفمبر من تلك السنة سحقاً مكنه من سقوط المدينة . كما أن أسطوله وصل فى تهديداته إلى الشواطىء الانجليزية وهدد لندن نفسها كما فعل من قبل سنة ١٣٨١ . سقطت بايون وبوردوا ١٤٥٣ الواحدة بعد الأخرى ، ولم يبق لانجلترا من جميع ممتلكاتها سوى كاليه بعد إبرام الصلح النهائى بين الانجليز والفرنسيين ١٤٥٣ (١) م .

## نتائج حرب المائة عام

كذا إنتهت حرب المائة سنة بين انجلترا وفرنسا بخيرها ، وشرها ، بعد أن أضافت عناصر جديدة إلى مدنية الدولتين بوجه خاص والمدنية الأوربية بوجه عام . إذ كان من بعض ظواهرها أن بقيت روح المباراه الفردية بين المتحاربين وروعيت تقاليد الفروسية ، رغم الفظائع الوحشية التى ملات ميادين القتال . وظهرت الشجاعة الفردية ، فنازل ادوارد الثالث فيلب الرابع ، ونازل هنرى الخامس لويس ولى العهد لتسوية مابين البلدين من حرب عامه فى مبارزة فردية خاصة . وتشبه القادة والجنود بملوكهم فنازل بعضهم بعضا ، ومن طريف مايذكر فى هذا الشأن أن الأمير لويس دوق بربون وأحد كبار لوردات فرنسا فشل فى مهاجمة حصن لأحد قاده الأمير الأسود ، فحفر ممراً أرضياً تحت سوره وقابلته حامية الحصن بحفر ممر مضاد ، وتقابل القائدان المهاجم والمدافع داخل

---

(١) Malet et isaac, pp. 130-133

(٢) فيشر ج ٢ ص ٣٣٦ .

الممر والتحما فى مبارزة فردية فريدة فى نوعها . وتبادل جنودهما المبارزة فى جوف الأرض إثنان إثنان حتى انقضى اليوم وسلم الحصن وتبادل الفريقان الهدايا والتهانى . والقصة تلقى ضوءاً على طبيعة القتال فى ذلك العصر ، وما يتخلله من روح الفكاهة والحيل والآداب(١) .

ومن الأمثلة على أن إحترام قوانين الفروسية فى تلك العصور ساعد على التخفيف من حدة الحرب بين البلدين فى ساحات القتال أن يقوم الأمير الأسود على خدمة الطعام لأسيره حنا الكريم ملك فرنسا ويحتفى به أكبر الحفاوة ، وحين عجز حنا هذا عن دفع ما عليه من فدية لإدوارد الثالث قدم نفسه له أسيراً وفاء للشرف . وأسست أرمل إيرل آيمر بمبروك وهى الفرنسية الأصل فى السنة التالية لمقتل زوجها بمعركة كريسى كلية فى جامعة كمبردج يكون للطلبة الفرنسيين فيها الأفضلية فى الدراسة والسكن ، ولا تزال هذه الكلية تحمل إسم بمبرك حتى العصر الحاضر ، وفى أمثلة آدابهم الدينية أن شارل السادس ملك فرنسا أمر بالصلاة على روح إدوارد الثالث ملك انجلترا بكنيسة سانت شابيل ، غداة وصول الخبر إلى باريس بوفاته ، تخليداً لذكرى بطل عظيم كان فى حياته ألد أعدائه وأشدهم خطراً على مملكته(٢) .

ومن نتائج هذه الحرب ازدياد الشعور بالقومية فى كل من انجلترا وفرنسا ازدياداً بالغاً ، فوقفت عملية التبادل الحضارى بينهما وحاولت كل منهما أن تطبع حضارتها بطابعها القومى ، وشاع مبدأ انجلترا للانجليز England for The English فى ذلك العصر وأخذت الإنجليزية اللغة القومية فى انجلترا تحل محل اللغة الفرنسية فى المؤلفات الأدبية والمحاكم والبرلمان والكنيسة وفى المراسلات الملكية والفردية بعد سنة ١٣٤٠ ، وقاد الحركة الفكرية التحررية شوسر ووكلف وكاكستون ، واقتنى الملوك والأمراء والقادة أنفس كتب العصر ، وممن شغف

---

(١) painter, p. 346

(٢) فيشر جـ ٣ ص ٣٣٧

بالقراءة وجمع الكتب الأمير همفرى دوق جلوستر والأخ الأصغر لهنرى الخامس ملك انجلترا ، والذى صارت مكتبته الأساس الذى قامت عليه مكتبة بودليان الشهيرة باكسفورد (١) .

ومن الناحية الاقتصادية أفلست الحرب الخزانة المالية فى كل من الدولتين وامتصت كل مواردها ، وأفسحت مجال الربح للماليين الايطاليين والمرابين اليهود فى لندن لأنهم أقرضوا المال لادوارد الثالث ، فضلا عن اقتراضه من بنوك الفلاندرز ، وجعلت الحرب الإنجليز يعمدون إلى صنع أصواف أغنامهم أقمشة فى انجلترا بدل تصديرها خاماً إلى أسواق أوربا بأقامة المصانع فى بلادهم ، وبذا أسسوا الصناعة الأولى بين صناعاتهم الرأسمالية الكبيرة كما جعلتهم يفرضون ضريبة الرأس على جميع المواطنين ١٣٨١ لسد نفقات الحرب . وفى فرنسا عمد الملوك إلى تخفيض قيمة النقود فارتفعت أسعار الحاجيات والمتاجر وحدثت ارتباكات مالية ، لجأ ملوك فرنسا بسببها إلى منابع جديدة للمال مثل الجابل وهى ضريبة احتكار الملح التى تقررت ١٣٤١ م فى عهد فليب السادس وتهكم عليه إدوارد الثالث فسماه ملك القانون السالى (Salè) أى الملحى فرد عليه فيلب بقوله وأنت تاجر الصوف لاتجاره به مع الفلمنكيين (٢) . وغدت الجابل ركنا من اركان الدخل الملكى فى فرنسا حتى زمن الثورة الفرنسية .

وانتشرت بسبب هذه الاضطرابات الاقتصادية موجه من السخط العام بغرب أوربا وبدأت تظهر قوات جديدة فى المجتمع الأوروبى ، وأهمها قوة التجار والصناع فى المدن ، وتكونت نقابات أصحاب الحرف ، فضلا عن تيقظ طبقة الفلاحين الذين طالبوا برفع الأجور والتخلص من قيود الإقطاع ورق الأرض . وقاموا بالثورات من أجل ذلك وعرفت ثورتهم فى فرنسا بالجاكيرى ، وسنت انجلترا عدة قوانين عمالية سنة ١٣٤٩ وما بعدها . وعلى الرغم من إخماد ثورتهم فى انجلترا سنة ١٣٨١ فانها كانت صدى لظهور وعى جديد فى المجتمع الانجليزى ، وثمرة من ثمار

---

(١) Rayner, p. 145 وانظر كذلك painter, p. 358

(٢) حقائق الأخبار ج ٢ ص ٣٣٨

دعوة جماعة المصلحين الدينيين المعروفين باسم اللولاردية ، ونذيراً بقرب الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية وحلها عن طريق البرلمان .

ومن الناحية البرلمانية بدأ إدوارد الثالث حكمه بانتصار الأمة على التاج كما فعل جده إدوارد الأول ، وبتعاونه الصادق مع البرلمان حول هذا النصر القومى إلى مصلحة التاج ، فبقدر ما سمح للبرلمان بالتدخل فى سياسته بقدر ما حصل منه على المال اللازم لمواصلة حربه مع فرنسا ، بعد أن أغرقته الديون ١٣٣٩ وأجبرته على التقرب والتودد إلى البرلمان . وتمخضت الحرب عن انقسام البرلمان الإنجليزى إلى مجلسى عموم ولوردات ، وغدا أولهما نموآ دل على أهمية طبقات التجار والمزارعين والاعيان ، ونشأت تلك الأهمية عن ثراء تلك الطبقات ، وحاجة الملوك إلى المال للانفاق على الجيوش ، فأحسنوا الاصغاء إلى ما يقوله مجلس العموم الذى اصبح لأعضائه الحق فى تقديم مشروعات القوانين ومناقشتها بل وإصدار أغلبها فى كثير من الأحيان على هيئة قوانين . على أنه لايجب المبالغة فى قوة أعضاء العموم إذا ما قورنو بقوة النبلاء والملوك إلا أن ما حصلوا عليه من حقوق فى المال والتشريع دل على أهمية هذه الحقوق فيما بعد ، وعلى حرص مجلس العموم فى المحافظة عليها وعلى طلب المزيد منها(١) .

ومن الناحية المعمارية ابتكرت انجلترا فى العمارة طرازاً جديداً اسمه العمودى Perpendicular تمييزاً له من الطراز الفرنسى المتموج Fiamboymant وفى ذلك وحده دليل على أن انجلترا وفرنسا اللتين اتصلتا ببعضهما ببعض حتى نشأ بينهما حضارة مزاجها انجليزى فرنسى معاً منذ أوائل العصور الوسطى ، قد أخذتا تنفصلان الواحدة عن الأخرى من حرب المائة سنة فجاءت العمارة الانجليزية فى أواخر العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والكنائس والكليات الجامعية وبيوت أعيان المزارعين غاية فى الجمال والكمال وبنيت حسب الطراز القومى، وتشهد أعمال التطريز وزخرفة المخطوطات وصياغة الحلى والنقش على ما اتصفت به العقلية الانجليزية من الدقة الفنية والذوق فى النواحى الفنية (٢) .

---

(١) Pirenne, p. 421 - Allis & Fisher V. II, p. 124

(٢) راوس ص ٣

وتقدم الانجليز خطوات واسعة فى فنون الحرب التى من أبرز نتائجها الحربية استخدام البارود ومعرفة أوربا المدفع منذ ١٣٢٤ م وامتلك إدوارد الثالث عدداً كبيراً منه ، واستخدم المدفع لأول مرة فى حصار مدينة كالية ورآه الانجليز لأول مرة سنة ١٣٣٨ حين هاجم الاسطول الفرنسى ميناء سوثهمبتن الإنجليزى وأشعلوا فيه الحرائق بواسطة مدافع تقذف — بقوة احتراق البارود — كرات جديدية صغيرة فكان ذلك بداية حلقة جديدة فى فن الحرب (١) . ومن ثم شاع استعمال المدافع فى غرب أوربا ، على أن أثرها فى ضرب الاسوار الحجرية لم يكن فعالا إذا ما قيست بكرات الحجر والمعادن (٢) .

والمعروف فى تاريخ أوربا الحربى خلال العصور الوسطى أن فرق الخيالة المدرعة كان بيدها وحدها تقرير مصير المعارك الحربية منذ معركة عام ٣٧٨ م . حين حل محلها فى الأهمية حملة السهام والأقواس الطويلة من الانجليز وحملة الحراب المدببة من السويسريين حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . ثم جاء اختراع المدفع فى القرن الرابع عشر مؤذناً بنهاية عصر تلك الأسلحة الوسيطة وفقدانها اهميتها على غيرها من أسلحة القتال وبداية عصر المدفع(١) .

وتأثرت البابوية بهذا الكساد الاقتصادى الذى شمل غرب أوربا فعجزت عن القيام بالتزاماتها المالية ، ولذلك ابتدع البابا حنا الثانى والعشرون ضريبة السنة الأولى من دخل الوظائف الكنسية Annates . وبذا استولى هذا المالى اللاهوتى البارع على أول إيراد سنوى من جميع التعيينات الكنسية الجديدة ، وتوسلت البابوية بوسائل استغلالية أخرى مثل مقرر البابوات Papal provisions لمساعدة ميزانية الكرسى البابوى . وأساءت هذه الوسائل إلى سمعة الحكومة البابوية بغرب أوربا أكبر الإساءة ولا سيما فى انجلترا(٤) .

---

(١) Oman, p. 27

(٢) painter, p. 360

(٣) راجع Moss : The birth of the middle ages, p. 45 1st edit.

(٤) فيشر ح ١ ص ٢٣٩

## حرب الوردتين

ولم تكد انجلترا تختتم حرب المائة عام مع فرنسا ١٤٣٥ حتى بليت بحروب داخلية أهلية عرفت بحرب الوردتين التى خاضها فرعان متنافسان على عرش انجلترا وينتميان أصلا إلى أسرة إدوارد الثالث ، هما فرع أسرة لنكستر صاحبة الوردة الحمراء ، وفرع أسرة يورك صاحبة الوردة البيضاء ، وانضم إلى كل من الفرعين أنصار من النبلاء وأتباعهم ، لا حباً منه فى نصرة فريق على آخر لينال العرش ، وإنما لإشباع حاجة فى نفوسهم باراقة دماء أعدائهم الشخصيين ، وصار السبب العام لهذه الحرب أن النبلاء الإنجليز ضاقوا بالحياة الوادعة فى ظلال السلم الذى أعقب حرب المائة عام ، تلك الحرب التى احتلت من نفوسهم المحل الأول حتى أصبح الخروج لها فى نظرهم كالخروج لصيد الغزلان والثعالب . وتحت تأثير هذه الروح اقتنى الكثيرون منهم فئات عسكرية جندوها من أتباعهم وألبسوها ملابس تحمل شارات (رنوك) بيوتهم الإقطاعية . واستخدموها فى إرهاب المحلفين فى قضاياهم ، كما استخدموها فى اغتيال أعدائهم ، فضلا عن قيام هذه الجيوش بالسطو على المسافرين العابرين أو النهب فى أرض الجيران .

ولم يستطع هنرى السادس وحكومته الضعيفة إنقاذ البلاد من شر هذه الفئات الباغية . أما السبب الخاص والمباشر لهذه الحرب فهو إصابة هنرى السادس بخلل فى قواه العقلية عقب ضياع الممتلكات الإنجليزية بفرنسا فيما عدا كاليه . وبات ضرورياً تعيين وصى للعرش ، وانبرى للمطالبة بالوصاية عليه رتشارد دوق يورك أحق الأمراء بعرش انجلترا لكونه حفيد الملك ادوارد الثالث . فلما أعطى الوصاية على هنرى السادس طمع فى العرش وهنرى السادس على قيد الحياة فوافق الأخير على أن يخلفه بعد وفاته . غير أن الملكة مرجريت أنجو قد رزقت طفلا وتمسكت بحقوقه فى العرش وأيدها أمراء أسرة لنكستر ، كما أيد دوق يورك الأمير وارك Warwick الملقب بصانع الملك The king Maker وكبير بيت نيفل Neville وانتصرت مرجريت بجيوشها على المدعين فى عرش ابنها فى وقعة ويكفيلد Wakefield بشمال إنجلترا وقتل فيها رتشارد وعلقت رأسه ومن قتل معه على باب مدينة يورك فى ديسمبر سنة

١٤٦٠ مما كان له أسوأ الأثر فى تطور الحروب الأهلية وتشكيل الفريق المنتصر بالآخرين(١) . فقام ابنه ادوارد دوق يورك وتمسك بحق أبيه فى المطالبة بالعرش وأمده وارك ومدينة لندن بالمساعدات فى المال والرجال حتى انتصر على أسرة لنكستر سنة ١٤٦١ وأعلن نفسه ملكا باسم ادوارد الرابع (١٤٦١ — ١٤٨٣) .

على أن إدوارد الرابع هذا لم ينعم بالهدوء والاستقرار لإنقلاب صديقه وارك عليه وفراره إلى فرنسا ، حيث تحالف مع مارجريت ولويس الحادى عشر ملك فرنسا ضد إدوارد الرابع . ونجح هذا الحلف فى إعادة هنرى السادس ١٤٧١ للمرة الثانية إلى عرشه ، وفر إدوارد الرابع إلى دوق برغنديا فأمده بجيش استطاع بفضله أن يعود إلى إنجلترا فى نفس السنة ويقتل هنرى السادس ومعه صانع الملك وارك ، ويحكم البلاد مدة اثنى عشر عاماً فى سلام . ولما مات خلفه إبنه إدوارد الخامس وكان فى الثانية عشر من عمره فقام بالوصاية عليه عمه رتشارد الثالث ، ولم يهدأ له بال حتى قضى على ابنى أخيه فى السجن بقتلهما فجلب على نفسه سخط الشعب . وقام هنرى تيودور إرل رتشموند من سلالة إدوارد الثالث من أسرة لانكستر باعداد حملة فى فرنسا ونزل بقواته فى ويلز حيث تقابل مع قوات الملك رتشارد الثالث فى واقعة بزورث Bosworth ١٤٨٥ وهى الواقعة التى قتل فيها رتشارد وأعلن هنرى نفسه ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع فوضع بذلك أساس حكم أسرة تيودور فى انجلترا ، وحسم النزاع بين الأسرتين بتزوجه من الياصبات وارثة أسرة يورك وبفضل ذلك الانتصار انتهى الضغن بين انجلترا والغال إذ صارت الملكية فى انجلترا إلى أسرة غالية — هى أسرة تيودور — قرناً ونيفاً من الزمان ، كما صارت الغال جزءاً من النظام البرلمانى الانجليزى ، وأضحت كذلك انجلترا ذاتها بفضل التيودوريين دولة بروتستانتية(٢) .

وكذا كسب المجتمع الإنجليزى كثيراً من حرب الوردتين ، إذ مهدت السبيل لانتحار النبلاء الإقطاعيين انتحاراً عاماً ، فهبط عددهم إلى المائة بعد أن تراوح بين

---

(١) راجع التفاصيل فى Oman, p. 136

(٢) فيشر ج ٢ ص ٣٠٦ — Grant, p. 455

١٣٠٠ و ١٣٥٠ ، بل وهبط العدد إلى أقل من خمسين فى نهاية حكم إدوارد الرابع أى سنة ١٤٨٣ ، انتقلت ملكية أراضيهم إلى التاج أو إلى أطفال لا حول لهم ولا قوة(٢) . وهم الطبقة التى طالما عرقلت سير الأداة الحكومية واحترام القانون ، بل ووقفت حجر عثرة فى طريق النهوض بالطبقة الوسطى من أهل المدن وطبقة المزارعين بالأقاليم ، تلك الطبقة التى وقفت موقف المتفرج ، لا يعنيها أى الفريقين يكتب له النصر بقدر ما يعنيها من حماية وأرواح أفرادها وأموالهم وممتلكاتهم من شر هذه الحرب ، وهو موقف يدل على مدى ما أصابها من وعى وفطنة واستغلال للظروف . وشاءت ظروف تلك الحرب أن تعتمد الملكية التيودرورية على أفراد تلك الطبقات . ولذلك حكموا حكما مطلقاً دون التقيد بسلطة البرلمان الذى لم يعقد إلا نادراً ، كما أمدت تلك الحرب شكسبير فيما بعد بالمادة الوفيرة لتأليف مسرحياته التاريخية المشهورة .

---

(١) Allis & Fisher V. II, p. 126

# المراجع العربية


١ ـ أدمون ديمولان : سر تقدم الإنجليز السكسونيين . تعريب فتحى زغلول المطبعة الرحمانية بمصر .

٢ ــ بشارة كنعان : العالم الإنجليزى ــ مطبعة أمين هندية .

٣ ــ بل : هـ . أيدرس : مصر من الأسكندر الأكبر حتى الفتح العربى تعريب عواد وعبد اللطيف .

٤ ــ بيى : قصة البشرية : تعريب متولى وموسى . مطبعة الفكرة .

٥ ــ ديورانت : ول ــ قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٣ عن الحضارة الرومانية ترجمة محمد بدران ــ طبعة جامعة الدول العربية .

٦ ــ راوس : ا . ل : التاريخ الإنجليزى . ترجمة دكتور محمد مصطفى زياده (١٩٤٦) .

٧ ــ زيدان : جورجى : تاريخ انكلترا . مطبعة التأليف بالقاهرة (١٨٩٣) .

٨ ــ سرهنك ــ إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٣ الطبعة الأولى

٩ ــ سعداوى : نظيرحسان : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى (١٩٥٧) ــ ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية (١٩٥٧) ــ صور ومظالم من عصر المماليك (١٩٦٦) .

١٠ ــ الشرقاوى : محمد عبد المنعم ومحمد محمود الصياد . هــذا العالم . طبعة دار المعارف .

١١ ــ صبرى . السيد . حكومة الوزارة (١٩٥٣) .

١٢ ــ عاشور . سعيد عبد الفتاح . النهضات الأوربية فى العصور الوسطى(١٩٥٦)

١٣ ــ غربال . محمد شفيق . تكوين مصر (١٩٥٧)

١٤ ــ فشر . هـ . ا . ل . تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ترجمة زيادة والعرينى

الطبعة الأولى — تاريخ أوربا فى العصور القديمة . ترجمة نصحى وعواد الطبعة الأولى .

١٥ — القرآن الكريم . سورة الحديد .

١٦ – كاستلان . چورج — تاريخ الجيوش ترجمة كمال دسوقى ( ١٩٥٦ ) .

١٧ — كوپلاند . ج . و . الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ترجمة زيادة ( ١٩٤٦ ) .

١٨ — المقريزى : تقى الدين بن على . كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك جـ ٢ قسم ٣ من ص ٧٧٢ إلى ٧٨٧ .

١٩ — مؤنس . حسين . أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البحر المتوسط . المجلة التاريخية المصرية . المجلد الرابع العدد الأول مايو ( ١٩٥١ ) .

# المراجع الأجنبية


1 — Artz : Fredrick.
The Mind of the Middle Ages. New York 1953

2 — Carter & Mears :
A History of Britain to 1485 — Oxford 1946.

3 — Curtis ; S. J.
History of Education in Great Britain 1953.

4 — Ellis and Fisher :
A History of English life 2nd ed.

5 — Grant ; A. J.
A History of Europe London 1932.

6 — Haverfield : Roman Britain.
Camb. Med. Hist. V. I — 1924.

7 — Malet et Isaac: XIVe. XV.. XVIe. Siecles Nouvelle edition.

8 — Moss : The birth of the middle ages 1st ed. p. 45.

9 — Oman :
The Hundred Years War London.

10 — Orton, Previté :
(a) Outlines of Med. Hist. Sec. edit. 1919.
(b) The Shorter Camb. Med. Hist. V. I.

11 — Painter, Sidney :
A Hist. of the Middle Ages from 284 to 1500 edit. 1953.

12 — Pirenne, Henri :
A History of Europe from the invasions to the Sixteenth 1948.

13 — Power, Eileen :
Peasant life and rural conditions, Camb. Med. Hist. V. VII.

14 — Rashdall, Hastings ;
The Medieval Universities, Camb. Med. Hist. V. VI.

15 — Rayner, r. m. :
A Short History of Britain to 1485 London 1943.

16 — Stenton, f. m. :
Anglo-Saxon England Sec. edit.

17 — Stephenson, Carl :
Mediaeval History third edition.

18 — Trevelyan, g. m. :
History of England ed. 1926.

19 — Woodward, E. L. :
History of England Lond 1952.

# فهرس الأسماء والأعلام

# محتويات

# HISTORY OF ENGLAND AND HER CIVILISATION

## in Ancient and Middle Ages

*By*

N. H. SAADAWI (Ph.D.)

*Professor of Mediaeval History*
*in Teacher's College - Ein Shams University*

CAIRO 1968

The Arab Renaissance Bookshop
23, Abdul Khalik Tharwat